



اليوم السابع

إبداعات عالمية

يونيو 2016

رواية

413

تأليف: يو هوا

ترجمة: أ. د. عبدالعزيز حمدي عبدالعزيز

مراجعة: لي جيه

اليوم السابع
رواية صينية طويلة

العنوان الأصلي

第七天
余华 著
新星出版社
年 2013

© The KNOFF DOUBLE DAY GROUP, 2014

الطبعة الأولى - الكويت
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2016م
إبداعات عالمية - العدد 413

صدر العدد الأول في أكتوبر 1969م
تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني
(1923 - 1990)

اليوم السابع

اليوم السابع

رواية صينية طويلة

تأليف: يوهوا

ترجمة: د. عبدالعزيز حمدي عبدالعزيز

مراجعة: لي جيه



تصدر كل شهرين من
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

المشرف العام:
م. علي حسين اليوحة

مستشار التحرير:
أ. وليد جاسم الرجيب

هيئة التحرير:
أ. د. سليمان علي الشطي
د. ليلى عثمان فضل
د. زبيدة علي أشكناني
د. علي عجيل العنزي
د. حنان عبدالمحسن مظفر

مديرة التحرير: لمياء خضر القبندي
سكرتير التحرير: جعفر حسين حيدر

التضيد والإخراج والتفيز: وحدة الإنتاج
في المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
التدقيق اللغوي: وائل أحمد حمزة

www.nccal.gov.kw
ebdaat_alamia@nccal.gov.kw
ebdaat_alamia@yahoo.com

ISBN: 978-99906-0-502-0

مقدمة الكاتب الصيني المعاصر «يوهوا» ورأفته.. رواية «اليوم السابع»

لم تعد شخصية يوهوا الكاتب الصيني الكبير غريبة على القارئ العربي، فقد ظهرت ترجمات لبعض أعماله الروائية، وسعدنا بالإسهام في هذا الميدان، فقدمنا ترجمة الدرة الخالدة «على قيد الحياة»، التي ظهرت مطبوعة في سلسلة «إبداعات عالمية» في دولة الكويت العدد (405)، وقدمنا لها بدراسة تناولنا فيها حياة يوهوا بالوصف الموجز، وفنه بالدراسة والنقد، ونحب أن يكون حديثنا عن رواية «اليوم السابع»، مرتبطاً بالحديث الذي قدمنا به الرواية الرائعة «على قيد الحياة».

لا مرء في أن نرى أن من الأوفق البدء بقولنا: إن آثار كاتبنا الأدبية وأعماله الروائية جمعت بين الحياة الإنسانية بوجه عام والحياة الصينية بوجه خاص، فهو الكاتب المجيد - كما يقول الأديب محمد حسين هيكل - خير حياة وأكملها ببقاء الذكر.

ولعل هذا أفضل مدخل لأدب هذا الكاتب العظيم الذي يعيش زاهداً ومتبتلاً في محراب الإنسانية في كل ساعة من ساعات النهار من سَدَفَةِ السُّحْرِ إلى روس الأصيل، وما دام الكاتب الفنان قد رزق البصيرة الفنية فإنها ستنفذ من خلال غواشي بيئته وعصره إلى الحقائق الساطعة الخالدة. وأعماله تجعلنا نشعر بأن البشر لا حيلة لهم ولا قدرة أمام سطوة الأقدار، وإدبار الحظ، ووقوع المكاره، وأنها ترينا كيف تهوى العظمة من عليائها، وتنهار القوة، وتصوع زهرة الجمال، ويعتريها الذبول، ويعصف الموت بكل أسباب الحياة.

ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا إن كاتبنا الذواقه يُعد أثرًا جليلاً من آثار الأدب المعاصر في الصين وخارجها، ويشهد على ذلك قدرته الفائقة على وصف أطوار النفوس وقراءة القلوب، وكل صورة من صوره لها جوها الخاص ومعالمها البارزة وقصتها المتفردة، فهو لا يُجري القلم على القرطاس إلا بعد أن يكون قد استكمل صورة الفكرة التي سيبيديها، ووضحت معالمها وأبعادها، وهو يؤمن بها في طوايا نفسه، ويكشف مكنونات الحياة، ويوضح أسرارها، ناهيك عن الغوص في دنيا الممات وكشف الصعاب وتذليلها، ومعالجة العقْد المؤرية والمشكلات المستعصية.

وفي وسع الكاتب إذا شاء وصحت عزيمته أن يكون القائد الذي يسير بالناس ويتقدمهم إلى أرض الميعاد، وينقلهم إلى عالم خير من هذا العالم الراهن. ولا مندوحة أن يقول كاتبنا: «عندما أصف آلام الصين، فأنا أصف آلامي أيضاً، وذلك لأن آلام الصين هي آلامي وأوجاعي أيضاً»، مصدقاً مقولة الشاعر الإنجليزي شيلي: «إن أعذب الحاننا وأحلى أغانيها هي تلك الألحان والأغاني التي نعبّر بها عن عميق حزننا وبالفأسانا».

وكاتبنا المنطيق أجمع عزمه على ألا يُطيع غير وحي شيطانه، فأعلن أنه اختار لنفسه مهنة الأدب وإن تكن غير مضمونة ولا مأمونة، فهو يحاول التنفيس عن نفسه، والتشاغل عما يَرينُ على صدره، ويأخذ بكظمه من شعور بإهمال الإنسان في عصره، فهو يعيش متمرداً على مفردات الواقع الاجتماعي في زمنه، ولعل ذلك ما جعله يحطم قيوداً وأصفاداً، بل ويتحرر من ريقة «رواية الطلائع» التي تمجّد وتبجل الأسلوب الثوري. إنه التحرر من الولع المفرط بالموضوع الرئيس من العنف والموت،

والانطلاق من واقع الحياة الحقيقية في الصين، ووصف حياة العامة والدهماء والفلتاء من الأفراح والأتراح، والآلام والأوجاع والأحزان، بالإضافة إلى أن الاهتمام بحياة الإنسان ما زال يمثل لبّ كتاباته وأعماله وجوهرها إيماناً منه بقيمة الوجود الإنساني ومغزاه وأهميته.

ويلج قلم أديبنا آفاقاً جديدة أملاها الواقع الجديد في الصين في أعقاب سياسة الإصلاح والانفتاح على العالم الخارجي، والرواية التي بين أيدينا كتبها خلال رحلته التعيّسة والفضة في مسار الجحيم الأرضي وجحيم الآخرة، إنها رواية «الآلام»، و«الأوجاع»، وتندرج في أدب «عذابات الإنسان»، إنها «الآلام»، التي تحاصر العصر قاطبة، و«الأوجاع»، التي تثنُّ من وطأتها النماذج البشرية كافة في المجتمع الصيني بأسره.

وفي عبارة أخرى، إنها الرواية التي جسّدت سخط كاتبنا على الحياة، فقد كان - ولا يزال - ناظماً على العصر وأبنائه، مضطغناً على الزمن وصروفه، طافح النفس بالمرارة والألم إلى حد لم يعرفه أحد من الكتاب الصينيين المعاصرين، ويحتفر لنفسه مسيلاً، فقد تعلّم أن يخترق الصخور أو يعلوها، وزهد في اللين الدمث الذي لا يشقّ عليه أن ينساب فيه.

رواية «اليوم السابع»، هي حلقة متصلة من حلقات وصف عذابات الإنسان في العصر، وذلك كما جاءت في أعماله السابقة، والسياق الاجتماعي الذي وقعت فيه أحداث الرواية في عالم ينكره الكاتب إنكاراً ذاتياً، وفي هذا العالم لم يعد القدر المحرك الأول للحياة. إن الأوضاع الفاجعة التعيّسة الناجمة عن الحقيقة المزرية قد أصبحت علامة ودلالة على الوجود

التجريدي الثابت في هذا العصر، أما الموت فهو عبارة عن مجرد شكل آخر من أشكال التغيير في حقيقة الوجود.

الرواية تصور مآسي الحياة التي تصقل نفوسنا، وتشد عزمنا، وتشحذ قدرتنا على النضال وتقوي استعدادنا لملاقاة الخطوب، ودفع الكوارث، فهي بمثابة التطعيم الذي يُكسب الجسم مناعة ترد غائلة المرض، ويقضي على جراثيم الداء.

الرواية تستخدم الارتجاع الفني في إيراد الأحداث الماضية، وتستخدم الضمير «أنا» في السرد الروائي، وتسرد قصة رجل عادي؛ بطل الرواية (يانغ فيي)، الذي يحكي كل ما رآه وسمعه في سبعة أيام بعد وفاته. وفي الوقت نفسه، يقتحم الكاتب ذاكرة البطل الذي يُفشي كل مكنونات صدره وعذابه وشقائه في حياته، ففي اليوم الأول من مماته، يتوجه إلى «مؤسسة الخدمات الجنائزية»، وعلى كل حال، ما زال يعاني ويتعذب من المعاملة الفظة التي تصيبه بالحزن والألم الشديدين، ولا يجروا على أن يحرق جسده، لأنه يفتقر إلى قبر يوارى جثته، ويستطيع فقط التجوال والطواف والتشرد، ويمشي الهوينى في «أرض الأموات الذين لم يدفنوا». وبعد انقضاء سبعة أيام، يقابل بصورة مستمرة بشرًا من كافة الأصناف والأطياف يتجولون ويطوفون حول تلك الأرض، كما يتذكر ويستعرض الأحداث الماضية والمؤلة في حياته، منذ أن كان «طفلاً يحبو في قماطه»، إلى أن شب عن الطوق، إلى أن رحل عن هذه الدنيا.

كانت ولادة بطل الرواية (يانغ فيي) في دورة مياه قطار، ويسقط منها على قضبان السكة الحديدية، وينقذ حياته أبوه (يانغ جين بياو) الذي تبناه وقام على رعايته وتربيته وتجشم

المصاعب والمتاعب حتى كبر وترعرع، وبعد حب عميق ربطه بالفتاة (لي تشينغ) تزوجها وأصبحت زوجته، ثم ما لبث أن طلقها بعد أن أدارت ظهرها له ووقعت في حبائل عشق شاب آخر. ويجري دولا ب الزمن سريعاً، ويتمكن يانغ في من الوصول إلى أبويه اللذين ينحدر من صلبهما ودمهما، ويبقى معهما فترة أقصر من عمر الزهور، ويفقد معهما الانسجام والوثام، ولا يشعر بالسعادة البتة، ثم سرعان ما يعود أدراجه ويرتمي في أحضان زوجة والده بالتبني وتدعى (لي يو جين) وهي الأم الظئر (المرضعة لغير ولدها) التي منحتة كل أسباب الراحة والرعاية والحب والحنان في مشوار حياته الطويل حتى أصبح قادراً على مواصلة الحياة، ولكن المصائب والكوارث تحاصر «يانغ في» من كل جانب، ويسقط أبوه في غوائل مرض عضال ويصبح مشرداً بلا مأوى، ويلقى حتفه في حريق اندلع في مطعم..

وفي الوقت نفسه، يحكي ويسرد بطل الرواية كل ما رآه وسمعه في «أرض الأموات الذين لم يُدفنوا»، حيث يقابل كثرة كاثرة من الغرباء من كافة النماذج البشرية الذين يثنون من وطأة الأحزان والآلام والمآثر الكئيبة والأحاسيس الحزينة مثل الفتاة (شومي) التي تنتحر بعد أن خدعها صديقها واشترى لها هاتفاً خلويّاً مغشوشاً، كما أن صديقها ويدعى (وو تشاو) يبيع كليته من أجل أن يشتري قبراً لصديقتة، ثم يلقي حتفه بعد أن أصابه التلوث من جراء العملية الجراحية لاستئصال كليته.

ومن الجلي أن الهيكل الروائي واضح، وتتشابك فيه خطوط الماضي والحاضر، والإيقاع اللغوي الروائي والسرد الروائي

يتسمان بالترتيب والتنسيق الهائل. ويستخدم كاتبنا وجهة النظر التي تقترب بلا حدود من الحقيقة لوصف الخيال في العالم الواقعي، وتحقيق إنقاذ الحياة في الفراغ المجسم بين الحياة والموت، ويحاول من خلال السرد الروائي الضخم، أن يصف ويجسد الآلام والأوضاع في كافة مناحي الحياة، ويقيم عالمًا من الكمال والجمال ليخفف من حدة الهجوم على الحياة من جانب الشعور بالشقاء والعذاب الناجم عن فواجع ومآسي المجتمع المعاصر في الصين.

ولعل من نافلة القول، أننا نشعر بالعطف نحو كاتبنا ونحنو عليه لأنه يفتح لنا مغاليق قلبه، ويُفضي إلينا بدخائل نفسه، ناهيك عن الحزن الولاّج الذي تنضح به حروف قلمه عندما يميّط اللثام ويكشف عن مظاهر الحياة الاجتماعية من الأرز المسموم، وخُبز البخار (المانتو) المسموم، ولبن الأطفال المصنوع من بروتين الحيوانات، والمعكرونة المصنوعة من الجبس، وجبن فول الصويا من البراز، وزيت الطعام المستخرج من أحواض بمواسير الصرف الصحي، بالإضافة إلى تجسيد ملامح الحياة الاجتماعية الأخرى التي يندى لها الجبين، وتُقَطَّع نياط القلوب، وتُصيبنا بالخزي والعار بعد تردّي الضمير الإنساني في الصين إلى أدنى مدارج التقدم الإنساني والحضارة عبر تاريخ البشرية جمعاء، ومن ثم، أحداث المسرحية - على نحو من الأنحاء - لا تسير في أرض ميثاء وطريق ممهد، بل تسير في طريق وعربين ارتفاع وصيب وحافل بالصخور المركومة.

وما يسترعي الأنظار، ويملاً الأسماع، ويبقى ذكره مع الأيام مقولة كاتبنا التي جاء فيها أن: «مهمة الكاتب ليست إظهار

الاستياء والامتعاض، ولا الاستهجان والاستنكار، أو التعرية وكشف النقاب، بل يتعين على الكاتب أن يبرز للعيان المثل العليا والنبيل والشهامة. ولا غرو أننا عندما نطالع صفحات الرواية ونلتقي بالأموات الذين لم يُدفنوا في العالم الآخر، سنحظى بسويغات تسمو فيها نفوسنا، ويصقل وجداننا، وقد يطوف طائف من الحزن، وتطفر الدموع من عيوننا، ولكننا مع ذلك نشعر بتسامي عواطفنا، وتحليق عقولنا، وصفاء خواطرنا، وكأننا قد نُقلنا إلى عالم آخر أكثر عدالة، وأكثر طهارة، وأكثر إثارة للشجون والاهتمامات من عالمنا الرتيب المملول.

وعلى هذا النحو، قد أكمل كاتبنا الدائرة بين الحياة والموت، وحقق أقصى وأقصى ما يصبو إليه من تقدير الحقائق، وتحرى الوقائع، ودراسة المشكلات الاجتماعية التي تتحدى الصين في العصر الحاضر، والكاتب الحق هو من يزود قراءه بقوى تدفعهم إلى الأمام، ويستنهض همهم، ويوقظ ضمائرهم، فهو شديد الإحساس، لطاف الشعور، دقاق الإدراك، وهي السمات التي أفردته بين الكتاب المعاصرين أفراد الطائر الصدّاح في غير سريره. وزيدة القول: إن توهج قلم كاتبنا في سناه الباهر في سعيه نحو الكمال الإنساني لم يدخر وسعاً في اجتثاث جذور الفساد من كافة مناحي الحياة الاجتماعية في الصين، وتشذيب النفوس من كل شائبة وضمينة، أو بالأحرى كما قال شاعر فرنسا العظيم بودلير (1821 - 1867): «سأقصّ عود هذه الشجرة البغيضة حتى لا تطلع براعمها المريضة».

د. عبد العزيز حمدي

ديسمبر 2015

اليوم الأول

عندما كان الضباب الكثيف ينتشر في كافة الأصقاع، أدلف إلى الخارج بحثاً عن تأجير منزل، وأترجل في مدينة خاوية على عروشها وتشهد الفوضى الأذلية، والمكان الذي أقصده يسمى مؤسسة الخدمات الجنائزية، وذلك اسمه الحالي، وكان اسمه محرقة الجثث في الماضي. وتسلمت إشعاراً يطلب مني التوجه بسرعة إلى تلك المؤسسة قبل الساعة التاسعة صباحاً، حيث إن ميقات حرق جسدي قد تقرر في تمام الساعة التاسعة ونصف الساعة.

وشهدت ليلة أمس البارحة دوي أصوات أحدثت هديرًا يحطم البيوت، وتتوالى الأصوات المدوية تباغماً حتى تساوت بالأرض المباني المتداعية الآيلة للسقوط، ولم أنم جيداً وسط دوي تلك الأصوات بلا انقطاع، والتي تلاشت بصورة فجائية عندما فتحت باب الغرفة بعد انبلاج بياض النهار، وكأن فتح الباب قد أغلق مفتاح الأصوات التي تخلق دويًا. وبعد ذلك، رأيت قصاصة ورق ملصوقة على الباب تخبرني بأن أغشى مؤسسة الخدمات الجنائزية لحرق جسدي، وكلمات تلك القصاصة مبهمّة وغامضة بعد أن بللها الضباب، ناهيك عن قصاصتين أخريين ملصوقتين منذ عشرة أيام ونيّف تُخبراني أيضًا بدفع فاتورة الكهرباء وفاتورة المياه.

كان الضباب الكثيف يطمر معالم هذه المدينة عندما عرجت في الخارج، تلك المدينة التي فقدت ملامح النهار والليل، كما فقدت مظاهر البكور والمساء، أتقدم نحو محطة حافلات المواصلات العامة، ويتراءى أمامي شبح بعض الأفراد في طرفة عين، كما تتدثر تلك الأشباح في رمشة عين أيضاً. قطعت شوطاً من الطريق مترجلاً بحذر شديد، ثم لافطة محطة تعترض طريقي كأنها انبثقت من باطن الأرض على حين غرة، وتذكرت أن اللافتة يجب أن تشتمل على بعض أرقام الحافلات العامة، وإذا كان الرقم (203) موجوداً، فإذن يجب أن أستقل حافلة ذلك الطريق. ولم أر بوضوح أرقام تلك اللافتة، ورفعت يدي اليمنى ومسحتها جيداً، بيد أنني ما زلت لا أرى بوضوح. وفركت عيني ويبدو أنني رأيت الرقم (203) على اللافتة، وأدركت أن هذا المكان هنا هو محطة الحافلات العامة. بدت مشاعر غريبة على ملامحي، حيث إن عيني اليمنى ما زالت في مكانها الأصلي، أما العين اليسرى فتحركت إلى عظمة الخد. وتتواصل تلك المشاعر، فأحسست -فيما يبدو - بأن هناك شيئاً ما بجوار أنفي، وأسفل ذقتي أيضاً، مددت يدي أتحسس، فأكتشفت أن هناك أنفاً بجوار أنفي، وذقتنا أسفل ذقتي أيضاً، وأنهما يتحركان على وجهي.

يفص الضباب الكثيف بالأشباح والظلال، وسمعت أصوات الحياة الحقيقية ترتفع تارة، وتخفض تارة أخرى مثل المياة المضطربة. أقف هنا بعيداً عن أرض الواقع انتظاراً لقدم الحافلة رقم (203)، وسمعت أصوات تصادم العديد من المركبات تدوي وتترامى إلى مسامعي تباعاً، ولم أر ثمة شيئاً حيث الضباب الكثيف يبلل عيوني، وسمعت فقط أصواتاً تدوي وتحتشد حول

حادث سير، وسمعت صوت عربة ركّاب تجري وسط الضباب، وتلامس كتفي وتخترق أصوات الحياة من حولنا، وتتفجر تلك الأصوات في لحظة مثل غليان الماء.

دام وقوفي طويلا في محطة الحافلات، واستمر انتظاري طويلا أيضًا، وبعد فترة وجيزة، جال بخاطري أن حادث السير الذي وقع في بقعة كبيرة هنا يعوق قدوم الحافلة (203)، وبحب أن أتوجه إلى المحطة القادمة.

أتقدم إلى الأمام، وعيوني المبللة تشاهد رقع الثلج التي عندما تخترق الضباب الكثيف تباغًا تزهو بنفسها وينطلق منها العديد من الأضواء الساطعة فجأة، وتهوي على وجهي، وأشعر بالدفء يغمر وجهي كله، وأتسمر في مكاني، وأحتضن رأسي وألقي نظرة فاحصة على رقع الثلج كيف تتساقط على جسمي، وتبدو ملابسي وسط رقع الثلج أكثر وضوحًا رويدًا رويدًا.

أدركت نفسي أن ذلك يُعتبر يومًا مهمًا، إنه يوم رحيلي عن هذه الدنيا، ولكن جسدي لم يغسل، ولم يتشع بالكفن، وما زلت أرتدي الملابس العادية يكسوها من الخارج المعطف القديم الفضفاض المحشو بالقطن، وأترجل نحو مؤسسة الخدمات الجنائزية، وشعرت بالخجل والحياء لتهوري وطيشي، ثم أدور جسمي وأرجع إلى محطة الحافلات.

تتمتع هذه المدينة بالأضواء الساطعة بفضل كرات الثلج المتطاير المتساقطة، ويبدو أن الضباب الكثيف يندثر بصورة بطيئة، وأرى في مشيتي بصورة غير جلية السيارات والمشاة الذين يذرعون الشارع جيئةً وذهابًا، وأرجع إلى محطة الحافلات التي كنت غادرتها تَوًّا، ويظهر أمامي مشهد فوضوي حيث

عشرون سيارة ونيف تُغلق الشارع في هرج ومرج، بالإضافة إلى سيارة الشرطة والإسعاف، وهناك بعض الأفراد يُمدّدون على الأرض، والبعض الآخر يُجرّجرونهم من داخل عربة الركاب المحطمة، فضلاً عن بعض الأفراد الذين يتئون أنيناً، وهناك أيضاً أشخاص يبكون بحرقة، وآخرون يتسمرون في مكانهم ولا ينبسون ببنت شفة. كان ذلك مشهد وقوع حادث السير، وتوقفت قليلاً، ورأيت هذه المرة بجلاء لافتة الحافلة رقم (203)، وعبرت الشارع إلى هناك.

ورجعت أدراجي إلى المنزل الذي استأجرته، وخلعت ملابسي التي لا تتسجم مع حالتي، ومشيت بقدمين عاريتين إلى جوار حوض الماء، وضغطت على صنوبر المياه، وتتلقي راحة كفي الماء، وعندما كنت أنظف جسمي وجدت به بعض الجروح، وبعض الجروح المشقوقة بالغبار والأتربة، كما يوجد داخلها الحصى المتكسرة والأشواك الخشبية، ونقبت ذلك كله بكل حذر وانتباه. في هذه الأثناء، يدوي رنين الهاتف الخليوي على مقربة من الوسادة فوق الفراش، وشعرت بالاستغراب لأنه معطل منذ شهرين بسبب دين مكالمات سابقة، والآن يدوي رنينه بصورة فجائية. وتناولت الهاتف الخليوي وضغطت على الزر لاستقبال المكالمة وأصغي إلى السماعة، وسمعت صوتاً خافتاً: «آلو».

وسمعت صوتاً ينبثق من السَّماعة: «أأنت يانغ فيي؟».

«نعم».

«نحن مؤسسة الخدمات الجنائية، أين أنت؟».

«أنا في المنزل».

«ماذا تفعل في المنزل؟».

«أقوم بتطهير جسمي».

«الساعة توشك أن تدق التاسعة، وأنت ما زلت تغسل جسدك!»

«ليس كذلك؟».

أقول مرتبكاً: «أحضر إليكم في التو».

«تعال بسرعة، وأحضر معك رقم ميقات حرق جسدك».

«وأين ذلك الرقم؟».

«ملصق على بابك».

الطرف الآخر يفلق الهاتف، وأشعر بالانقباض، أوجد استعجال أيضاً في حرق أجساد الموتى؟ وأضع الهاتف، أستمر في تنظيف جروح جسدي. أحضرت سلطانية، وبعد أن جمعت فيها الماء، أشطف الحصى المتكسرة والأشواك الخشبية داخل الجروح الباقية، وأقوم بتسريع وتيرة التنظيف.

وبعد أن فرغت من تنظيف جسدي، أعرج على دولاب الملابس وجسمي مبلل بالماء، وأفتح بابه وأبحث عن كفني، ولم أجده في الداخل، وعثرت فقط على ثياب النوم من الحرير الأبيض وهو ما يشبه الكفن، ومطبوعة عليه رسومات غير واضحة، ومطرز على الصدر بالخيط الأحمر كلمتان «لي تشينغ» بهت ألوانهما، وذلك من الأثر الباقي من زواجي القصير. كانت زوجتي «لي تشينغ» وقتئذ في متجر واختارت بعناية فائقة اثنين من ثياب النوم مشقوقين من الأمام حسب التقليد الصيني، وطرزت على صدر ثيابها اسمي، وحذت حذوها وطرزت اسمها على صدر ثيابي. وبعد ذلك الزواج القصير لم أرتد أبداً ذاك ثياب النوم، والآن أرتديه، وشعرت

بأن ثياب النوم الحريرية من اللون الأبيض تمنحني بعض الدفء مثل كرات الثلج البيضاء.

أفتح الباب وأفحص بدقة إشعار مؤسسة الخدمات الجنائية المصوق على الباب، ومكتوب أعلاه الرقم (A3)، وأظن أنه رقم ميقات حرق جسدي، ونزعت هذا الإشعار، وبعد أن طويته وضعته في ثياب النوم بكل انتباه.

عندما كنت أستعد لمغادرة المنزل، شعرت بأنني نسيت شيئاً ما، ووقفت أفكر لحظة وسط كرات الثلج المتساقطة، وتذكرت أنني نسيت قطعة القماش السوداء، أنا بلا أنيس ولا جليس، وأفقرت إلى إنسان يعبر عن التعازي بوفاتي، وأستطيع فقط أن ذاتي تعزي نفسي.

أرجع إلى منزلي الذي استأجرته، وأبحث عن قماش أسود في دولااب الملابس، بحثت طويلاً، ولم أجده، وعثرت فقط على ملابس داخلي أسود، ولكن لونه يميل إلى الرمادي بعد أن بات قديماً بالياً. وليس أمامي خيار سوى أن أقص كُمّه وأطوّقه حول الكُمّ الأبيض لذراعي الأيسر. وشعرت بالرضى التام على الرغم من أن ملابس تعزية نفسي تشوبها شائبة.

يدوي رنين الهاتف الخلوي مرة أخرى.

«أأنت يانغ فيي؟»

«نعم».

ينبعث من الهاتف صوت يقول: «نحن مؤسسة الخدمات الجنائية». ثم يسأل: «أتبغي أن تحرق جسدك أم لا؟».

أتردد بعض الشيء، ثم أقول: «أريد حرق جسدي».

«يكون ذلك في الساعة التاسعة ونصف الساعة، ولا تتأخر».

أسأل بحذر شديد: «هل حرق أجساد الموتى يعرف التأخير أيضاً؟».

«إذا كنت تبغي حرق جسدك، يجب عليك الحضور بسرعة».

* * *

قاعة الانتظار في مؤسسة الخدمات الجنائية واسعة وفسحة الأرجاء، والضباب الكثيف في الخارج يتلاشى تدريجياً، وفي الداخل القاعة معبأة ببخار الضباب، وبضعة مصابيح جدارية تشبه الشموع في مكان ينأى عنا بمسافة كبيرة، تشع أضواء لامعة بيضاء تتشابه مع لون كرات الثلج أيضاً، ولا أعرف السبب الذي يجعلني أشعر بالدفع عندما أرى اللون الأبيض.

تصطف أرتال من الكراسي البلاستيكية المثبتة بالمشابج الحديدية في أديم الأرض في الجانب الأيمن لقاعة الانتظار الكبيرة، أما في الجانب الأيسر فتوجد الآرائك، حيث الآرائك المريحة تطوق المكان وتشكل عدة دوائر يتوسطها بضع طاولات للشاي فوقها زهور بلاستيكية ويجلس فوق تلك الكراسي في هذا الجانب كثر من منتظري حرق أجسادهم، أمّا في ذلك الجانب حيث الآرائك فيجلس فقط خمسة من هؤلاء المنتظرين، ويضعون ساقاً على ساق في راحة تامة، وهم نموذج من ذوي المآثر والنجاحات والشهرة. أما الجالسون على الكراسي البلاستيكية في هذا الجانب، فيُصلح كل واحد هندامه ويجلس بوقار.

وعندما دلفت إلى الداخل، استقبلني رجل يرتدي أسماً زرقاء بالية، وفي يديه قفازان مهترئان، وجسمه نحيف مثل العود، وشعرت بأن وجهه عبارة عن هيكل عظمي، وخال من الجلد واللحم.

يقول بصوت خفيض بعد أن رأى تغيرات ملامح وجهي:
«حضرتك جئت إلينا».

و سألته: «أليست هذه محرقة أجساد الموتى؟»
يجيب قائلاً: «الآن لا نقول المحرقة، الآن نقول مؤسسة
الخدمات الجنائزية».

وأدركت أنني تكلمت خطأ على غرار الدخول إلى فندق
وتسأل: «أليست هذه دار ضيافة؟».

وسمعت صوته المتعب المدكوك ينبعث من مكان قصي، وأدركت
أنه ليس الرجل الذي اتصل بي هاتفياً، وأخبرني بأنه «مؤسسة
الخدمات الجنائزية». قدّمت اعتذاري لتأخري عن الموعد المقرر،
فطأطأ رأسه برفق، وواساني قائلاً: «إن أناساً كثيراً قد تأخروا
اليوم»، وإن ميقات حرق جسدي قد تجاوز الوقت المحدد وبات
لاغياً، ويتقدم إلى ماكينة سحب الأرقام بجوار المدخل، ويسحب
رقماً، ثم يسلمني قصاصة الورق.

تراجع ميقات دوري من الرقم (A3) إلى الرقم (A64)،
وفي أعلى الرقم الأخير توضيح مفاده أن هناك أربعة وخمسين
ينتظرون دورهم قبلي.

سألته: «هل من الممكن حرق جسدي اليوم؟».

يجيب: «توجد أرقام خاوية ليست قليلة كل يوم».

ويشير بيده اليمنى التي تلبس القفاز الأبيض المهترئ، إلى
الكرسي البلاستيكي في هذا الجانب، ويعني ذلك أنه يطلب
مني الانتظار هناك، وتحلق عيني في الأرائك في ذلك الجانب،
ويلفت انتباهي أن تلك الأرائك هي منطقة ضيوف الشرف، أما
مكانتي فتتني إلى منطقة العوام في هذا الجانب حيث توجد

الكراسي البلاستيكية، وعندما أخذت الرقم (A64) وتقدمت نحو تلك الكراسي هنا، سمعته يناجي نفسه ويرسل زفرة قائلاً: «رجل مسكين آخر، جاء بلا تجميل».

أجلس على الكرسي البلاستيكي والرجل الذي يرتدي الملابس الزرقاء يخطو خطوات واسعة في الممر الفاصل بين منطقة ضيوف الشرف المنتظرين حرق أجسادهم، ونظرائهم في منطقة العوام، وكأنه مستغرق في تفكير عميق، ووقع خطواته يشبه الطرقات على الباب، ويستقبل المتأخرين الذين يذفون إلى الداخل بصورة مستمرة، ويقول: «جاء حضرتك»، ويسحب رقمًا جديدًا لكل واحد، ثم يمد يده ويشير إليه ويطلب منه الجلوس على الكراسي البلاستيكية في هذا الجانب. ويصطحب ضيف شرف جاء متأخرًا إلى منطقة الأرائك في ذاك الجانب. منتظرو حرق أجسادهم في هذا الجانب فوق الكراسي البلاستيكية يتجاذبون أطراف الحديث بصوت خفيض، كما يتحدث نظراؤهم في منطقة الأرائك والبالغ عددهم ستة. والصوت في منطقة ضيوف الشرف كان مدويًا ومجلجلا ويشبه صوت المغنين فوق خشبة المسرح، أمّا أحاديثنا في هذا الجانب فهي مجرد مصاحبة حوض العازفين في أسفل خشبة المسرح. دارت أحاديث منطقة ضيوف الشرف حول الأكفان وعلب الرفات، ويرتدون الأكفان من حرير قز في غاية الدقة اليدوية، ويطرزون فوقها الرسومات الزاهية، ويتحدثون بصورة عابرة عن أثمان الأكفان؛ ويبلغ ثمن أكفان ضيوف الشرف الستة المنتظرين حرق أجسادهم أكثر من عشرين ألف يوان. ألقى عليهم نظرة فاحصة ورأيتهم يرتدون ملابس تشبه شخصيات القصر.

بعد ذلك، تحدث كل واحد منهم عن علبة الرفات الخاصة به وجودة مادتها المصنوعة من الأوراق العريضة لخشب الصندل والمنقوشة فوقها رسومات في غاية الدقة والجمال وأسعارها أكثر من ستين ألف يوان، وأسماء علب رفات ضيوف الشرف الستة تتسم بالروعة والفخامة أيضاً على النحو التالي: قصر خشب الصندل، قصر الكركي، قصر التين، قصر العنقاء، قصر وحيد القرن الصيني، المقبرة الغربية لخشب الصندل.

ونحن في منطقة العوام نتحدث أيضاً عن الأكفان وعلب الرفات، وقد ذكر الجالسون فوق الكراسي البلاستيكية هنا أن أكفانهم من الحرير الاصطناعي مضافاً إليه بعض القطن الطبيعي، وتتراوح أسعارها في نطاق الألف يوان، ومادة علبة الرفات ليست من خشب السرو، بل من خشب الموبيليا، وفوقها نقوش، وأعلى علبة يُقدَّر ثمنها بثمانمئة يوان، وأرخصها بمئتي يوان. وهناك أسلوب آخر في تسمية علب الرفات في هذا الجانب على هذا النحو: الأوراق المتساقطة تعود إلى جذورها، وخلف وراءه سمعة مدى الدهر.

وبينما كان الجالسون فوق الأرائك يتحدثون عن أكفانهم وعلب الرفات ذات الأثمان الغالية الباهظة، كان الجلساء على الكراسي البلاستيكية يقارنون الأسعار الأرخص والجودة العالية، وعرفت من خلال الحديث الدائر بين اثنين من هؤلاء المنتظرين ويجلسان في الصف الأمامي أنهما اشتريا كفتيهما المتشابهين من نفس دكان الأكفان، ولكن أحدهما أغلى من الآخر بخمسين يواناً صينياً، ويُصعَّد ذلك الرجل الذي اشترى الكفن الغالي الزهفرا، ويتمتم قائلاً:

«زوجتي لا تجيد المساومة».

لفت انتباهي أن المنتظرين حرق أجسادهم الجالسين فوق الكراسي البلاستيكية في هذا الجانب يتشحون بالأكفان، حيث يتشح بعضهم بالأكفان التقليدية على غرار أسرتي مينغ وتشينغ (هما من الأسر التي حكمت الصين من 1368 - 1911)، وبعضهم يرتدي بذلة صينية أو الكفن الحديث من البذلة الغربية. أما أنا فالبس ثياب النوم القديم البالي المشقوق من الأمام على الطراز الصيني، ومن حسن حظي عندما غادرت المنزل، أدركت أن المعطف الفضفاض المحشو بالقطن ليس مناسباً لحالتي وبدلته بثياب النوم الأبيض، وعلى الرغم من أن منظري عرضة للسخرية، بيد أنني أندس في الكرسي البلاستيكي وأستطيع تكلمة العدد هنا.

وعلى كل حال، ليس عندي علبة الرفات، بل حتى أفقر إلى التسمية المتواضعة من: الأوراق المتساقطة تعود إلى جذورها، وخلف وراءه سمعة مدى الدهر. وبدأت أشعر بالقلق، أين يجب نثر رماد عظامي؟ هل يُنثر في البحر العظيم الواسع؟ من المستحيل، إنه المكان الذي يُنثر فيه رماد عظام العظماء، وطائرة خاصة تنقل سفينة حراسة حربية، وتمخر عباب مياه البحر في خضم البكاء المريع للأسرة والأتباع. رماد عظامي يُرمى من غرفة المحرقة وتلقفها الكنيسة وجاروف الكناسة، وبعد ذلك يلقى في برميل الزبالة.

يلتفت رجل عجوز يجلس بجواري ويُحدق في وجهي، ويسألني في دهشة: «لم تنظف جسدك، ولم تقم بالتجميل، أليس كذلك؟».

أجيب قائلاً: «نظفت جسدي، غسلت جسدي بنفسي».

يقول الرجل العجوز: «وجهك، مُقلة العين اليسرى بارزة، والأنف مائل جانباً، والذقن طويلة هكذا».

تذكرت أنني نسيت وجهي عندما نظفت جسمي، وأقول في خجل: «لم أقم بالتجميل».

يقول الرجل العجوز: «أسرتك لا تكثر بك، لم تضطلع بتجميلك، كما لم تضع لك الماكياج».

أعيش وحيداً في الحياة والأب صاحب الفضل في تربيته يُدعى (يانغ جين بياو) ورحل عن دنيانا بلا استئذان إثر إصابته بمرض عضال، أما والدي الحقيقي ووالدتي الحقيقية فيقيمان في مدينة نائية في الشمال تبعد عن هنا حوالي خمسمئة كيلو متر، وهما لا يعرفان أنني في هذه اللحظة أنقل إلى عالم آخر. وسمعت امرأة تجلس على مقربة مني في الجانب الآخر الحوار الذي دار بيننا، وألقت نظرة فاحصة على ملابسي، وقالت: «كيف يكون كفنك شبيهاً بثياب النوم؟».

أقول: «ما أرنديه هو كفني».

لم تفهم تلك السيدة، وتساءل: «أهذا هو كفنك؟».

يقول الرجل العجوز: «الكفن هو الكفن، والكفن يغتبط عندما يسمع أنه يصعد إلى أعلى».

وتفحصت ملامح وجهيهما بانتباه حيث يزخران بالماكياج الكثيف، ويرتديان الملابس الزاهية كأنهما يصعدان خشبة المسرح للتمثيل، وليس أنهما يذهبان إلى غرفة محرقة أجساد الموتى.

أحد المنتظرين لحرق جسده قابع فوق كرسي بلاستيكي يتذمر بالشكوى إلى الرجل المتشح بالملابس الزرقاء، ويقول: «انتظرت وقتاً طويلاً، ولم أسمع صوتاً ينادي رقمي».

يقول ذاك الرجل: «تقام الآن مراسم الوداع الأخير لجثمان عمدة المدينة، حرقنا ثلاث جثث في الصباح الباكر، ثم توقفنا عن العمل انتظارًا لدخول جثة العمدة غرفة المحرقة، وبعد خروجها يمكن أن يأتي دوركم».

يسأل ذاك المنتظر: «لماذا ننتظر حتى يتم حرق جثة عمدة المدينة، ثم تُحرق أجسادنا؟».

«لا أعرف ذلك».

ويسأل منتظر آخر قائلاً: «كم عدد محركات أجساد الموتى لديكم؟».

«اثنتان، إحداهما مستوردة من الخارج، والأخرى صُنعت في الصين. المستوردة من أجل خدمة ضيوف الشرف، والمحرقة المصنوعة في الصين من أجل خدمة حضراتكم».

«هل عمدة المدينة من ضيوف الشرف؟».

«نعم».

«هل عمدة المدينة يحتاج إلى المحرقتين في حرق جسده؟».

«عمدة المدينة يجب أن يستخدم المحرقة المستوردة».

«تحتفظون بالمحرقة المستوردة من أجل عمدة المدينة، فلماذا تحتفظون بالمحرقة المصنوعة في الصين من أجله أيضاً؟».

«لا أعرف ذلك، وأعرف فقط أن المحرقتين قد توقفنا عن العمل».

ضيف شرف في جانب منطقة الأرائك يلوح بيده للرجل المتشح بالملابس الزرقاء الذي يهرول إليه في التو.

يسأله ضيف الشرف: «هل ما زال توديع جثمان عمدة المدينة يحتاج إلى وقت طويل؟».

يجيب ذلك الرجل بعد أن توقف عن الكلام برهة: «لست متأكدًا بالضبط، أظن أنه باقية فترة قصيرة، من فضلكم انتظروا بصبر وهدوء».

يدخل رجل جاء متأخرًا تَوًّا ويبغي حرق جسده، وسمع ما دار بينهما، ويقف في الممر، ويقول: «الموظفون الحكوميون الكبار والصغار في المدينة، بالإضافة إلى نظرائهم في الأقاليم والمحافظات يبلغ عددهم أكثر من ألف، ويودع كل واحد منهم جثمان عمدة المدينة، كما لا يستطيع أن يمشي بسرعة، بل يسير بخطوات وثيدة، كما ينفجر بعضهم في البكاء».

يقول ذاك ضيف الشرف في استياء شديد: «ما العظمة التي يتحلى بها عمدة المدينة؟».

يردف ذلك الرجل الذي جاء متأخرًا: «في البكور بدأ إغلاق الطرق الرئيسية في المدينة، والسيارة التي تحمل جثمان العمدة تسير ببطء مثل السير على الطريق الذي يحتاج إلى نصف ساعة، تقطعه في ساعة ونصف الساعة. الآن ما زالت الطرق الرئيسية مغلقة، ويجب أن نتنظر لما بعد توديع رماد عظام العمدة حتى يتم السماح بالمرور فيها».

الطرق الرئيسية في المدينة مغلقة، والطرق الأخرى تغص بالسيارات مما يسبب المصاعب والقلق. وجال بخاطري صوت حادث السير عندما كنت أمشي في الصباح وسط الضباب الكثيف، ثم رأيت المشهد الفوضوي الناجم عن ذلك، كما تذكرت في الحال أيضًا الأخبار التي نشرتها الصحف والتلفاز قبل نصف شهر حول وفاة عمدة المدينة على حين غرة، وقدمت تحليلًا رسميًا حول سبب الوفاة؛ ذكرت أن العمدة لقي حتفه إثر

إصابته بمرض في القلب بعد أن أرهق نفسه في العمل بصورة مفرطة. بينما نشرت الشبكة العنكبوتية قصة شعبية مفادها أن عمدة المدينة رحل عن دنيانا فوق فراش في شقة إدارية بفندق خمس نجوم حيث أصيب باحتشاء عضلة القلب بصورة فجائية بعد أن بلغ ذروة المتعة والنشوة مع عارضة أزياء قليلة الخبرة، والتي أصابها الفزع وهرولت في الممر تبكي وتصرخ، ونسيت أن مؤخرتها عارية في ذلك الحين.

بعد ذلك، سمعت ضيوف الشرف في منطقة الأرائك يتحدثون عن القبر، والعوام في منطقة الكراسي البلاستيكية يتحدثون عن الموضوع نفسه أيضاً، ومساحة القبر التي يتحدث عنها الجلساء فوق تلك الكراسي تبلغ متراً مربعاً، أما في منطقة الأرائك فتبلغ أكثر من الموال⁽¹⁾، وربما سمع جلساء منطقة الأرائك الحديث في منطقة الكراسي البلاستيكية، فيقول أحد ضيوف الشرف في جانب الأرائك بصوت عال:

«كيف تقيم في قبر مساحته متر مربع؟».

الهدوء يسود الكراسي البلاستيكية في هذا الجانب، وبدأ الجالسون عليها ينصتون باهتمام إلى الفخفخة التي تجعل المرء جاحظ العينين، وتلوك بها ألسنة جلساء الأرائك في ذلك الجانب. ومن بين هؤلاء الجلساء الستة، يوجد خمسة شيدوا قبورهم فوق قمة جبل سامقة، ويحيط بها البحر العظيم من كافة الجهات، ويسبح حولها السحاب والضباب، إنها قبور الشخصيات الفذة قبالة المنظر البحري من الجبال الباسقة التي لا يطاولها البصر والمناظر متعددة الألوان والأشكال. أما

(1) المو: وحدة مساحة صينية تعادل 0.0667 هكتار . [المترجم]

الجلس السادس فقد شيد قبره على مصطبة جبلية حيث توجد هناك غابة كثيفة تمخرها الجداول وأصوات الطيور المغردة، وشاهدة قبره عبارة عن قطعة حجر طبيعي، وهناك تترسخ الجذور العائلية، يتراوح تاريخها من بضع مئات إلى ألف سنة، ويقول إنه شديد الاهتمام بالأطعمة العضوية، وإن شاهدة قبره عضوية أيضاً، وبالإضافة إلى ذلك، هناك خمس شهادات قبور، من بينها شاهدتان عبارة عن لوح صغير حسب الموجود في أرض الواقع، وشاهدة عبارة عن فناء على الطراز الصيني، وشاهدة عبارة عن فيلاً على الطراز الغربي، ناهيك عن شاهدين رسميتين، وزعموا أنهم لا يستخدمون الشاهدات البراقة والمزخرفة. وتفوّه المنتظر الأخير بكلمات جعلت الجميع يشعرون بالدهشة، ولم يكن في الحسبان أن تكون شاهدة قبره على غرار النصب التذكاري لأبطال الشعب في ميدان تيان آنمين⁽¹⁾، وحجمها يماثل ذلك النصب، وقد تغير ما خطه الرئيس ماوتسي تونغ بيده فوق النصب التذكاري من «أبطال الشعب خالدون إلى الأبد» إلى «الرفيق لي فينغ خالد إلى الأبد»، وذلك من خط الرئيس ماو أيضاً، حيث عثرت أسرته في مخطوطات ماو على الكلمات «الرفيق لي فينغ»، وقامت بنقشها على شاهدة القبر بعد تكبيرها.

ويكمل حديثه قائلاً: «الرفيق لي فينغ هو أنا».

يخاطبه أحد ضيوف الشرف قائلاً: «ينطوي ذلك على مجازفة، وربما تقبض عليك الحكومة ذات يوم».

(1) ميدان تيان آنمين (السلام السماوي) يتوسط قلب العاصمة الصينية بكين، ويُعتبر أكبر ميدان في العالم، وتبلغ مساحته 44 هكتار. وقد أعلن الزعيم الصيني ماوتسي تونغ تأسيس جمهورية الصين الشعبية في هذا الميدان، وذلك في أول أكتوبر عام 1949. [المترجم]

الصورة واضحة في ذهن لي فينغ، ويقول: «قدم الرشوة للحكومة، غير أنه لا يسمح للصحافيين أن يكشفوا النقاب عن ذلك. وقد أرسلت أسرتي اثني عشر رجلاً على حذر تام من الصحافيين ويستमितون في الدفاع حتى الموت، وهؤلاء الرجال بالمصادفة هم جماعة الإعداد والتخطيط في الجيش، وهناك جماعة الحراسة التي تقوم بحمايتي، فأستطيع أن أنام ملء جفوني».

في هذه الأثناء، تُضأ فجأة مصابيح السقف على جانبي قاعة انتظار منتظري حرق أجسادهم، وتتحول فترة الفسق إلى الظهيرة، والرجل المتشح باللباس الأزرق يتقدم إلى البوابة في عُجالة.

يدلف إلى الداخل عمدة المدينة مرتدياً بذلة غريبة سوداء، وتحتها قميص أبيض، ويشد حول رقبته رباط العنق الأسود. يمشي ولم يرتسم على وجهه أي تعبير، ويضع ماكياجاً كثيفاً على وجهه، وحواجه سوداء كثّة، ويطلّي شفّتيه بأحمر الشفاه الفاتح، يستقبله ذلك الرجل ويرشده إلى الطريق باهتمام شديد قائلاً: «حضرة عمدة المدينة، من فضلك نغشى استراحة ضيوف الشرف الفخمة».

يومئ عمدة المدينة برأسه قليلاً، ويتبع الرجل المتشح باللباس الأزرق ويتقدم إلى الأمام، ويفتح ببطء الباب الضخم ذي الدرفتين في قاعة الانتظار الكبرى، ثم يغلق ببطء أيضاً بعد أن يدخل عمدة المدينة.

ضيوف الشرف في جانب الأرائك لا ينبسون بأي حرف، وغرفة ضيوف الشرف الفخمة تطفئ على منطقة ضيوف

الشرف الجالسين على الأرائك، فالمال يشعر بمركب النقص أمام السلطة والنفوذ.

ما زال صوتنا يعلو وينخفض في هذا الجانب حيث نجلس على الكراسي البلاستيكية، ولا يزال حديثنا يدور حول القبر. ويتهد الجميع تحسراً على أن القبر الآن أكثر غلاء من الشقة، حتى فناء القبور في المنطقة النائية القاصية مزدحم للغاية، ولم يتوقع أن يكون سعر المتر المربع للقبر يصل إلى ثلاثين ألف يوان، كما أن حق الملكية خمسة وعشرون عاماً. مهما كان غلاء الشقة لكن حق ملكيتها سبعون عاماً. يستشيط بعض منتظري حرق أجسادهم غضباً وغيظاً، والبعض الآخر ناخ عليهم الهم والأسى، واعتراهم القلق، وماذا يفعلون بعد انقضاء خمسة وعشرين عاماً؟ ومن الممكن جداً أن أسعار القبور الغالية بعد خمسة وعشرين عاماً يكون صاروخياً ويصل إلى السماء، وإذا عجز أهل البيت عن دفع التكاليف بصورة مستمرة، فإن رماد عظامهم يمكن أن يكون فقط سماً في الحقول. يقول منتظر جالس في الصف الأمامي بحزن: «أرحل عن هذه الدنيا، ولا أنهض من موتي أبداً».

ويقول الرجل العجوز الجالس إلى جوارى في هدوء: «لا داعي أن نفكر فيما سيحدث في المستقبل».

الرجل العجوز يخبرني بأنه اشترى لنفسه قبراً مساحته متر مربع بثلاثة آلاف يوان منذ سبع سنوات خلت، والآن ارتفع سعره إلى ثلاثين ألفاً. ويشعر بالغبطة لأنه صاحب رؤية مستقبلية سلفاً، أما في الوقت الحاضر فيعجز عن شراء قبر.

ويتهد متحسراً قائلاً: «تضاعف سعره عشر مرات في غضون سبع سنوات».

بدأ النداء على الأرقام في صالة منتظري حرق أجسادهم، ومن الجلي أن عمدة المدينة قد حُرق جسده، وعلبة رفاقته مغطاة بعلم الحزب، ووُضعت بعناية في عربة الخدمات الجنائزية السوداء التي تسير ببطء، ويسير وراءها بضعة مئات من عربات الركاب التي تتبعها ببطء شديد. وتدوي موسيقى جنازية في الطرق المغلقة.. ورقم ضيف الشرف يعلوه الحرف (V)، أما رقم عامة الشعب فيتصدره الحرف (A)، ولا أعرف الحرف الذي يعلو رقم ضيف الشرف من الشخصيات الفذة حسب مرتبة عمدة المدينة؟ وربما ضيف الشرف الفذ لا يحتاج إلى رقم.

يدخل إلى المحرقة ستة من ضيوف الشرف الذين ينتمون إلى فئة الحرف (V)، أما النداء على الذين ينتمون إلى فئة الحرف (A) فكان سريعاً، وكما ذكر المتشع باللباس الأزرق فإن هناك الكثير من الأرقام الخاوية لم يحضر أصحابها، وفي بعض الأحيان ينادى على التوالي أكثر من عشرة أرقام، وكلها خاوية لم يحضر أصحابها. واكتشفت في ذلك الحين، أن ذلك الرجل الذي كان يقف بجواري يمشي في الممر، وعندما رفعت رأسي ورمقته بنظرة، يدوي صوته المتعب المدكوك مرة أخرى قائلاً: «أصحاب الأرقام الخاوية يفتقرون إلى قبر».

وأنا ليس عندي علبة رفات، كما أفتقر إلى قبر. وأسأل نفسي: لماذا حضرت هنا؟

سمعت النداء على الرقم (A64)، وهو رقمي، فلم أنهض من مكاني. وبعد النداء على رقمي ثلاث مرات، ينادي الرقم (A 65)، نهضت امرأة كانت تجلس بجواري، وترتدي الكفن

التقليدي، ويبدو أنه من طراز أسرتي مينغ وتشينغ، وعندما تمشي يتمرجح كمّاهما الكبيران يمّنة ويسرة.

مازال الرجل العجوز الجالس بجواري ينتظر دوره، ولا يزال لسانه لا يكف عن الكلام. وقال على الرغم من أن قبره في مكان بعيد بعض الشيء، والمواصلات إلى هناك ليست مريحة أيضًا، ولكن المنظر أمامه لا بأس به، حيث توجد قبالبته بحيرة ليست كبيرة، ناهيك عن بعض شتلات الأشجار التي زرعت توّاً. وأردف أنه بعد أن يقيم في القبر لا يأتي إلى الدنيا أبدًا، ومن ثم لا يعتبر المكان القصي والمواصلات غير المريحة مشكلة، وبعد ذلك سألني عن منطقة القبور التي يقع فيها قبري.

أطأطأ رأسي قائلاً: «ليس عندي قبر».

ويسألني في دهشة: «ليس عندك قبر، إذن، أين تذهب؟». وشعرت بأن جسدي ينهض واقفًا، وجسدي يقودني إلى مفادرة صالة انتظار حرق أجساد الموتى.

* * *

أقف مرة أخرى وسط الضباب الكثيف المنتشر في كافة البقاع، وكرات الثلج المتطايرة المتساقطة على أديم الأرض، وعلى أية حال، لا أدري أين أذهب، وأناخت عليّ الشكوك والهواجس، وعرفت أن نفسي ماتت، ولكن لا أعرف كيف ماتت؟

أترجل في المدينة التي بدت مشوشة غير واضحة المعالم، أقدح زناد ذهني في البحث عن اتجاه على درب ذاكرتي المتشابكة المتقاطعة، أفكر أنه يجب البحث عن المشهد الأخير قبل موتي، وهذا المشهد الأخير يجب أن يكون في نهاية طريق الذاكرة، والعثور عليه يعني الوصول إلى لحظة موت النفس. وتفكير

يستعين بحركة جسدي في المشي ويجتاز العديد من المشاهد التي تشبه كرات الثلج المتساقطة تمامًا، وبعد ذلك، وصلت إلى يوم الممات في نهاية المطاف.

هذا اليوم، يبدو أنه أمس، ويبدو أنه أمس الأول، ويبدو اليوم الحالي. وأستطيع أن أقرر أنه اليوم الأخير لي في هذه الدنيا، ووجدت نفسي تسير على هذا الطريق وتجابه ريحا باردة.

تقودني قدماي إلى الأمام حتى أصل إلى ميدان قبالة الإدارة البلدية، وهناك تم فض احتجاج أكثر من مئتي شخص تقريباً بالقوة، لم يرفعوا لافتات الاحتجاج، ولم يطلقوا شعارات، غير أن كل واحد منهم سرد مأساته وأتراحه وترامى إلى مسامعي أنهم المتضررون من جراء وقوع أحداث متباينة من العنف وهدم المباني. وأخترق صفوفهم مترجلا على أقدامي، وهناك سيدة تمسح دموعها وتقول إنها خرجت تشتري الخضار، وعندما عادت أدراجها اكتشفت أن منزلها اندثر، ودار بخلدها أنها ذهبت خطأ إلى مكان آخر، فضلا عن رهط من الأفراد يسردون ما أصابهم من الخوف والفرع في منتصف الليل من جراء الهدم والإزالة، حيث استيقظوا مذعورين من نومهم العميق بسبب وابل من الأصوات المزعجة، وتترنج منازلهم بلا انقطاع، ويعتقدون حدوث زلزال، ولكن عندما لاذوا بالفرار مهرولين رأوا الجرافة والحفارة تهدمان بيوت عائلاتهم. وهناك شاب يحكي للآخرين بصوت مرتفع عال تجربته التي من الصعب البوح بأسرارها، وعندما كان هو وصديقه يمارسان الحب في الفراش، تحطم باب البيت بصورة فجائية، واندفع إلى الداخل بضعة رجال ضخام الجثة قيدهما بحبل داخل اللحاف، ثم نقلوهما إلى سيارة تلف في

الشوارع العامة بالمدينة جيئةً وذهاباً، ففاضت روحهما داخل اللحاف بعد أن أصابهما الفزع الشديد، ولا يدریان إلى أي مكان تحملهما السيارة التي تدور في المدينة حتى انبلاج الصباح، ثم رجعا إلى بيتهما، وقام هؤلاء الرجال بإخراجهما من السيارة ورموهما على أديم الأرض، وفكوا الحبل الذي قيدهما، كما رموا لهما عدة قطع من الملابس، يرتديان ملابس الآخرين وجسداهما يرتعدان داخل اللحاف، ويحدق فيهما بفضول نفر من المشاة يقفون هناك، يرتديان ملابسهما ويخرجان من اللحاف ويقفان، ويرى ذلك الشاب آنذاك أن منزله قد تساوى بالأرض تماماً، وصديقتة تنتحب وتبكي، وتقول إنها لن تنام مع صديقها مرة أخرى، وأضافت أن النوم معه أكثر رعباً من مشاهدة فيلم من أفلام الإرهاب.

ذلك الشاب يخبر البشر الذين التقوا حوله أنه فقد منزله، وفقد صديقتة، وأن شهوته الجنسية قد تلاشت هذه المرة من جراء الفزع الذي أصابه، ولن تعود إليه مرة أخرى، ومد أصابعه الأربعة قائلاً: «لقد أنفقت أكثر من أربعين ألف يوان من أجل علاجي من العُنة⁽¹⁾، وتناولت كميات كبيرة من الوصفات الصحية في الطب الغربي، والوصفات الشعبية في الطب الصيني، ولكن رجولتي مازالت تشبه طائرة لا تعرف سوى الانزلاق».

يسأله رجل: «ما حدث توّاً كان صعود الطائرة، ثم هوت على الأرض؟».

يجيب قائلاً: «ليته يوجد مثل هذا الأمر المبهج، ليس لا يعرف الانزلاق فقط، بل ولا يعرف الصعود أيضاً».

(1) العجز الجنسي. [المترجم]

يصرخ رجل آخر: «اطلب من الحكومة التعويض».

يضحك ضحكة صفراء ويقول: «الحكومة عوضتني عن منزلي الذي تعرض للإزالة، ولكنها لم تعوضني عن شهوتي الجنسية التي تلاشت من جراء خوفي وفزعي».

يقترح رجل آخر ويقول: «تناول فياجرا».

يقول: «تناولت حبوب الفياجرا، وتسارعت نبضات قلبي بصورة مجنونة لفترة من الوقت، ورجولتي مازالت تنزلق أيضاً». أمشي وسط قهقهات ضحكاتهم العالية، وأشعر بأنهم ليسوا في تظاهرة، بل في لقاء يجمع بينهم. عبرت الميدان قبالة الإدارة البلدية، ومررت بمحطتين للحافلات العامة، وعلى مرمى البصر يوجد طريق «تشينغ خه».

في تلك اللحظة، أدلف إلى وادي الحياة المنخفض، وزوجتي تركتني منذ زمن بعيد وودعت هذه الدنيا، والذي أصابه مرض عضال لم يبرأ من سقمه منذ سنة ونيف، وبعث منزلي من أجل علاج والذي، وتقدمت باستقالتي من العمل من أجل رعاية والذي الذي يئن من وطأة الآلام، واشترت حانوتاً صغيراً على مقربة من المستشفى. وبعد ذلك، والذي تركنا بلا استئذان وغاص في بحر البشر الشاسع. وبعث الحانوت، وأقيم في منزل إيجاره زهيد، أبحث عن والذي مثل التفتيش عن إبرة في بحر. وطافت أقدامي كافة أصقاع وبقاع المدينة، وتغص عيني بظلال العجائز عدا وجه والذي.

فقدت عملي، وبعث منزلي، وليس عندي حانوت، وخارت ووهنت عزيمتي، وأضطر إلى التفكير بحياتي في المستقبل عندما أكتشف أن النقود الباقية في كارت البنك ليست كثيرة، وعمري

بالكاد واحد وأربعون عامًا، وسنوات قليلة باقية في حياتي تنتظر اضطلاعي بتبديدها، وحصلت على عمل بالتدريس المنزلي من خلال شركة سمسرة تعمل في مجال التعليم الإضافي، وكانت أول طالبة عندي تقطن في طريق «تشينغ خه»، واتصل والدها بي هاتفياً، وسمعت صوته في الهاتف كان أجشً وتشوبه الشكوك، وقال إن ابنته تُدعى «جينغ شياو مينغ» في الفرقة الرابعة بالمدرسة الابتدائية، ودرجاتها العلمية طيبة جداً. وأضاف أنه وابنته يعملان في مصنع، ودخلهما ليس كبيراً، يتحملان بصعوبة دفع تكاليف التدريس المنزلي بواقع خمسين يواناً في الساعة. وكان صوته يوحي بأنه لا خيار أمامه، ويتشابه ذلك كثيراً مع وضعي بلا حول ولا قوة، وقلت له «أتقاضى ثلاثين يواناً في الساعة»، وتوقف لحظة عن الكلام، ثم أردف قائلاً: «شكراً» ثلاث مرات.

وقررنا ميعات الدرس الأول في هذا اليوم في الساعة الرابعة بعد الظهر، وعرجت على الكوافير لقص شعري، ورجعت أدراجي وحلقت ذقتي، وبعد ذلك ارتديت ملابس النظيفة يكسوها من الخارج معطفي القديم وتحته ملابس بالية أيضاً.

عرجت على طريق «تشينغ خه» المؤلف لدي، وأعرف - من الأمام - مكان السوبر ماركت، ومكان الكافيه الأمريكي ستار بوكس، ومكان ماكدونالدز وكنتاكي، ومكان شارع الملابس، والمكان الذي يشتمل على عدد من الفنادق.

وطوّفت بمثل تلك الأمكنة، ورأيت على مرمى البصر شيئاً غير مألوف على حين غرة، خرابة عشوائية تسترعي انتباهي، حيث المباني الثلاثة القديمة التي تتألف من ستة طوابق في

شارع «تشينغ خه» تعرضت للهدم والإزالة، ومنزل الأسرة التي أقصدها للتدريس المنزلي يجب أن يكون وسط تلك المباني. وعندما مررت بهذا الشارع منذ بضعة أيام، رأيت تلك المباني قائمة ومنتصبة هناك، وتجفف الملابس في الشرفات، وكانت عدة لافتات بيضاء تعلق على المباني الثلاثة، واللافتات مكتوب عليها بالحروف السوداء: «التصدي بحزم لإزالة المباني بالقوة»، و«الاحتجاج على هدم المباني والانتقال إلى آخر بالعنف»، و«أقسم بالدفاع عن أسرتي حتى الموت».

وألقي نظرة فاحصة على هذه الخرابة، ويتراءى أمامي بعض الملابس المعلقة على حديد الخرسانة الإسمنتية، ناهيك عن رافعتين شوكتين، وسيارتي شحنتان على مقربة من الخرابة، وسيارة شرطة، وسيارة ينبعث منها الدفء ويجلس فيها أربعة من أفراد الشرطة.

طفلة صغيرة ترتدي جاكيتاً أحمر محشواً بريش الطير تجلس بمفردها على لوح إسمنتي، وحديد الخرسانة المتقطع على جانبي ذلك اللوح كثير التلوي. وتضع الحقيبة المدرسية على ركبتيها، وتفرد الكتاب المدرسي ودفتر الواجبات المدرسية على ساقها، وتتكس رأسها وتكتب. في الصباح غادرت منزلها وذهبت إلى المدرسة، وحينما انتهى الدوام الدراسي بعد الظهر ورجعت أدراجها لم تجده، كما لم تر منزلها، ولم تر أبويها أيضاً، وتجلس فوق ركام الخرابة، وتترقب عودتهما، وتؤدي الواجبات المدرسية وجسمها يرتعد من شدة الريح الباردة.

أخطو على الخرسانة المسلحة في الخرابة بخطوات واسعة، ويتميل جسمي يميناً ويسرة، وأسير حتى أصل إلى جوار تلك

الطفلة التي رفعت رأسها وترمقني بنظرة وعلائم الحمرة تملو وجهها من جراء الريح الباردة.

وسألتها: «أتشعرين بالبرد؟».

تجيب: «أشعر بالبرد».

أشير بإصبعي إلى مطعم كنتاكي في مكان ليس بعيداً، وأقول في داخله الجو دافئ، ويمكن أن نذهب إلى هناك لتؤدي الواجبات المدرسية.

تومئ برأسها، وتقول: «عندما يعود أبي وأمي لا يجدانني». تحتضن رأسها بعد أن تفرغ من كلامها، وتستمر في إتمام الواجبات المدرسية على طاولة صنعتها من ساقها، وألقي نظرة فاحصة على الخرابة ولا أدري مكان منزل تلك الأسرة التي أقصدها للتدريس المنزلي.

وسألتها مرة أخرى: «أتعرفين أين منزل جينغ شياو مينغ؟». تشير إلى المكان الذي نجلس فيه، وتقول: «هنا.. أنا جينغ شياو مينغ».

أرى أمارات الدهشة تملو وجهها، وأخبرتها بأنني أخذت موعداً اليوم وأذهب إلى منزلها وأكون مدرستها في التدريس المنزلي. تطأطئ رأسها مرات عديدة تلميحاً أنها تعرف ذلك، وتجيل بصرها في الجهات الأربع، وتبدو عليها الحيرة والارتباك، وتقول:

«لم يحضر أبي وأمي إلي الآن».

أقول: «أحضر غداً مرة أخرى».

وتلفت انتباهي قائلة: «لا تكن هنا غداً، اتصل بأبي هاتفياً، فهو يعرف أين نكون غداً».

أقول: «حسنًا.. أتصل به».

أنصرف من الخرابة، وأسير بخطوات صعبة فوق ركام الخرسانة الإسمنتية المتكسرة، وأسمع في الخلف صوتها يقول: «شكرًا، يا مُعلمي».

كانت هذه المرة الأولى التي أسمع فيها إنساناً يناديني بـ «مُعلمي»، وأدير رأسي وأحملك بهذه الطفلة الصغيرة التي تتدثر بالجاكيت الأحمر المحشو بريش الطير، وما زالت تجلس هناك، وتجعل الخرسانة الإسمنتية الصلبة في الخرابة لينة وناعمة. أرجع إلى الميدان العام أمام الإدارة البلدية حيث يحتشد هناك ألفان أو ثلاثة آلاف من المتظاهرين، ويرفعون اللافتات، ويطلقون الشعارات، إنهم يتظاهرون حقًا في ذلك الحين. الشرطة وسيارات الشرطة تحاصر الميدان من الجهات الأربع، كما قامت الشرطة بإغلاق الطرق، ومنعت الناس خارج الميدان من الدخول إليه. ورأيت متظاهراً يقف على السلم أمام الإدارة البلدية، ويرفع مكبر الصوت ويصرخ مرات عديدة في جمهور المتظاهرين من ذوي المعنويات العالية في الميدان، ويقول:

«الهدوء! من فضلكم التزموا الهدوء...».

وبعد أن يصرخ في المايكروفون لبضع دقائق، يهدأ جمهور المتظاهرين رويدًا رويدًا. يرفع المايكروفون في يده اليسرى، ويلوح بيده اليمنى قائلاً:

«جئنا من أجل العدالة، ونتظاهر بصورة سلمية، ونحن لا نضطلع بالأعمال المتطرفة، ولا نستطيع أن نتركهم يتشبثون بالأقوال».

يتوقف عن الكلام لحظة، ثم يردف: «أريد أن أخبر الجميع بأن صباح هذا اليوم شهد إزالة مبانٍ بالقوة في طريق تشينغ خه، ودفن تحت الأنقاض بالخرابة زوجان، والآن لا نعرف إذا كنا على قيد الحياة أو في عداد الأموات...».

تقف عربة بجواري ويقفز منها سبعة أو ثمانية أشخاص، وجيوب سترهم منتفخة، وأرى أنها تزخر بالحصى، وتقدموا إلى أمام الشرطة التي تغلق الطريق، وأبرزوا هويتهم من جيوب البنطال حتى تطلع عليها الشرطة، وبعد ذلك ساروا مباشرة إلى داخل الميدان. ورأيتهم -في البداية - يمشون زهوا وتبهاً، ثم يعدون عدواً وثيئاً، ويهرولون إلى السُّلم قبالة الإدارة البلدية، وشرعوا يصرخون:

«حطموا الإدارة البلدية...».

يستل هؤلاء الأفراد الحصى من جيوبهم، ويحطمون بها نوافذ الإدارة البلدية، ويطرمى إلى مسامعي دوي صوت الزجاج المتكسر من مكان ناء. وتتدفق الشرطة إلى الميدان من كل حذب وصوب وتفرق جمهور المتظاهرين. ويتحول الميدان إلى فوضى عارمة، ويلوذ المتظاهرون بالفرار من كل جهة ويحاولون تفادي الصدام مع الشرطة وجهاً لوجه حتى لا يسقطوا على الأرض. وهؤلاء الأفراد السبعة أو الثمانية الذين حطموا نوافذ الإدارة البلدية يركضون على الطريق ركضاً وثيئاً وينصرفون من الميدان ويتقدمون نحو فردين من الشرطة يقفان أمامي ويطأطئون رؤوسهم، ثم يقفزون في عربتهم التي تنطلق بأقصى سرعة، ورأيت بوضوح أنها من دون ترخيص.

وعندما يأتي المساء أجلس في فندق «تان جيا تساي»، أسعاره زهيدة، ومذاق مأكولاته رائع، وأذهب هناك دائماً، وكل مرة أغشاه أتناول فقط سلطانية معكرونة رخيصة. وهناك هاتف فوق كاونتر مُحصل النقود في الفندق أستخدمه، واتصلت بوالد الطالبة «جينغ شياو مينغ» مرات عديدة، ولكنه لم يستقبل مكالمتي وأسمع صدى رنين جرس الهاتف.

يذيع التلفاز خبر التظاهر الذي وقع بعد ظهر اليوم، وذكر أن قلة قليلة تجمهرت أمام مبنى الإدارة البلدية وأحدثت فوضى، وحطمت البلدية، وحرضت الجماهير التي تجهل الحقيقة، واعتقلت الشرطة - حسب القانون - تسعة عشر خصاً من المشتبه بهم الذين ألحقوا أضراراً بالأمن العام، وقد هدأت الأوضاع هناك. ولم يبث التلفاز صوراً، وأذاع فقط خبرين عن رجل وامرأة على هامش التغطية الإعلامية من قبل المذيع. وبعد فترة الإعلانات، عرض التلفاز صورة المتحدث الإعلامي لإدارة البلدية يرتدي البذلة الغربية والحذاء الجلدي، ويجلس على الأريكة، ويستقبل صحفيي التلفاز الذي يجري معه حواراً في إطار التغطية الإعلامية لهذا الحادث، سؤالات الصحفي في كلمات قليلة، وكذلك إجابة المسؤول أيضاً، ويكرران ما ذكره المذيع في نشرة الأخبار توالاً. ثم يسأله الصحفي إذا كان حادث الإزالة في طريق «تشينغ خه» قد شهد دفن زوجين تحت الأنقاض أم لا؟ يتأهب وينفي حدوث ذلك، ويذكر أن ذلك كله مجرد شائعات، وتم إلقاء القبض على مروجي الشائعات حسب القانون. ويواصل المتحدث الإعلامي إحصاء الإنجازات البارزة التي اضطلعت بها الإدارة البلدية في بناء حياة الشعب في غضون السنوات الأخيرة.

رجل يجلس بجوار الطاولة يحتسي الخمر ويصرخ قائلاً:
«أيها النادل، غيّر قناة التلفاز».

يأخذ النادل جهاز التحكم عن بُعد ويغير قناة التلفاز، وتختفي صورة المتحدث الإعلامي، وتظهر مباراة كرة القدم على شاشة التلفاز.

يدير هذا الرجل رأسه ويخاطبني قائلاً: «لا أصدق كلامهم، حتى لا أصدق علامات الترقيم».

يفتر ثغري عن شبه ابتسامة، وأنكس رأسي وأستمر في تناول المعكرونة. وكنت أسند والدي وندلف إلى هنا عندما وقع في براثن مرضه الخطير، ونجس في ركن أسفل البناية، وأختار الأطباق من لائحة الطعام التي يحب والدي أن يتناولها دائماً. يأكل قليلاً من الطعام ثم يعزف عن الأكل تماماً، وأسدي النصح إليه بأن يأكل مرة أخرى، ويومئ برأسه وينصاع لكلامي، ويأكل بصعوبة، ثم قاء ما أكله. أقدم اعتذاري للنادل، وأطلب منه أن يُحضر فوط السفرة الورقية، وأنظف قيء والدي فوق الطاولة وعلى أديم الأرض. يتكئ والدي على جسدي وتنصرف، وأخاطب صاحب المطعم قائلاً:

«آسفًا ومعدرة».

صاحب المطعم يهز رأسه برفق ويقول: «لا يهم، نرحب بكم في المرة القادمة».

وبعد أن ينصرف والدي بلا استئذان، أخرج على هذا المطعم بمفردي، ومازلت أجلس في ذاك الركن وأتناول المعكرونة وأنا كسير الفؤاد. ويأتي صاحب المطعم ويجلس في الجهة المقابلة لي، ويسألني عن أحوال صحة والدي، ولم أصدق أنه مازال

يتذكرنا . وفقدت السيطرة على مشاعري في تلك المرة وسردت تجاربي الذاتية في الحياة، وذكرت أنه بعد أن أصاب والدي مرض عضال وحتى لا يثقل كاهلي بالأتعاب، انصرف بمفرده، ولم ينبس صاحب المطعم بحرف ورمقني بنظرة العطف.

وبعد ذلك، وكل مرة أحضر إلى هنا، وبعد أن أفرغ من تناول سلطانية المعكرونة الرخيصة، يرسل لي صاحب المطعم طبق فواكه، ويجلس معي ونتجاذب أطراف الحديث.

صاحب المطعم يُدعى «تان جياشين» وتدير شؤون المطعم معه زوجته، وابنته وزوجها، وتوجد غرف الحجز في الطابق العلوي، وفي أسفله أماكن الجلوس العامة. وقد جاؤوا من مقاطعة (غوانغدونغ). وكان يتهدد نحوي أحياناً لأن أهل بيته لا يألون الحياة في هذه المدينة ويفتقرون إلى شبكة العلاقات، ومن الصعب جداً ممارسة البزنس. ورأيت بأم عيني أن الزبائن في مطعمه كثر، والحركة التجارية نشطة، وأعتقد أنه يكسب أموالاً ليست قليلة كل يوم، ولكنه مقطب الجبين طوال اليوم.

وقال لي ذات مرة إن إدارة الأمن العام، والحماية من الحرائق، والصحة، والصناعة والتجارة، والضرائب، تحضر هنا عادة وتتمتع بالطعام والشراب، ولا تدفع شيئاً، ونسجل وليس أمامنا غير أن نسجل في دفتر الحساب. وفي نهاية العام، تطلب تلك الإدارة من بعض الشركات الأهلية أن تدفع حساباتها لدينا، وذكر أيضاً أن الأوضاع كانت أفضل في بداية افتتاح المطعم، حيث تلك الإدارات تسدد ديونها بنسبة تتراوح بين سبعين وثمانين في المئة، والاقتصاد غير مزدهر في السنوات الأخيرة، وأشهرت العديد من الشركات إفلاسها، وعلى الرغم من أن عدد الشركات التي

تدفع حساب تلك الإدارات يتضاءل، بيد أنها مازالت تواظب على عاداتها في الإسراف بتناول أطايب المأكولات والشراب. وأضاف: تبدو الحركة التجارية في مطعمه مزدهرة، ولكن - في الواقع - يعاني من عجز مالي. وأردف أخيراً أن لا أحد من موظفي الإدارات الحكومية يجرؤ على أن يرتكب إثماً.

وعندما فرغت من تناول المعكرونة، يغير رجل قناة التلفاز، وتعرض شاشة التلفاز مرة أخرى تقارير حول أحداث المتظاهرين بعد ظهر اليوم. وتقوم مراسلة التلفاز بتغطية تلك الأحداث واستطلاع آراء بعض المشاة في الشارع والذين أعربوا عن معارضتهم لأعمال العنف من تحطيم الإدارة البلدية. وبعد ذلك، يظهر أستاذ جامعي على شاشة التلفاز وهو بروفيسور في قسم القانون بالجامعة التي كنت أدرس فيها، وتكلم بحماسة وثقة، وفي البداية شجب أحداث العنف التي وقعت بعد الظهر، ثم أدلى بأحاديث ذكر فيها أنه ينبغي على الجماهير أن تثق في الحكومة، وتفهم الحكومة، وتؤازر الحكومة.

يتقدم صاحب المطعم «تان جياشين» نحوي ويهديني طبق الفواكه، ويقول: «لم تحضر منذ بضعة أيام».

أطأطئ رأسي، وربما تعابير وجهي باهتة، ولم يجلس معي كعادته في الماضي ونتحدث سوياً، يضع طبق الفاكهة، ويدير جسمه وينصرف.

الفواكه مقشرة في أشكال مختلفة وآكلها ببطء شديد، وأتناول صحيفة ذلك اليوم التي تركها أناس آخرون فوق الطاولة. وبعد أن قلبت عدداً من صفحاتها بصورة تلقائية، خطف بصري صورة كبيرة نشرتها الصحيفة؛ وهي عبارة عن صورة النصف العلوي

لامرأة ما زالت جميلة، وعيونها في الصحيفة تحديق في وجهي، وأناادي اسمها في أعماق نفسي: «لي تشينغ».

وبعد ذلك، قرأت مانشيت الصحيفة جاء فيه أن المرأة «لي تشينغ» واسعة الثراء قطعت معصمها وانتحرت أمس في حوض الاستحمام بمنزلها، وأنها تورطت في قضية فساد مسؤول رفيع المستوى، وذكرت الصحيفة أنها عشيقة ذلك المسؤول، وعندما توجه رجال الانضباط والتفتيش إلى منزلها استعداداً للاستعانة بها في تقصي حقائق القضية، اكتشفوا أنها انتحرت. وحروف الكتابة في الجريدة كثيفة ومزدحمة، مثل الحوائط الجدارية الزاخرة بثقوب الرصاص، تسد عيني، وقرأت بصعوبة بالغة بعض الكلمات التي تغص بالجروح والثقوب، ولم أعرف بعض الكلمات على حين غرة.

في تلك الأثناء، تضطرم النيران في مطبخ المطعم، وتتصاعد أعمدة الدخان الكثيفة، ويدوي صراخ خوف وهلع الزبائن الذين يتناولون الطعام في أسفل المطعم، وأرفع رأسي وأراهم يطلقون سيقانهم للريح ويفرون خارج المطعم. تان جياشين يغلق مدخل المطعم، ويصرخ بصوت عال ويطلب من الزبائن دفع النقود أولاً، ولكن ثلثة من الزبائن تدفعه إلى الخلف وتهرب. ولا يزال يصرخ، وتهول إليه زوجته وابنته وزوجها ويغلقون المدخل، كما يهرول إليه نفر من نُدل المطعم ويسدون باب الخروج هناك أيضاً. ويحدث تدافع عنيف وقوي بينهم وبين الزبائن، كما تسمع أصوات التنازع بالشتائم أيضاً، أنكس رأسي وأستمر في قراءة الصحيفة ذات الحروف المتداخلة الكثيفة بمداد الحبر، وتدوي الأصوات داخل المطعم أكثر فأكثر، وأرفع رأسي مرة أخرى، وأرى الزبائن في

غرف الحجوزات في الطابق العلوي يلوذون بالفرار أيضًا، وتغلق أسيرة تان جياشين المدخل، ويستمر الصراخ بصوت عال لحث الزبائن على دفع النقود، ولا يدفع أحد من الزبائن نقودًا، بل اصطدموا بأسيرة تان جياشين وفروا إلى الشارع من جراء الذعر الشديد، كما حطم نفر من الزبائن النوافذ وهربوا الواحد تلو الآخر أيضًا.

لا أعير اهتمامًا لمشهد الفوضى العارمة داخل المطعم، وأستمر في قراءة مقالة الصحيفة، بيد أنني أرفع رأسي بصورة مستمرة وألقي نظرة على ما يجري حولي. وبعد ذلك، الدخان جعلني لا أرى بوضوح الحروف السوداء في الصحيفة، وفركت عيني وشاهدت بعض رجال من إدارة الصناعة والتجارة يرتدون البزة الرسمية أو من إدارة الضرائب في بزتهم النظامية يفرون من غرف الحجوزات في الطابق العلوي بالمطعم، ويجتازون صالة تسودها الفوضى ويدفعون ويعتفون أسيرة تان جياشين، وبعد أن يتردد صاحب المطعم تان جياشين يفسح الطريق أمامهم ويسمح لهم بالخروج، ويهرولون إلى الشارع وتتسال من أفواههم خراطيم من الشتائم المقذعة.

تواصل أسيرة تان جياشين إغلاق مدخل المطعم، ورأيت عيون تان جياشين تحمق في وجهي وسط الدخان، وكأنه يصرخ في وجهي، ويدوي صوت ضخم يحدث هديرًا في الحال.

* * *

لقد بلغت نهاية الطريق في ذاكرتي، وبغض النظر عن أنني لم أذكر وسعًا في استعراض ذكرياتي، بيد أن ذاكرتي لم يبق فيها ثمة مشهد بعد هذه اللحظة فصاعدًا، بل حتى لم يبق فيها خيط

عنكبوت وآثار حصان. والمشهد الأخير في ذاكرتي الذي أستطيع البحث عنه هو عيون صاحب المطعم تان جياشين تحملق في وجهي، وبعد ذلك مباشرة دوي صوت ضخم خلف هديرًا.

وفي هذا المشهد الأخير تغوص نفسي في أعماقي حيث انتحار المرأة التي تُسمى «لي تشينغ»، وقد كانت زوجتي هي ذكرى جميلة وحزينة أيضًا، وليس هناك متسع من الوقت لطرح أتراحي، لقد وصلت إلى المحطة وأنزل من الحافلة.

لا تزال كرات الثلج تتطاير وتتساقط، والضباب الكثيف لم ينقشع بعد، ومازلت أترجل في الشارع. تتأى قدمي بعيدًا كلما مشيت، وتتن نفسي من وطأة الإرهاق والتعب، وتبغي نفسي الجلوس والخلود إلى الراحة، ثم جلست في الحال، ولا أدري جلست على كرسي أم على حجر. ويتمايل ويترنح جسدي، وجلست هناك مثل سفينة بضائع تجاوزت حمولتها تطفو فوق سطح مياه مضطربة.

رجل ميت فاقد البصر يمسك عكازًا يدق به أديم أرض وهمية، ويمشي إلى الأمام، ويتقدم نحوي وتتسمر قدماه أمامي، ويناغي نفسه، ويقول يوجد إنسان يجلس هنا. أقول: «نعم، يجلس إنسان هنا». ويسألني كيف يذهب إلى مؤسسة الخدمات الجنائزية؟ وسألته إذا كان لديه رقم موعد أم لا؟ ويستل من جيبه قصاصة ورق ويعطيني إياها وأقرأها، وأجد في أعلاها مطبوعاً رقم (A 52)، وأقول ربما مشى في الاتجاه الخطأ، ويجب عليه أن يدير جسمه ويعود إلى الخلف، وسألني ما المكتوب على قصاصة الورق؟ أقول الرقم (A 52). ويسألني ما معنى ذلك؟ أقول عندما تصل إلى مؤسسة الخدمات الجنائزية ينادى على

الرقم، ورقمك هو (A 52). يومئ برأسه ويدير جسمه ويمشي، ويدق بعكازه أديم أرض ليس لها صدى صوت، وبعد أن يمشي بعيداً، تتتابني الشكوك بأنني أرشدت هذا الميت فاقد البصر إلى الاتجاه الخطأ؟ وذلك لأن نفسي حالياً تضل الطريق وضاع منها الاتجاه.

اليوم الثاني

امرأة غريبة تنادي اسمي: «يانغ فيي...». ويبدو أن النداء يأتي من مسافة قصية جداً، وتتبدد موجاته الصوتية عندما يترامى إلى مسامعي، ثم يشبه تهيدة ترتطم بالأرض. وأجيل بصري في كافة الأنحاء، ولا أميز بجلاء اتجاه الصوت، غير أنني أشعر بأن النداء المتقطع يأتي موجة صوتية الواحدة تلو الأخرى.

«يانغ فيي.. يانغ فيي...».

أستيقظ في المكان الذي جلست فيه أمس، حيث جلست فوق مقعد خشبي طويل يعاني من العفن، وأشعر بأنه مهزوز ومتزعزع، ثم ما لبث أن استقر على الأرض كأنه حجر. تتساقط مياه المطر بصورة متتالية وسط كرات الثلج المتطايرة، وقطرات الماء البيضوية تنفلق وتقذف المزيد من قطرات الماء بشكل أكبر، والتي يستمر بعضها في السقوط، وبعضها يتلاشى وسط كرات الثلج.

شاهدت المبنى القديم الحميم خلف الأمطار، والثلج يختفي تارة ويظهر تارة أخرى، وفي داخله شقة تتألف من حجرة واحدة ويسجل على جدرانها ظلال أجسامنا وأصواتنا أنا وزوجتي لي تشينغ. جئت إلى هنا في الظلمة الحالكة، وأجلس فوق المقعد

الطويل المستقر على الأرض، وتهداً مياه الأمطار المتساقطة
وكرات الثلج المتطايرة تمامًا. وأجلس وسط هذه الأجواء من
الهدوء والسكون، وتلح عليّ الرغبة في النوم، وأغمض عيني مرة
أخرى. وبعد ذلك، رأيت في منامي لي تشينغ الجميلة الذكية،
كما رأيت حبنا الذي كان مثل زهرة ما إن تفتحت حتى ذبلت،
كما رأيت أيضًا زواجنا الذي ما إن تألق نجمه حتى أفل. وذاك
العالم يندثر الآن، والأحداث الماضية فيه تدور في ذهني وأنا في
الحافلة، ويجول في خاطري صورة لي تشينغ تملأ عليّ أقطار
نفسي للمرة الأولى.

* * *

تتزاحم أجسادنا أنا وسائر الركاب داخل الحافلة وتترنح
وتتمايل يمناً ويسرة، ويجلس أمامي راكب ينهض وينزل من
الحافلة، وعندما كنت أستاذ بجانب جسمي للجلوس مكانه،
ظهر شبح إنسان وشغل المقعد الذي يجب أن أجلس فيه. وشعرت
بالدهشة من أن هذا الشبح يتمتع بالسرعة في اقتناص الفرص،
وفي الحال شاهدت معالم امرأة حسناء وجميلة، إنه الجمال
الذي يلجم المرء بالدهشة. وترفع وجهها قليلاً وتتهمك نظرات
الرجال في الحافلة في متعة رؤية وجهها حتى ينسوا العودة إلى
ديارهم، بيد أن تعابير وجهها تعلوها أمارات متعالية من الصلف
والكبرياء، ويبدو أنها تتخبط في التفكير، وتحدثني نفسي أنها
استولت على مقعدي، ومع ذلك لم ترمقني بنظرة، على الرغم
من أنني أشعر بغبطة غامرة حيث أستطيع بين الفينة والفينة
التمتع بنضارة بشرتها البيضاء وقسمات وجهها التي في غاية
الجمال في طريق يعج بالزحام والضوضاء. وبعد خمس محطات

أشق طريقي وسط الزحام نحو باب الحافلة، وتوفقت الحافلة ويفتح الباب، ويتزاحم الركاب ويتدافعون في النزول من علبة السردين، ويبدو أن الحافلة قذفتني إلى الخارج، وعندما كنت أترجل فوق رصيف المشاة، شعرت بأن نسمة تداعب وجهي لأنها تجاوزتني بخطوات واسعة وفي الخلف أرى ملابسها تتطاير، وخطوات مشيتها، وتأرجح ذراعها بصورة كبيرة جداً، وعلى كل حال، تبدو أنيقة جذابة تخطف الأنظار والألباب.

وأقتفي أثرها وتدلف إلى مبنى إداري، وتدخل المصعد بخطوات سريعة، ولم ألحق المصعد، وعندما أوصد بابه، رأيت عينيها، ولكن كانت تنظر خارج المصعد، ولم ترني.

واكتشفت أنها تعمل معي في نفس الشركة، وكنت التحقت بالعمل في الشركة توّاً آنذاك. وأنا موظف بسيط في الشركة لا يجذب الانتباه، أما هي فنجمة، وجمالها وذكاؤها يخطفان الأبصار من كل حذب وصوب. وتصطحب دائماً رئيس الشركة في ولائم المحادثات التجارية، وقد شاركت في الكثير جداً من المفاوضات التجارية. والموضوع الرئيس في حفلات العشاء تلك مناقشة المرأة، أما موضوع التجارة فيجري ذكره عرضياً. واكتشفت أن مناقشة موضوع المرأة يستطيع أن يجعل هؤلاء الرجال الناجحين يتوصلون إلى تفاهم في الآراء والعواطف، فقد تعارفوا توّاً قبل عدة ساعات، وأصبحوا أصدقاء حميمين أعزاء بعد بضع ساعات، ولذلك فالتعاون التجاري ينجح دائماً ما دامت الشروط توافرت، وقد قيل إنها لطيفة بطبعها على طاولة الخمر، وتتمتع بالذكاء في المخالطة والمعاشرة، وتجعل هؤلاء الرجال الناجحين الذين يفكرون فيها وترفض طلبهم،

يفرقون في الضحكات البلهاء، وقدرتها على احتساء الخمر تذهل الجميع، وتستطيع تناول الأنخاب بلا انقطاع مع هؤلاء الزبائن، وتجعلهم يسقطون تحت الطاولة الواحد تلو الآخر، وهؤلاء الزبائن السكارى جداً يحبون أن ترويهم لي تشينغ بالخمرة حتى الثمالة في المرة المقبلة، وعندما يحددون موعداً في الهاتف ويحضرون الوليمة القادمة يوصون رئيس شركتنا مراراً وتكراراً ويقولون: «لا تنس أن تحضر معك لي تشينغ».

تغار الفتيات في الشركة من لي تشينغ، ويتجمعن دائماً ثلاث وخماس في وقت الظهيرة، ويتناولن الغداء أمام النافذة، ويناقشن بصوت خفيض تجارب حبها الفاشلة بصورة مستمرة وأصدقائها في الحب من أولاد القادة في المدينة، وهم يشبهون عصا التتابع ينقلون تاريخ الحب الذي من الصعب فيه التمييز بين الحب الحقيقي والحب المزيف، وأحياناً تمر لي تشينغ أمام هؤلاء الفتيات اللاتي ينخرطن في الجدل الفارغ، وتدرك أنهن يتحدثن عن كيفية أنها أصبحت أداة في أيدي هؤلاء الأولاد لترويج الشائعات، ولا تزال تقابلهن بوجه بشوش وكأن شيئاً لم يكن، حيث ثرثرتهن وكلامهن البطل بالنسبة لها مجرد رذاذ مطر متناثر لا يحتاج إلى الشمسية. لي تشينغ تزهو بنفسها إعجاباً وافتخاراً، وفي الواقع إنها تنبذ أولاد القادة، وليسوا هم يرفضونها. ولا تتحدث إطلاقاً في هذا الموضوع مع الآخرين لأنها تفتقر إلى صديق داخل أروقة الشركة، وفي الظاهر تربطها وشائج طيبة مع العاملين هناك، ولكن تشعر - دائماً وأبداً - في مناحي النفس بأنها تعيش بمفردها.

ثلاثة كبيرة من الشباب تخطب ودها، وترسل إليها الهدايا والزهور الياقة، بل وفي بعض الأحيان ترسل عدة هدايا في

آن واحد، وهي ترفض هذه الهدايا بأدب وفي ابتسامة لطيفة. وهناك شاب في شركتنا يواظب ويثابر في سعيه نحو حبها، ويرسل لها الزهور والهدايا لمدة عام ونيف، وبعد أن لفظته، لم يكن في الحسبان أنه يخطب ودها بأسلوب تحطيم القصور وإغراق السفن. يتدافع العاملون بالشركة إلى المصعد الواحد تلو الآخر أثناء الانتهاء من دوام العمل، وهو يحمل في يده باقة ورد ويركع أمامها على مرأى ومسمع من الناس. وظهور هذا المشهد المبالغ جعلنا نقف مبهورين مشدوهين، وكان رد الفعل من قبل الجميع الهتاف والتصفيق إزاء جسارته، وأنداك تبتسم وتخاطبه قائلة: «عندما تخطب ودي تركع، ولكن بعد الزواج لا تركع أبداً».

يقول: «أرغب في الركوع من أجلك طوال حياتي».

تقول: «حسناً، أنت تركع هنا طوال حياتك، وأنا لا أتزوج طوال عمري».

تتفوه بتلك الكلمات وتدور حوله وهو راكع، وتدلف إلى داخل المصعد، وعندما يفلق بابه، كانت تنظر إلى الخارج وتبتسم، وفي تلك اللحظة رمقتني بنظرة، وشاهدت تعابير وجهي القلقة حيث إنها قاسية لا ترحم، وربما يتعين عليها الهدوء، مما جعل بدني يقشعر ويرتجف خوفاً إلى حد ما.

يعم الهدوء والسكون رويداً رويداً، لأن أصوات الهتاف والتصفيق لا تتماشى مع ما حدث. والشاب الراكع الذي يخطب ودها يحملق في وجوهنا في ارتباك وحيرة، ولا يدري إذا كان يجب عليه أن يستمر في ركوعه أم ينهض واقفاً. وترامى إلى مسامعي بعض أصوات قهقهات غريبة، وبضع من النسوة يخفين ضحكاتهن، ونفر من الرجال يتبادلون النظرات ويدوي صوت

ضحكاتهم: هيه! هيه! يدخلون المصعد، وبعد أن يوصد بابه، نسمع في داخله نوبة من الضحكات العالية، وتهبط أصوات قهقهات الضحك مع المصعد إلى أسفل، وأصوات الضحك الهابطة يشوبها السعال.

كنت آخر موظف في الشركة ينصرف من مكان ذلك المشهد المباغت، وكان ذلك الشاب لا يزال راکعاً هناك، وجال بخاطري أن أتجاذب معه أطراف الحديث، ولكن لا أدري ما يجب أن أقوله، ويحدق في وجهي مرات عديدة، وتعلو وجهه ضحكة بلهاء، كأنه يريد أن يتفوه بكلمات، ولكنه لم يفه بحرف أخيراً، ينكس رأسه، ويضع باقة الورد على أديم الأرض، وينهض على ركبتيه. وأشعر أنه لا يجوز المضي قدماً في الوقوف هنا، وأدلف إلى داخل المصعد الخاوي من البشر، وشعرت بأن مشاعري تغوص في أعماقي عندما كان المصعد يهبط إلى أسفل.

لم يذهب ذلك الشاب إلى الدوام في اليوم التالي، ومن ثم أصوات الضحك في الشركة مجهورة، والأحاديث تدور حول ركوعه وتطلعه إلى مخاطبة ود تلك الحسناء، ويقول الرجال والنساء إنهم جاؤوا إلى الدوام ويغمرهم الفضول، وعندما يفتح باب المصعد تشرئب أعناقهم لرؤية إذا كان الشاب راکعاً هناك أم لا.

وشعر نفر منهم بالحزن لأنه لم يواصل ركوعه، وكأن الحياة فقدت أحد مباهجها بصورة فجائية. وقدم استقالته بعد الظهر، وحضر إلى أسفل بناية الشركة، واتصل هاتفياً بأحد معارفه من زملائه، والذي يستقبل المكالمات ويقول:

«مشغول الآن».

يضع سماعة الهاتف، ويلوح بيديه ويخبر الجميع بصوت عال: «لقد استقال من العمل، ولا يجزؤ أن يحضر هنا، يطلب مني مساعدته في جمع أغراضه وإرسالها إليه أسفل المبنى». وبعد أن تدوي نوبة من قهقهات الضحك، يستقبل زميل آخر له مكالمة هاتفية ثانية منه، بيد أنه يقول بصوت مرتفع: «مشغول جداً، أحضر بنفسك هنا».

يضع سماعة الهاتف، ولا يذكر أنه اتصل به هاتفياً، وتدوي قهقهات الضحك مرة أخرى وتحدث دويًا. أنهض واقفاً بعد أن ترددت، وأتقدم نحو مكتبه هناك، وأقوم أولاً بتصنيف الأشياء فوق المكتب، كما أستل الأشياء المتعلقة به من داخل الأدراج وأضعها فوق المكتب، ثم أبحث عن حقيبة ورقية وأدس فيها كافة الأشياء المتعلقة به. وفي غضون ذلك، اتصل بزميل ثالث وسمعتة في الهاتف يخبره قائلاً: «يجمع يانغ فيني أمتعته الآن».

أحمل الحقيبة الورقية وأغادر مبنى الإدارة، وكان يقف هناك ويظهر عليه التعب والإرهاق الشديدين، وسلمته تلك الحقيبة، ولم ينظر إليّ بملء عينيه، ويأخذ الحقيبة ويشكرني، ثم يدور بجسمه وينصرف. رأيتة ينكس رأسه ويعبر الشارع الرئيس، وتلاشى صورته في خضم تدفق الغرباء بالشارع، ويفص قلبي بمشاعر من الصعب وصفها، لقد عمل في الشركة خمس سنوات، ولكن زملاء العمل في الشركة - بالنسبة له - لا يختلفون عن الغرباء في الشارع.

أعود إلى مكثبي، وبعد أن أجلس في مقعدي، يأتي رهط من موظفي الشركة يسألونني عن الحديث الذي دار بيننا، والملامح

والتعابير التي تملو وجهه. ولم أرفع رأسي، وأنخرط في مشاهدة شاشة الكمبيوتر، وأقول بقلة اكتراث:

«تسلم الحقيبة الورقية وانصرف في التو».

في ذاك اليوم، المنطقة الإدارية، التي نعمل فيها ومساحتها ألف متر ونيف، تزخر بمشاعر البهجة والغبطة. وأنا أعمل في الشركة منذ عامين، وهذه المرة الأولى التي أرى فيها كثيراً من الموظفين يشعرون بالسرور في آن واحد، ويتذكرون مشهد ركوع ذلك الشاب أمس، ثم يسردون بعض المواقف المضحكة التي ألمت به في الماضي، وذكروا أنه تعرض للسلب والنهب عندما كان في نزهة على الأقدام داخل حديقة، حيث اعترض طريقه اثنان من قطاع الطرق في وضع النهار، ويسألانه:

«أيووجد قسم شرطة قريب من هنا؟».

يجيب: «لا يوجد».

ويكرران سؤالهما مرة أخرى: «حقاً، لا يوجد، أليس كذلك؟».

يجيب: «لا يوجد بكل تأكيد».

ثم يطوقان رقبتيه بسكينين، ويطلبان منه أن يستل بطاقة نقوده ويسلمها لهما..

وينخرطون في الضحك بلا انقطاع، وكنت الوحيد الذي لم يضحك تقريباً، ثم ركزت انتباهي في عملي، وعزفت عن الاستماع إلى أحاديثهم. ونهضت من مكاني مرتين لتصوير وثائق، وأنداك كان الالتقاء بنظراتها بالمصادفة حيث تجلس أمامي بميل، وأدور برأسي في التو، ولم أنظر هناك حيث تجلس مرة أخرى منذ ذلك الحين فصاعداً، وبعد ذلك، بضعة رجال يتقدمون إليها ويتملقونها، ويقولون:

«بغض النظر عما حدث، فأنت تستحقين أن يركع من أجلك». وسمعت إجابتها الساخرة: «وأنتم تفكرون أن تحذوا حذوه أيضاً».

ويقول هؤلاء الرجال الواحد تلو الآخر وسط دوي الضحكات: «لا نجرؤ، لا نجرؤ...».

في هذه اللحظة أضحك بصوت هادئ من أنها تتكلم دائماً بكلمات الود والصدقة، وهذه هي المرة الأولى التي أسمعها تنفوه بكلمات لاذعة ساخرة، وتفمرني سعادة غامرة.

وربما كنت أنا الشاب الوحيد من بين شباب الشركة لم يسع إلى إقامة علاقة معها، على الرغم من أن جيشان الحب يرتطم في قلبي، وأدركت أنه الحب في السر، وعلى كل حال، إن مركب النقص جعلني أشعر بأنه لا يمكن أن يربط بيننا الحب. والمسافة بين مكتبيننا قريبة جداً، ولم أبادر أبداً بالحديث معها. يكفيني أن أشعر بالسعادة من أنها قريبة مني، وكذلك صوتها أيضاً، وبعد ذلك سعادة خفية في سويداء قلبي، لا يدري بها أحد، وهي لا تعرف ذلك أيضاً. وهي تعمل في قسم العلاقات العامة، وأنا في قسم التسويق، وتأتي إليّ مصادفة وتساألني عن بعض المسائل المتعلقة بالعمل، وأنقرس معالم وجهها بنظرات عادية، وأنصت باهتمام إلى كلامها، وأجيب عن تساؤلاتها. وفي تلك اللحظات، أشعر بمتعة كبيرة جداً حيث أستطيع التلذذ بملامحها الجميلة بأدب واحتشام. ولا أعرف ما السبب الذي جعلني لا أجرؤ على أن أحملق في عينيها مرة أخرى بعد أن عاملت ذاك الشاب، الذي ركع أمامها من أجل أن يخطب ودها، بقسوة وبلا رحمة. وعلى أية حال، تأتي إليّ دائماً وتساألني عن موضوعات خاصة

بالعمل بصورة أكثر من ذي قبل وبشكل جليّ، وكل مرة أنكس رأسي وأرد على سؤالها.

وبعد انقضاء بضعة أيام، انتهيت من الدوام متأخرًا بعض الشيء، وهي في الطابق الإداري العلوي ركبت المصعد تواءً، وعندما هبط المصعد وفُتح بابه رأيته بمفردها داخله، وترددت أدخل المصعد أم لا، ووجدتها تضغط على زر المصعد حتى يبقى الباب مفتوحًا، وتقول: «ادخل».

أدخل المصعد، وكانت هذه المرة الأولى التي نلتقي فيها معًا بصورة منفردة، وسألتني: «كيف حاله؟».

أصابتنني الحيرة والارتباك في البداية، ثم فهمت أنها تسأل عن ذاك الشاب الذي ركع طالبًا خطبة ودها، فأقول: «تظهر عليه علامات الإرهاق الشديد، وربما يتجول في الشوارع طوال الليل». سمعت صوت تنفسها العميق، وتقول: «تصرفه على هذا النحو جعلني في حيرة وارتباك».

أقول: «كما أوقع نفسه في ورطة ومأزق».

أرى أرقام الطوابق تلتصع عندما يهبط المصعد إلى أسفل.

وتسألني فجأة: «أشعر بأنني قاسية إلى حد ما؟».

أشعر بأنها تتسم بقساوة القلب بعض الشيء، ولكن صوته مشوب بالعزلة والوحدة، مما جعلني أشعر بالحزن من أجلها على حين غرة. وأقول: «أشعر بأنك تعانين كثيرًا من الوحدة، ويبدو أنك تفتقرين إلى الأصدقاء».

عيونني تخضبها الدموع بعد أن تفوهت بتلك الكلمات، ولا يمكن اشتاق إليها في لحظات الليل البهيم لأنني أحذر نفسي

دائمًا، فهي فتاة لا تربطني بها ثمة علاقة، بيد أنني في تلك اللحظة شعرت بالحزن بصورة فجائية من أجلها. تمد يدها وتتحسس ذراعي، أخفض رأسي وتعطيني علبه مناديل ورقية، وأنزع منها منديلا، وأردها إليها، ولكنها غابت عن وجهي.

في الأيام التالية، أصبحنا كما كنا في الماضي، يحضر كل منا إلى الدوام، وينصرف بعد انتهاء الدوام، وكانت تأتي إليّ دائمًا وتسألني عن بعض الأشياء المتعلقة بالعمل، وما زلت أصدق فيها بنظرات عادية وأستمع إلى كلامها وأجيب عن سؤالها. وبالإضافة إلى ذلك، لا تربطني بها ثمة علاقة. وعلى الرغم من أننا نلتقي في الشركة عند الدوام في الصباح الباكر، وتلتصق في عيونها بعض أمارات الإعجاب، ولكن التجربة البسيطة في المصعد لم تجعلني أغرق في الأوهام، غير أن هذه التجربة جعلتنا زملاء في العمل تربطنا علاقة حميمة. وأشعر بالرضى التام عندما أتذكر أنني يمكن رؤيتها في الدوام، ولم أدرك البتة أنها بدأت تقع في غرامي.

كانت الفتيات آنذاك يشمرن بالفخر أن تتزوج إحداهن من أولاد القادة، ويستثنى من ذلك لي تشينغ، فهي برؤيتها الثاقبة تستطيع أن تميز من أولاد الذوات الإنسان الذي يمكن أن يكون رفيق عمرها. وهي تحضر مع رئيس الشركة حفلات عشاء المحادثات التجارية، مما وسع دائرة معارفها بعدد غير قليل من الرجال الناجحين الذين يركضون وراء نساء أخريات خلف ظهور زوجاتهم، وكانت شديدة الاهتمام بأقوال وأفعال هؤلاء الرجال. وربما حنّكتها تلك التجارب وحددت معيارها في الاختيار، وهو البحث عن رجل مخلص وموثوق فيه، وقابلتي أنا بالمصادفة.

بلادتي وحمّاقتي في العواطف والمشاعر تشبهان غرفةً بأبها
ونافذتها موصودان بإحكام شديد، وذلك على الرغم من أن
خطوات الحب تتراعى إلى مسامعي وتذرع المكان جيئةً وذهاباً
أمام الغرفة. ولكن أشعر بأنها خطوات السائر الذي يتجه إلى
أناس آخرين. وذات يوم تتسمر تلك الخطوات هنا، ثم يدق جرس
الباب.

كان ذلك في إحدى أصائل فصل الربيع، والشركة خاوية على
عروشها، وعندي بعض الأعمال أنجزها في وردية إضافية وتأتي
إلي. وسمعت بجواري قعقعات حذاءها ذي الكعب العالي يرتطم
بأديم الأرض من الرخام، ورفعت رأسي وأحدق فيها ورأيت
ابتسامة ترتسم على ثغرها.

تقول: «غريب جداً، رأيت في حلمي مساء أمس أننا تزوجنا».
أصابني الذهول الشديد، وتجحّظ عيناى، وهل من الممكن
تحقيق ذلك؟ ولم أنبس ببنت شفة آنذاك، تحمّلق في وجهي،
ويبدو أنها غارقة في بحر من التفكير، وتقول: «غريب حقاً».
تتفوه بتلك الكلمات، وتلف جسمها وتتصرف. وصوت ارتطام
حذاء الكعب العالي بأديم الأرض يشبه نبضات قلبي التي تدوي
دائماً، وتتلاشى قعقعات ذلك الحذاء، لكن نبضات قلبي تتسارع
وتدوي.

هدهدتني الأوهام، وروحي تفارق بدني في الأيام التالية، وفي
جوف الليل حيث الهدوء والسكون أتذكر تعابير وجهها وملامحها
ولهجتها عندما نبست بتلك الكلمات، وأخمن بحذر شديد إذا
كانت ترغب في الزواج مني أم لا؟ وأقدح زناد ذهني في آناء
الليل وأطراف النهار. وفي مساء ذات يوم رأيت في حلمي أنني

تزوجتها، وما رأيته ليس مشهد الجلبة والضوضاء في حفلة الزواج. بل رأيت مشهد يدي تعانق يدها ونمشي سوياً في الشارع قاصدين مكتب تسجيل الزواج. وفي اليوم التالي، وعندما رأيتهما في الشركة أحمر وجهي وانتفخت أوداجه، واكتشفت ذلك بنظرة ثاقبة، وانتهرتُ فرصة أنه لا يوجد أحد بجوارها، وسألتني:

«لماذا علامات الحمرة تعلو وجهك عندما رأيته؟».

تطوي نظراتها على تهديد ووعيد، وأناى بنفسي عن عيونها، وأقول وفرائصي ترتعد: «مساء أمس رأيت في حلمي أنا وأنتِ نسجل زواجنا».

يفتر ثغرها عن ابتسامة، وتقول بصوت خفيض: «انتظرك في الشارع المقابل للشركة بعد انتهاء الدوام».

حدث ذلك في يوم طويل وبطيء يشبه سنوات شبابي الطويلة. وتفكيرى مشتت ومبعثر في العمل، وعندما أتحدث مع أقراني أجيب عن أسئلة لم يسألوها، والساعة المعلقة على الحائط تبدو عقاربها بطيئة كلما تقدمت إلى الأمام، مما جعلني أشعر بصعوبة في التنفس أكثر فأكثر. وعانت نفسي وقاسيت بمرارة من تباطؤ الوقت، وأخيراً انتظرت حتى انتهى الدوام. وعلى كل حال، ما زلت أشعر بضيق التنفس عندما كنت واقفاً في الشارع المقابل للشركة، ولا أدري إذا كانت في وردية إضافية أم تعتمد قتل الوقت وتختبرني، وانتظرت حتى غشي الليل ورأيتهما أمام بوابة الشركة، وتوقفت لحظة على السلم، وتجيل بصرها في الجهات الأربع، وتهول على السلم بعد أن رأتني، وتأخذ حذرهما من السيارات وتعبّر الشارع وتركض حتى بلغت أمامي، وتقول والضحك يملأ شديقيها:

«أأنت جائع؟ أدعوك إلى تناول الطعام».

تفرغ من كلماتها وتمسك ذراعي بحرارة، ونمشي إلى الأمام سوياً كأننا لسنا في موعد الغرام الأول، بل يربطنا الحب منذ ربح طويل. وبأدنى ذي بدء تلجمني الدهشة ثم تغمرني السعادة في الحال.

في الأيام التالية، كنت أسأل نفسي دائماً إذا كان ذلك حقيقة أم مجرد خيال؟

وتواعدنا أن نلتقي في محطة الحافلات صباح كل يوم، ثم نستقل الحافلة وندلف إلى الشركة، وأنا أذهب إلى هناك في المحطة قبل الموعد بأكثر من ساعة، وقلبي راجف واجف عندما لا تظهر أمامي، ولا يهدأ قلبي ونفسي إلا عندما أرى ملامحها الجذابة وطلعتها الباهية وهي مقبلة نحوي بخطوات سريعة ويتأرجح ذراعها، وأؤكد وقتئذ أنه ليس خيلاً، بل حقيقة ماثلة أمام عيني.

ندلف إلى الدوام معاً، وننصرف من الدوام سوياً، وبعد زهاء عشرة أيام لم ينتبه أقراني في الشركة إلى أننا نتبادل أحاديث الهوى، وربما هم مثلي كما كنت في الماضي، يعتقدون من المستحيل أن نقع في حبائل الحب. وفي بعض الأحيان، ينتهي الدوام وأنا قد أنجزت أعمالي، أما هي فلا تزال تكمل أعمالها، وأتسمر في مقعدي، وأنتظرها.

سألني أحد الزملاء عندما كان ينصرف: «لماذا ما زلت جالساً ولا تتصرف؟».

أجيب: «أنتظر لي تشينغ».

أرى ابتسامة عجيبة ترتسم على وجه زميلي كأنه يسخر مني،

ويرى أنني على وشك أن أكون مثل العربية التي سارت في الطريق الذي انقلبت فيه العربية السابقة. وفي أوقات أخرى، كانت تنتهي من أعمالها، بينما أنا لا أزال أكمل عملي، وتجلس بجواري. تتباين وجوه زملاء الذين ينصرفون، ويسألونها وعلائم الدهشة والذهول تملأ وجوههم: «ما زلت هنا، لماذا لا تتصرفين؟». تجيب: «أنا أنتظره».

انتشار خبر حبنا أحدث جلبة وضوضاء في الشركة، واستعصى على الرجال فهم ذلك، ويعتقدون أن لي تشينغ تزدري أولاد القادة في الحضر، وتحترمني أنا الذي عمت عيناه عن رؤوس البطيخ ويلتقط بذور السمسم، ويشعرون بأن ذواتهم ليست أقل شأنًا مني البتة، ومن ثم يشعرون بالغضب والغيط بعض الشيء، ويتحدثون سرًا ويقولون: «حشر الزهور الياقة في روث البقر حقيقة فعلا، وضفدع الطين يتشوق إلى لحم الوز حقيقة أيضًا». أما النساء فيفرحن في مصائب الآخرين ويبتسمن ابتسامة ذات مغزى عند رؤيتي، ثم يتبادلن النصيح السديد، ومفاده أن البحث عن رفيق العمر لا يحتاج إلى كثير التدقيق في الاختيار، والعثور على الشخص المناسب يكون معقولاً، ويتأملن حالة لي تشينغ التي وقعت في معترك الاختيار مرات عديدة، وكانت نتيجة اختيارها سلعة زهيدة الثمن.

وننخرط في قصة حبنا، ومثل تلك التعليقات الموجهة إلينا ترعبنا - كما ذكرت لي تشينغ - رعب حفيف الأوراق في الريح. وكانت تشع بالغضب أيضًا أحياناً، وعندما عرفت أنهم يقولون عني روث البقر، وضفدع الطين، وسلعة رخيصة، تكلمت بفضاظة وخشونة، ونعتهم بأنهم هراء وكلام فارغ.

تسمر نظرها في وجهي، وتقول: «أنت أنيق جداً».
أقول وتعتريني عقدة النقص: «أنا - في الحقيقة - سابعة رخيصة».

تقول: «لا، أنت نقي السريرة، وموثوق فيه».
تتعانق أيدينا ونمشي في الشارع يلفه ظلام الليل، ثم نجلس على مقعد في مكان منعزل غير مطروق بالحديقة فترة طويلة، وتشعر بالإرهاق وتسند رأسها على منكبي، وأمد يدي وأسحب ذراعها. وعندما كنا هناك، أطبع قبلة للمرة الأولى، وهي تقبلني للمرة الأولى أيضاً. وبعد ذلك، نمكث دائماً في الغرفة الصغيرة التي استأجرتها، وكشفت لي النقاب عن جانب الوهن والضعف لديها، وسردت متاعبها عندما تصطحب رئيس الشركة وتشارك في جميع مآدب المحادثات التجارية، وهؤلاء الرجال الناجحون تعبير عيونهم طيب وكلامهم قبيح، وتمقتهم في أعماق قلبها، وما زالت تقابلهم بوجه بشوش وتتبادل معهم الأنخاب بلا انقطاع، ثم تدلف إلى دورة المياه وتتقيأ، وبعد ذلك تواصل الشراب معهم أيضاً، وأن قصص غرام أولاد القادة في المدينة معها مجرد شائعات، وأنها تقابلت مع ثلاثة منهم فقط، وكان التعارف من خلال رئيس الشركة، وهؤلاء الثلاثة يتحلون بالمظاهر المختلفة من ابن الأمير، وابن موظف حكومي كبير، والأخ الكبير. الأول يختال بصلف وكبرياء في حديثه، والثاني يرمقها دائماً بنظرات غريبة الأطوار، أما الثالث فيشاكسها بمجرد رؤيتها، وتبتسم وتتصدى لجلافته، ويقول لها لا داعي للتظاهر بالأدب. ويقيم أبواها في الريف البعيد، وبعد أن تتعرض لكافة أشكال التعسف والحيث تتصل بهما هاتفياً، وتريد أن تشكو وتبكي، لكن بعد أن

تستقبل المكالمات الهاتفية الحزن في قلبها والبسمة على شفثتها، وتخبر والديها بأنها على ما يرام حتى تجعلهما يشعرا براحة البال.

سرد قصتها جعلني أشعر بالحزن الدفين، وتحتضن يداي وجهها، وأقبل عينيها وأحك جلدها حتى تتفرج أسارير وجهها. وتقول إنني أحظى باهتمامها منذ زمن بعيد، واكتشفت أنني أعمل بجد واجتهاد، وهناك زميل عاطل عن العمل يستحوذ دائماً على إنجازاتي، ويقدم تقريراً إلى الجهات العليا بذلك. لم أحاسبه على تصرفاته بدقة، وأخبرتها أنني أستشيط غضباً مرات عديدة حقاً، وأريد استجوابه، ولكن كلماتي تحتبس في فمي ولا أتفوه بها.

وأردفت: «وأحياناً أكره وهني وضعفي».

تتحسس وجهي بيد تغمرها الحب والحنان وتقول: «أنت لا تعاملني بقوة وقسوة، أليس كذلك؟».

أرد: «لا يمكن ذلك إطلاقاً».

يتواصل كلامها، وتقول إنني كنت مكتوف اليدين عندما كان شباب الشركة يحتكمون إلى أساليب مختلفة لخطب ودها، وكان لديها بعض الفضول، وتأتي إليّ وتسألني عن موضوعات تتعلق بالعمل، وأستطلع نظراتها. وعلى كل حال، تعبير العينين عندي لا يختلف عن تعبير عيون الرجال الآخرين في الشركة عندما أنظر إليها، إنه تعبير العينين من الصداقة الخالصة، وبعد ذلك، ومع حادث ذلك الشاب الذي ركع طلباً لخطب ودها، جعلها تحمل عني انطباعاً جيداً، وتسترق النظر إليّ وأنا في خضم أصوات الضحك المدوية أجمع أغراض ذلك الشاب وأسلمها

له أسفل مبنى الشركة. تكف عن الكلام برهة، ثم تقول بصوت خفيض جداً إنها كلما تسلطت الأضواء عليها في الخارج، تشعر بالوحدانية عندما تعود في المساء إلى غرفتها الصغيرة التي استأجرتها، وفي هذه اللحظة تتوق إلى رجل يبادلها الحب ويرافقها. وعندما تقابلنا في المصعد لفترة وجيزة، خضبت الدموع عيني في تلك اللحظة، وتأثرت بصورة فجائية بالحب الدافئ الذي ينبعث من قلبي الذي يعشقها. وفي الأيام التالية، تشعر بأنني ذلك الرجل الذي يمكن أن يرافقها أكثر فأكثر. وبعد ذلك، تمسك أنفي برفق شديد، وتسألني: «لماذا لم تركض ورائي وتخطب ودي؟».

أجيب: «ليس عندي هذه الأطماع».

جمعنا الرباط المقدس بعد انقضاء سنة. ومسكن والدي صغير جداً، ونؤجر شقة من غرفة واحدة باعتبارها شقة جديدة. والدي في نشوة من الفرح لأنني تزوجت فتاة حسنة وذكية، وكانت تعامل والدي معاملة طيبة أيضاً، وفي نهاية الأسبوع نذهب إليه ويأتي إلى بيتنا ويقضي يوماً معنا. وفي كل مرة نذهب لإحضاره، وبعد أن نصعد الحافلة بعد التزامح والتدافع، نستطيع دائماً بحركة خفيفة أن نقبض مقعداً من أجل والدي، وهذا جعلني أتذكر مشهد رؤيتها للوهلة الأولى، وأبتسم، وعلى كل حال لا أخبرها بذلك أبداً. وفي عيد الربيع⁽¹⁾ نركب القطار ونسافر

(1) أهم عيد في الصين وأكثر الأعياد التقليدية مهابة وإجلالا. والسواد الأعظم من القوميات في الصين تحتفل به. وتتركز نشاطات العيد في عادات وتقاليد رأس السنة الجديدة من «تنظيف معبد الأجداد وطقوس القرابين»، ويشمل ذلك السجود للسماء والأرض، وتقديم القرابين للأجداد والأسلاف، وتقديم التهاني لأفراد العائلة والأقرباء والأصدقاء، ويجسد ذلك اهتمام الأمة الصينية بالوشائج الإنسانية والأخلاق الحميدة. [المترجم]

لزيارة والديها، وهما عاملان في مصنع تديره الدولة، ويتمتعان بالأمانة والإخلاص والنية الطيبة، وتغمرهما الفرحة لأن ابنتهما تزوجت رجلاً واقعياً وموثوقاً فيه.

تتعم حياتنا بالهدوء والجمال بعد زواجنا، غير أنها مازالت تصطحب رئيس الشركة في حفلات العشاء، وأنتظرها بمفردي في المنزل بعد أن يغشى الليل، وتعود أدراجها إلى بيتها في وقت متأخر جداً دائماً، وتفتح الباب وتدلف إلى الداخل وهي منهكة ومتعبة للغاية، وتفتح ذراعيها وتحتضنني وجسمها معبأ برائحة الخمر، وتتكى برأسها على صدري وتستريح لحظة، ثم تلقي جسدها على الفراش. إنها تمقت هذه الحفلات، بيد أنها لا تستطيع الاعتذار عن حضورها. وكانت نائب مدير قسم العلاقات العامة في ذلك الحين، وهي تحتقر منصب نائب المدير هذا، وعلى حد تعبيرها فإنه نائب المدير الذي يرافق الندماء في احتساء الخمر. وقد ذكرت لي في الماضي أن الجمال هو رخصة مرور للمرأة، ولكن هذه الرخصة تستخدمها الشركة دائماً، وهي لم تستخدمها أبداً.

نسير بخطوات ثابتة على درب حياتنا لمدة عامين وأكثر، وبدأنا التخطيط لشراء شقة خاصة بنا، وفي الوقت نفسه قررنا إنجاب طفل، وشعرت بأن وجود طفل يعتبر بمثابة سبب للاعتذار عن حفلات العشاء، ومن أجل ذلك، عزفت عن تناول حبوب منع الحمل، ولكن عقبات ظهرت على طريق تقدمنا إلى الأمام في ذلك الحين. وتجربة سفرها في مهمة جعلتها تدرك حقيقة نفسها، كما أدركت حقيقتي أيضاً، وهي تقدر على تغيير مصيرها، أما أنا فأسأير التيار الذي يحدده مصيري.

تستقل الطائرة ويجلس بجوارها حاصل على الدكتوراه كان يدرس في الولايات المتحدة، وأسّس لتوه مشروعًا خاصًا وشق طريقًا جديدًا، ویکبرها بعشر سنوات، وهو متزوج ولديه أطفال. قدّم لها بحماسة بالغة وصفًا لمشروعه الخاص المبشّر بمستقبل زاهر أثناء فترة الطيران التي استغرقت ساعتين ونيّفًا، وأعتقد أن ملامحها الخلابة أسرته، ولذلك استرسل في الكلام كأن لسانه شلال لا يهدأ، وقد اصطحبت رئيس الشركة وشاركت في العديد من حفلات المحادثات التجارية، مما أكسبها خبرة جعلتها تتمكن من طرح عدد غير قليل من الاقتراحات المفيدة، وبعد أن بات مفتونًا بجمالها الجذاب، شرع بيدي إعجابه بما تتمتع به من الدقة والجدية والرشاقة، وقدم لها دعوة في الطائرة، قائلاً: «تعملين معي؟».

بعد هبوط الطائرة، لم يبق في الفندق الذي حجز فيه غرفة مسبقًا، بل انتقل إلى الفندق الذي تقيم فيه تعبيرًا عن رغبته في الاستفادة من خبراتها بصورة مستمرة، وحجّته في هذا الشأن كانت ظاهرة، ولكن أشعر بأن الأهم من ذلك أنه ما زال مولعًا بجمالها. يفترقان في النهار حيث يذهب كل منهما إلى الدوام، وفي المساء يجلسان في بار الفندق يناقشان الصعوبات التي تواجه مشروعه، وتستمر في تقديم الاقتراحات من أجله، ولا تقدم التصورات الجديدة لمشروعه فحسب، بل تطلعه على الكثير من القوانين الخاصة بتأسيس المشروعات في الصين، مثل: كيفية التعامل مع موظفي الإدارات الحكومية، وكيفية تقديم بعض المنافع لهم، وهو لا يعي الكثير من القوانين الخفية في واقع الصين، حيث مكث سنوات طويلة في أمريكا للدراسة.

وعندما يفترقان، يبدي رغبته مرة أخرى في أن تعمل معه، تبتسم ولا تعده بثمة شيء، وتترك له رقم هاتف منزلها.

في تلك الأثناء، يطرأ تغير على قلبها، ورئيس شركتنا يعرف فقط أنها جميلة وذكية، بيد أنه لا يدرك كفاءتها وطموحها، وشعرت أن الشاب الذي قابلته على متن الطائرة يستطيع أن يفهمها فهمًا حقيقيًا.

تتناول حبوب منع الحمل من جديد بعد أن رجعت أدراجها إلى البيت، وتقول إنها لا تتجيب أطفالاً بصورة مؤقتة، ويدوي رنين جرس الهاتف مساء كل يوم، وتستقبل المكالمات وتتجاذب معه أطراف الحديث لمدة ساعة وأكثر أحيانًا، وأحيانًا أخرى لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات. في البداية كنت أستقبل المكالمات دائمًا، وفيما بعد لم أضطلع بذلك حينما يدوي رنين جرس الهاتف. وكلامها في الهاتف يتركز كله حول أعمال شركته، ويسألها وهي تجيب بعد إمعان التفكير. وفيما بعد كانت تأخذ الهاتف وتسمع كلامه، وقلما أن تتفوه بالكلام، تضع سماعة الهاتف ثم تتخبط في تفكير عميق، وتدرك بعد برهة أنني أجلس بجوارها، ولا تدخر وسعًا حتى تجعلني أبتسم، وتتأبني مشاعر مسبقة مفادها أن دفعة حديثهما شهدت تغييرًا، ولم أنبس ببنت شفة، ولكن موجات الحزن والألم تتدفق في قلبي.

بعد نصف سنة زار مدينتنا التي نقطن فيها، وكان انتهى من إجراءات الطلاق وقتئذٍ، وذهبتُ إلى الفندق الذي يقيم فيه بعد تناول طعام العشاء، وقبل أن تتصرف أخبرتني بأنها تذهب إليه. وأجلس على الأريكة طول الليل، وذهني صفحة بضاء وتفكيري يكاد يموت. ولم ترجع إلى البيت إلا عند انبلاج النهار، ودار

بخلدها أنني أغط في نومي، وتفتح الباب بحذر شديد، وتراني أجلس على الأريكة، ولم تتمالك نفسها وأصابها الارتباك، ثم تتابها مشاعر الجبن وهي تدلف إلى الداخل وتجلس على مقربة مني.

تتحلى بالثقة في نفسها على هذا النحو دائماً، وكانت هذه المرة الأولى التي أراها جبانة، وتتكس رأسها في ارتباك، ويتهدج صوتها وتخبرني بأن ذاك الشاب قد طلق زوجته من أجلها، وتشعر بأنها يجب أن ترافقه لأن التطلعات المشتركة تربطهما ويسيران على الدرب الواحد. لم أتقوه بحرف، وتكرر على مسامعي أنه طلق زوجته من أجلها، وسمعت نبرة التوكيد في كلامها. أقلب الموضوع في رأسي؛ أي رجل يرغب في الطلاق من أجلها. ومازلت ألتزم الصمت، ولكن نفسي أدركت أنها فقدتها، وفهمت أنها عندما ترافقني تستطيع فقط أن تعيش حياة سهلة وناعمة وعادية، أما مع ذلك الشاب فيمكن أن تفتح مجالاً للمصالح، وفي الحقيقة لدي شعور مسبق خفي منذ ما قبل نصف سنة مفاده أنها سوف تفارقني، ويقوى ويتعاضم هذا الشعور منذ سنة، وفي هذه اللحظة أصبح حقيقة.

تتنفس نفساً عميقاً وتخاطبني: «الطلاق».

أقول: «حسناً».

أفرغ من كلامي، ولم أتمالك نفسي، وتسح دموعي، وعلى الرغم من أنني لا أرغب بالانفصال عنها، ولكن أفترق إلى المقدرة لإجبارها على البقاء معي. ترفع رأسها وتحقق في وجهي وأنا أنتحب وأبكي، فانخرطت في البكاء أيضاً، وتكفكف دموعها بيدها، وتقول:

«آسفة، آسفة...».

أمسح دموعي، وأقول: «لا داعي للأسف».

نفشى الشركة معاً كما كانت عادتنا في الماضي في صباح هذا اليوم، وأطلب إجازة شخصية لمدة يوم، وهي تقدم استقالتها، ثم نسير في الشارع المؤدي إلى مكتب إجراءات الطلاق. تعود أدراجها أولاً لترتيب الحقائق، وأنا ذهبت إلى البنك وسحبت الوديعة المالية التي نمتلكها سوياً وتقدر بأكثر من ستين ألف يوان، وهي الوديعة التي كنا نعتزم بها شراء شقة، وسلمتها الوديعة بعد عودتي إلى البيت، وترددت بعض الشيء وأخذت فقط عشرين ألفاً. أطلأطي رأسي تلميحاً بأن تأخذ الوديعة كلها، وقالت تكفي عشرون ألفاً. وقلت: تأخذين مبلغاً ضئيلاً يجعلني أشعر بالقلق. تحني رأسها وتقول: لا داعي للقلق، ويتعين عليّ معرفة قدرتها وهي تعالج كل شيء معالجة صحيحة. تضع عشرين ألف يوان في حقيبة يدوية، والمبلغ الباقي أكثر من أربعين ألفاً فوق الطاولة. وبعد ذلك، تجيل بصرها بمشاعر عميقة في الشقة التي شهدت حياتنا المشتركة، وتخاطب الشقة قائلة:

«أنصرف من هنا».

أساعدها في ترتيب ملابسها ولوازمها اليومية، وقد عبأناها في حقيبتين كبيرتين، وحملتهما إلى الشارع أسفل المبنى لتوديعها، وأعرف أنها تذهب أولاً إلى الفندق الذي يقيم فيه ذاك الشاب، ثم يذهبان إلى المطار، وبحث لها عن سيارة تاكسي، ووضعت الحقيبتين في الحقيبة الاحتياطية للتاكسي. وحانت لحظة الوداع، وألوح لها بيدي، وتأتي إلي وتحتضنني بحرارة شديدة، وتقول لي:

«لا يزال حبك في قلبي».

أقول: «أنا أحبك إلى الأبد».

تتخبط في البكاء، وتقول: «سأكتب لك رسالة واتصل بي هاتفيًا».

أقول: «لا داعي للمراسلة ولا داعي للاتصال هاتفيًا، لأن ذلك يجعلني حزينًا ومتألمًا».

تستقل سيارة التاكسي التي عندما تتطلق في الشارع ولم ترمقني بنظرة، وراحت تكفكف دموعها. وانصرفت على هذه الحال، وسارت على درب الحياة المقدر لها.

نبأ طلاقي المباغت وقع على والدي وقوع الصاعقة، وحملق في وجهي بنظرات الدهشة والذهول، وأخبرت والدي سبب طلاقنا بصورة عادية. وذكرت أن زواجي منها كان يعتبر أصلًا سوء تفاهم، لأنني لست جديرًا بها. يومئ والدي برأسه باستمرار، ولا يمكن أن يتقبل كلامي. ويخاطبني بحزن قائلاً: «كنت أعتقد دائمًا أنها تتحدر من أسرة طيبة، كانت نظرتي خاطئة».

هاو تشينغ شينغ، ولي بوي جين هما زوجان من زملاء والدي في العمل يعتبرانني طفلهما دائمًا، وألجمتهما الدهشة عندما عرفا نبأ طلاقني. وأكد هاو تشينغ شينغ بحزم أن صديقها ذلك الشاب خداع، وسوف يدهسها بأقدامه، وقال إنها لا تستطيع التمييز بين الجيد والردىء، وإنها ستعص أناملها من الندم بكل تأكيد، وكانت لي بوي جين تحبها هكذا وتقول إنها ذكية وجميلة ونيتها طيبة. والآن تقرر أنها تتعالى وتزدرى أفراد طبقتها الاجتماعية، ثم تتهد وتقول في هذا المجتمع الذي يستحيي من الفقر

ولا يخجل من الدعارة يكثر فيه عدد هؤلاء النسوة اللاتي يتكبرن على أفراد طبقتهن الاجتماعية يوماً بعد يوم. تواسيني لي يوي جين، وتقول إن هذا العالم يضم فتيات أفضل منها وتعرف الكثير منهن، وقدمت إلي عدداً غير قليل منهن، ولكن لم تكلل جهودها بالنجاح في هذا الشأن. ويكمن السبب الرئيس في نفسي أنا، في أيام حياتي المشتركة مع زوجتي التي غيرتني بهدوء وبلا ضجة، وهي تتوسد قلبي لا تجارى ولا تُبارى. وكنت لا أتحمّل أن أقارنها بهؤلاء الفتيات عند مقابلتهن بعد تحديد موعد غرام، ثم لا أستطيع أن أجد راحة لنفسي وسط فقدان الأمل والرجاء.

في السنوات التالية كنت أشاهدها في التلفاز في حوار مع المذيع أحياناً، وأحياناً أخرى أقرأ أخبارها في الصحف والمجلات. وجعلني ذلك على دراية بخصالها، كما شعرت بالاستغراب أيضاً، والشيء المألوف لدي وجهها الباسم ومظهرها وسلوكها، أما الشيء الغريب الذي رأيته مضمون كلامها ولهجتها. وشعرت بأنها الشخصية المحورية في الشركة، وزوجها الشخصية الثانوية. وشعرت بالسعادة من أجلها، وما زالت تتمتع بالجمال هكذا في الصور التي تنشرها الصحف والمجلات والتلفاز، وباتت الآن تستغل رخصة جمالها من أجل نفسها في نهاية المطاف. وبعد ذلك شعرت بالحزن الشديد من أجل نفسي، لقد عشنا معاً لمدة ثلاث سنوات، ويُعتبر ذلك جزءاً من طريقها الأعوج في حياتها، وبعد أن فارقتهني تمكنت أن تسير على الدرب المستقيم.

* * *

يترامى إلى مسامعي مرة أخرى، وسط الهدوء الذي يتلاشى، صورة تلك المرأة الغربية التي تتادي وتقول: «يانغ فيي..».

أحملق بعيني وأجبل بصري في كافة الجهات، رذاذ المطر دقيق، وكرات الثلج صغيرة جداً، ويبدو أن هناك امرأة تشبه «لي تشينغ» تتقدم نحوي قادمة من الجانب الأيسر، وترتدي روب النوم، وعندما تمشي تتقطر قطرات الماء إلى أسفل روب النوم. تمشي وتقف أمامي، وتتفرس ملامح وجهي، كما تتفحص بعينها ثوب نومي بدقة، وشاهدت الكلمتين «لي تشينغ» باتت ألوانهما باهتة. ثم تتادي اسمي وكأنها تسألني:

«أنت يانغ فيي؟»

أشعر بأنها لي تشينغ، ولكن لماذا صوتها غريب هكذا؟ وأجلس على مقعد طويل وأحملق فيها، ولا أنبس ببنت شفة. وتظهر أمارات غريبة على وجهها، وتقول:

«أنت ترتدي ثياب نوم يانغ فيي، من أنت؟»

أقول: «أنا يانغ فيي».

تحقق في وجهي الغريب في ارتياب، وتقول: «أنت لا تشبه يانغ فيي».

أمد يدي، وأتحسس وجهي، حيث العين اليسرى انتقلت إلى عظام الخد، وهناك أنف بجوار أنفي، وذقن أسفل ذقني.

أقول: «لقد نسيت تجميل وجهي».

تمد يديها وتعيد بحذر شديد قطرات الدموع التي انثالت في الخارج إلى محجر عيني، وتعيد أنفي إلى مكانه الأصلي، وتتحسس ذقني التي علقتها وتدفعها إلى أسفل.

ثم تتراجع خطوة إلى الخلف، وتحملق في وجهي، وتقول:

«أنت الآن تشبه يانغ فيي».

أقول: «أنا يانغ فيي، وأنت تشبهين لي تشينغ».

تقول: «أنا لي تشينغ حقاً».

نبتسم معاً في آن واحد، وتعرّف كل منا على الآخر بفضل
الابتسامة المألوفة التي ارتسمت على وجهينا.

أقول: «أنت لي تشينغ».

قالت: «وأنت يانغ فيي حقاً».

أقول: «صوتك طراً عليه تغيير».

تقول: «وصوتك تغير أيضاً».

نتبادل النظرات، أقول: «صوتك الآن يشبه إنساناً لا أعرفه».

تقول: «صوتك يشبه أيضاً إنساناً غريباً».

أقول: «غريب حقاً، صوتك مألوف لدي، بل حتى صوت
شخيرك مألوف لدي أيضاً».

تتوقف برهة، ثم تبتسم، وتقول: «وأنا أشعر بالغربة أيضاً،
يجب أن يكون صوتك مألوفاً لدي..».

تميل بجسدها، وتتحنس ثياب نومي بيدها حتى الياقة.

تقول: «الياقة لم تهترئ بعد».

أقول: «لم أرتد ثياب النوم بعد رحيلك».

تقول: «أنت تلبسها الآن، أليس كذلك؟».

أقول: «الآن هي كفني».

تقول ولديها بعض عدم الفهم: «ماذا يعني كفنك؟».

أسألها: «أين ثياب نومك؟».

تجيب: «لم أرتدها مرة أخرى، لا أدري أين وضعتها».

أقول: «ينبغي ألا تلبسيها مرة أخرى، مطرز عليها اسمي».

تقول: «نعم، تزوجت ذلك الشاب».

أطأطئ رأسي.

ترتسم ابتسامة مزعجة على وجهها، وتقول: «أشعر بالندم، يجب أن ألبس ثياب نومي، وأرى رد الفعل لدى زوجي الشاب». وبعد ذلك، تهض، ويبدو عليها الحزن والأسى، وتقول: «يانغ فيي، حضرت اليوم من أجل توديعك».

أرى قطرات الماء ما زالت تتقطر من روب النوم الذي تلبسه، وأسألها: «أأنت لبست روب النوم وتمددت في طشت الاستحمام؟».

تلتمع أمارات الألفة في عينيها وتساءل: «أتعرف أحوالي؟».

- «أعرف».

- «متى عرفت؟».

- «أمس»، وأفكر برهة، وأقول: «ربما أمس الأول».

تتفرس ملامحي، وتدرك شيئاً ما، وتقول: «وأنت ميت أيضاً، أليس كذلك؟».

أقول: «أجل، لقد وافقتي المنية».

تحقق في وجهي بحزن وأسى، وأنا أحملق في وجهها بحزن وألم.

تقول: «يبدو أن عينيك تقومان بمراسم تأبيني».

أقول: «تتابني المشاعر نفسها، ويظهر أن كلا منا يقوم بتأبين

الآخر».

تجبل بصرها في كافة الجهات في حيرة وارتباك، وتسألني:

«ما هذا المكان؟».

أشير إلى المباني القديمة العالية التي تظهر مبهمة وغامضة

خلف الأمطار والثلج، وتسمر نظراتها برهة، ويجول بخاطرها

تلك الشقة التي سجلت جانباً من حياتنا. وتسألني: «هل ما زلت

تقطن هناك؟».

أومئ برأسي، وأقول: «نقلت إلى مسكن آخر بعد فراقك».

تقول: «هل نقلت إلى مسكن والدك؟».

أهز رأسي.

تبتسم قائلة: «أعرف السبب الذي جعلك تأتي إلى هنا».

أقول: «في الظلام الحالك، لم نتفق على موعد وحضرنا إلى

هنا في آن واحد».

- «من يسكن الآن في تلك الشقة؟».

- «لا أدري».

عينها تتأيان عن ذاك المبنى السكني، وما زالت تلف يديها

بإحكام في روب النوم المبلل بقطرات الماء، وتقول: «أشعر

بالإرهاق، وقطعت شوطاً طويلاً على طريق بعيد حتى جئت إلى

هنا».

أقول وأشعر بالتعب الشديد أيضاً: «ولم آت من طريق قصي».

يترنج جسمها مرة أخرى، وتجلس على المقعد الطويل، تجلس

على جانبي الأيسر، وتشعر بأن جسمها ينهار، وتقول: «هذا

المقعد يوشك أن يسقط».

أقول: «تتحسن حالتك بعد فترة وجيزة».

تجلس بحذر شديد، ويتصلب جسمها، وبعد برهة يسترخي

جسدها، وتقول: «لا يمكن أن يتحطم المقعد».

أقول: «يبدو أنك تجلسين فوق حجر».

تقول: «أجل».

نجلس معاً في هدوء ودعة كأننا نغط في النوم، وبعد فترة

طويلة جداً يعود الوعي إلى صوتها تقريباً.

تسألني: «كيف حضرت إلى هنا؟».

أقول: «لا أدري»، وتذكرت المشهد الأخير في ذاكرتي، وأردف قائلاً: «كنت أتناول سلطانية معكرونة في مطعم، وهناك صحيفة فوق طاولة، وقرأت فيها أخبارك، ثم شب حريق هائل في مطبخ المطعم، ولذا كثيرون بالفرار إلى الخارج، ولم أتحرك البتة، وأمضي قدماً في قراءة الأخبار الخاصة بانتحارك في الصحيفة، وبعد ذلك، يدوي صوت انفجار رهيب، ولا أدري ما جرى بعد ذلك».

تسألني: «حدث ذلك أمس؟».

أقول: «ربما حدث قبل أمس».

تقول: «أنا سببت لك ضرراً رهيباً».

أقول: «لست أنت، إنها الصحيفة».

تقول ورأسها على منكبي: «هل يمكن أن تسمح لي أن أسند

رأسي؟».

أقول: «لقد أسندت رأسك على كتفي».

يبدو أنها تبتسم، وتهز رأسها مرتين فوق كتفي برفق، وترى شريطاً قماشياً أسود معلقاً على ذراعي الأيسر، وتمد يدها وتتجسسه.

تسألني: «هل علقت ذلك الشريط القماشي الأسود من

أجلي؟».

- «علقته من أجل نفسي».

- «ألا يوجد إنسان يعلق شريطاً أسود حداداً من أجلك؟».

- «أبداً».

- «أين والدك؟».

- «انصرف، فارقنا منذ أكثر من عام، وأصابه مرض خطير

جداً، وأدرك أنه لا يمكن أن يبرأ من مرضه، وحتى لا يثقل كاهلي بالأعباء، انصرف في هدوء. وبحثت عنه في كافة البقاع ولم أجده».

- «أبوك طيب القلب، وكان يعاملني معاملة حسنة أيضاً».

- «إنه أحسن أب».

- «أين زوجتك؟».

لم أنبس بحرف.

- «أليس عندك أطفال؟».

أجيب: «ليس عندي أطفال، ولم أتزوج مرة أخرى بعد طلاقنا».

- «لماذا لم تتزوج؟».

- «أرغب عن الزواج».

- «ألم أجعلك تشعر بالحزن؟».

أجيب: «كلا، لأنني لم أقابل امرأة مثلك على هذا النحو».

- «أسفاً ومعدرة».

ما زالت يدها تتحسس الشريط القماشي الأسود المعلق على ذراعي الأيسر، وشعرت بأن عاطفتها تتدفق.

وسألتها: «هل أنجبت طفلاً؟».

تقول: «كنت أرغب في إنجاب طفل، ثم تخليت عن فكرة الإنجاب».

- «لماذا؟».

- «أصابني مرض تناسلي، أصابني بعدوى مرضه».

أشعر بأن قطرات الماء تظهر في موق عينها، إنها قطرات الماء بالإضافة إلى مياه المطر وبكرات الثلج، وأمد يدي اليمنى وأكففت تلك القطرات.

وتسألني: «أأنت تبكي؟».

- «يبدو هذا».

- «هل تبكي من أجلي؟».

- «ربما».

ترسل زفرة طويلة، وتقول: «يرافق خليله في الخارج، ويفشى دائماً الملهى الليلي بحثاً عن عاهرة، وبعد أن أصابني المرض التماسلي نعيش منفصلين».

وترد قائلة: «هل أنت تعلم؟ أنا أتذكرك دائماً في جوف الليل».

- «بعد أن هجرت فراش النوم معه؟».

ترددت برهة، وتقول: «أجل، وبعد أن أنهيت علاقتي مع الرجال الآخرين».

- «هل أنت تحبين رجالاً آخرين؟».

تجيب: «لم أحب أحداً، عرفت موظفاً حكومياً، وبعد أن أنتهي من علاقتي، أتذكرك دائماً».

أبتسم ابتسامة صفراء.

تقول: «هل تغار من أجلي؟».

أقول: «لقد انفصلنا منذ ربح طويل».

تقول بصوت خفيض: «بعد أن ينصرف، جسدي يستلقي فوق الفراش بمفردي، وأنهمك في التفكير فيك وقتاً طويلاً، وعندما نكون سوياً، أذهب دائماً في رد الزيارات والمجاملات، وأنت لا تنام عندما يكون الوقت متأخراً، وأنتظر كدائماً، وأرجع أدراجي وأنا مرهقة، وأتمنى أن أرتمي في أحضانك، وأشعر بالارتياح عندما أقرب من جسديك...».

تظهر قطرات الماء من طرفي عيني مرة أخرى، وأكفكفها
بيدي اليمنى.

وتسألني: «هل أنت تتذكرني؟».

- «أحاول أن أنساك بكل ما أملك من قوة».

- «هل نسييتي؟».

- «لم أنسك بصورة كاملة».

تقول: «أعرف أنك لا تقدر على أن تتساني، ربما هو نسيني
تماماً».

وأسألها: «أين هو الآن؟».

تجيب: «هرب إلى أستراليا، هرب إلى هناك في التو بمجرد
شائعة تم ترويجها بتفتيش شركتنا، ولم يخبرني بذلك مقدماً».

أومئ برأسي، وأقول: «لا يمكن أن نعتبره زوجك».

تضحك برفق شديد، وتقول: «تزوجت مرتين، ولدي زوج
واحد فقط، هو أنت».

أرفع يدي اليمنى وأمسح عيوني.

تقول: «أنت تبكي مرة أخرى؟».

أقول: «أنا مسرور».

تسرد المشهد الأخير في ذاكرتها، وتقول: «كنت أمدد جسمي
في حوض الاستحمام، وسمعت الذين جاؤوا لإلقاء القبض عليّ
يركلون الباب الخارجي بشراسة، ويصرخون وينادون اسمي مثل
الصوص، ورأيت الدم يسبح في الماء مثل السمك، وتتسع بقعة
الدم رويداً رويداً، ولون الماء يتحول إلى الأحمر أكثر فأكثر..
أتعرف ذلك؟ وفي اللحظة الأخيرة وقلبي متعلق بك دائماً، أتذكر
تلك الشقة الصغيرة التي كنا نعيش فيها معاً».

أقول: «لذلك حضرت إلى هنا؟».

تقول: «نعم، جئت من مكان ناء».

تسحب رأسها من فوق كتفي، وتساألني: «أما تزال تسكن مع والدك؟».

أجيب: «تلك الشقة قد بيعت من أجل ادخار النقود لعلاج والدي».

تسأل: «أين تسكن الآن؟».

- «أقطن في غرفة استأجرتها».

- «خذني معك ونذهب إلى هناك».

- «تلك الغرفة صغيرة وبالية أيضاً، كما أنها قذرة جداً».

- «لا أعير اهتماماً لذلك».

- «ألا تشعرين بالراحة هناك؟».

- «أنا مرهقة جداً، وأريد لجسمي أن يستلقي على الفراش

وأستريح».

- «حسناً».

تنهض معاً في آن واحد، ويتجمع رذاذ المطر وكرات الثلج من جديد وتتطاير تباعاً، وتقبض على ذراعي بإحكام كأننا نبدأ حبناً للوهلة الأولى. نسير على طريق في درب خيالنا وجمعنا التفاهم التام، ولا ندري كم استغرقنا في المشي حتى وصلنا إلى الغرفة التي استأجرتها، وعندما فتحت الباب، شاهدت على الباب قصاصتين من الورق، إحداهما فاتورة المياه، والأخرى فاتورة الكهرباء، وسمعتها ترسل زفرة، وسألتها:

«لماذا تتهددين؟».

تجيب: «أنت ما زلت مديناً بفاتورة المياه وفاتورة الكهرباء».

أمزق القصاصتين، وأقول: «لقد دفعتهما».

ندلف إلى داخل الغرفة الصغيرة التي تعد محتوياتها خليطاً مشوشاً، ويبدو أن فوضى الأشياء في الغرفة لم تلفت انتباهها، وتطرح جسمها على الفراش، وأنا أجلس على كرسي بجوار السرير. وبعد أن استلقت على السرير، يفتح روب نومها، وكانت في غاية الإرهاق والتعب، وتغمض عينيها، ويبدو جسمها يطفو فوق الفراش. وبعد فترة وجيزة تفتح عينيها.

تسأل: «لماذا تجلس؟».

أجيب: «من أجل رعايتك وراحتك».

- «أطرح جسمك على السرير».

- «أشعر براحة في الجلوس».

- «أصعد إلى الفراش».

- «ما زلت أصر على الجلوس».

- «لماذا؟».

- «أشعر بالخجل».

تهض من الفراش وتجلس، وتمد يدها نحوي، وأمد لها يدي، وتسحبني إلى الفراش. مستلقيان على ظهرينا جنباً إلى جنب فوق السرير، وتتعانق أيدينا، وسمعت صوت تنفسها المنتظم مثل موجة تنهأدى على صفحة مياه بحيرة هادئة، وبعد هنيهة تتكلم بصوت خفيض، كما أنني بدأت الكلام أيضاً. وتتدفق مشاعر غريبة في قلبي مرة أخرى، وتدرك نفسي أنني مستلق على الفراش مع امرأة مألوفة لدي، ولكن صوت كلامها غريب، مما جعلني أشعر بأنني أتناقش الفراش مع امرأة لم تسبق لي معرفة

بها. وأخبرتها بمشاعري على هذا النحو، وذكرت أنها تتتابها مثل تلك المشاعر الغريبة أيضًا، كأنها تستلقي فوق الفراش مع رجل غريب بالنسبة لها.

تدير جسمها على الفراش، وتقول: «نعدّل وضع أجسامنا حتى يرى كل منا الآخر».

وآلف جسمي أيضًا، وأحذق فيها، وتساءلني: «هل تشعر بتحسن بعض الشيء؟».

أجيب: «الآن أحسن إلى حد ما».

تتحسس وجهي المصاب بيدها المبللة، وتقول: «في ذاك اليوم الذي شهد فراقنا، وعندما ودعتني عند سيارة التاكسي، ارتيمت في أحضانك، وأنت تفوهت ببعض الكلمات، هل مازلت تتذكرها؟».

أقول: «أتذكرها، وأنت ذكرت أنك مازلت تحبينني».

تطأطئ رأسها، وتقول: «نعم قلت هذه الكلمات، وأنت ذكرت بعض الكلمات أيضًا».

- «أنا قلت أحبك إلى الأبد».

* * *

تخاطبني قائلة: «استيقظت من النوم؟».

- «لم أنم».

- «سمعت صوت شخيرك».

- «لم أنم حقًا».

تقول: «حسنًا، أنت لم تتم».

تشد حزام روب النوم حول خصرها، وتخاطبني قائلة:

«أريد الانصراف، ثلثة من الأصدقاء أعدوا لي جنازة مهيبة،

وأريد العودة والحق بهم في التو».
أطأطأ رأسى، وتمشى إلى المدخل، وتفتح الباب، وتدير رأسها آنذاك، وتحملق في وجهي، وتقول وهي فاقدة الهمّة:
«يانغ فيي، انصرف من هنا».

اليوم الثالث

تتجول نفسي في الخط الفاصل بين الحياة والموت. الثلج الأبيض أبلج، والمطر مظلم معتم، ويبدو أنني أسير في البكور وفي المساء في آن واحد.

قادتني قدماي مرات عديدة نحو تلك الغرفة التي استأجرتها، وأمس تركت أنا ولي تشينغ آثار لقاء بعد فراق طويل، واليوم لا أحتمل السير على مقربة منها، وحاولت - من عدة اتجاهات متباينة - التقدم نحوها، ولكن لا أستطيع الاقتراب منها في نهاية المطاف، ومن الظاهر أنني أمشي وسط الهدوء والسكون، وتلك الغرفة تراها العين وتقتصر عنها اليد. ودار بخلدي عندما كنت طفلاً غريباً أسحب يد والدي، وأحاول كل ما في استطاعتي أن نمشي تحت القمر، وعلى كل حال نترجل على طريق طويل جداً، والمسافة بيننا وبين القمر لا تتغير أبداً.

في تلك الأثناء، ينبثق تحت أقدامي قضيبان من قضبان السكة الحديدية يلتمعان ويتمددان إلى الأمام، ويظهران الحيرة والتردد كأنهما أضواء ساطعة ويفضيان إلى طريقين من الضلال. وبعد ذلك، رأيت بأم عيني مشهد ولادتي.

* * *

كانت ولادتي بين تينك القضيبين بعد مرور قطار يخترق ظلام الليل الدامس. وكان بكاء طفولتي في البداية تحت سماء مرصعة بالنجوم، وليس في خضم عاصفة هوجاء، ويسمع صوت بكائي الواهن عامل التحويل الشاب، كان يمشي على امتداد القضبان الحديدية، ويأتي من مكان بعيد بأقصى سرعة ويجعل القضبان تهتز، وبعد أن يضمني إلى صدره، يمر ذاك القطار أمامنا بسرعته الفائقة وتدوي صفارته. وعلى هذا النحو، أصبح عندي أب بعد مرور قطار وقبل قدوم قطار آخر. وبعد انقضاء بضعة أيام، أصبح عندي اسم يُطلق علي، أما اسم والدي فكان (يانغ جين بياو).

طريق وجودي في هذه الدنيا كان غير معقولاً، فلم تكن ولادتي في غرفة التوليد بالمستشفى، ولا في المنزل، بل كانت في دورة مياه ضيقة في قطار سائر على القضبان.

ومنذ واحد وأربعين عاماً خلت، كانت والدتي حُبلى في الشهر التاسع، وأنا طفلها الثالث، واستقلت قطاراً متوجهاً إلى مسقط رأسها لزيارة جدتها لأنها هناك. وعندما قطع القطار المسافة إلى هناك في عشر ساعات وأكثر ويدخل المحطة رويداً رويداً، شعرت بألم طفيف في بطنها ولم تُدرك أنني في بطنها قد عيل صبري، لأن الميقات المحدد لولادتي مازال أمامه عشرين يوماً ونيّفًا، وكانت ولادة أخي الأكبر والأخت الكبرى قبل ولادتي، في الموعد المحدد، ودار بخلدها أنني سأحذو حذوهما، ولذا شعرت أنه يجب أن تغشى دورة المياه.

تهبط والدتي من سرير القطار إلى أديم الأرض، وتحمل بطنها المنتفخة، وتترنح في مشيتها وتتوجه إلى دورة المياه عند

ملتقى عربة الركاب بأخرى، وبعد أن توقف القطار، أهدت بها الصعوبات في طريقها إلى دورة المياه، بسبب أن بعض الركاب يحملون على ظهورهم حقائب كبيرة وصغيرة، وتأخذ حذرهما وحيطتها في مواجهة تدافع الركاب وتلك الحقائب. تدور عجلات القطار ببطء عندما تدخل والدتي دورة المياه، وكان القطار في ذلك الحين بسيطاً، وقضاء الحاجة في المرحاض يجب على المرء فيه أن يجلس القرفصاء، فقد كان المرحاض عبارة عن فتحة واسعة مستديرة يمكن أن ترى من خلالها صفوف من عوارض السكة الحديدية اللامعة. ولم تستطع والدتي جلوس القرفصاء، لأن وجودي في بطنها أعاق ذلك، واضطرت لأن تركع على قدميها وألا تغير اهتماماً للأوساخ على أرضية دورة المياه، وبعد أن خلعت بنطالها، وما كادت تستجمع قواها حتى شق رأسي طريقه من داخل الرحم إلى الخارج. انزلتُ من الفتحة المستديرة للمرحاض، والقطار الذي يتقدم إلى الأمام يقطع في طرفه عين الرابط الذي يجمعني بوالدتي وهو الحبل السري. إنها السرعة، السرعة المعاكسة بين انزلاقي من تلك الفتحة وانطلاق القطار إلى الأمام فكت الوثاق بيني وبين والدتي، وفقدنا جميعاً السرعة. والدتي تتبطح أرضاً من جراء ألم ممضٍ أصابها فترة من الوقت، وبعد برهة تشعر بأن بطنها خاوية، وتبحث عني بفرع وهلع، ثم أدركت أنني سقطت من تلك الفتحة المستديرة وتتحامل على نفسها بصعوبة بالغة وتهض، وبعد أن تفتح باب دورة المياه، تبكي وتصرخ في وجه راكب كان في الخارج ينتظر دخول دورة المياه، وتقول:

«طفلي، طفلي...».

تسقط على الأرض في الحال، وذلك الراكب ينادي في عجالة ركاب العربة ويقول: «هنا سيدة سقطت في غيبوبة».

تهزول عاملة القطار أولاً، ثم يتبعها مدير القطار. تكتشف العاملة - في المقام الأول - أن والدتي نصفها السفلي يفرق في الدم، ثم توجه نداءً عاجلاً لركاب القطار تطلب العاملين في هيئة طبية من بين الركاب الحضور فوراً إلى العربة رقم (11). كان هناك طبيبان وممرضة في صفوف الركاب جاؤوا إلى عربة والدتي التي تستلقي على ظهرها في ممر عربة الركاب، وتبكي بحرقة وتطلب الاستغاثة بلا انقطاع، ولا يفهم أحد كلامها، وتدخل في غيبوبة في الحال. ويحملونها وينقلونها إلى سرير القطار، ويضطلع الطبيبان والممرضة بإجراءات إنقاذها، بينما القطار يمضي قدماً إلى الأمام بالسرعة العالية.

في هذه الأثناء، كنت في الغرفة الصغيرة التي يمتلكها ذلك الشاب عامل التحويلة، والذي أصبح والذي بصورة فجائية، ويحلق في غاية الارتباك والقلق باللون الأحمر الأرجواني الذي يكتسي به جسمي من رأسي حتى أخمص قدمي، وأنا أبكي وأنتحب بصورة مستمرة، وتهتز مع بكائي قطعة الحبل السري التي ما زالت معلقة في بطني. ولذا يعتقد ذلك الشاب أن جسمي به ذيل، وكلما ضعف ووهن صوت بكائي، يدرك الشاب أنني أعاني من وطأة الجوع رويداً رويداً. كنا في منتصف الليل في ذاك الحين، وأبواب الدكاكين موصدة، ولا يوجد لبن في تلك الليلة. ويتذكر في خضم قلقه واضطرابه أن زوجة زميله في العمل عامل التحويلة (هاوتشيانغ شنيغ) أنجبت طفلة منذ ثلاثة

أيام، ثم يلفني في سترته المحشوة بالقطن ويهرول إلى منزل زميله.

هاو تشيانغ شينغ يغط في نوم عميق، واستيقظ مذعوراً من جراء الطرق على الباب، وبعد أن يفتح الباب يرى زميله يحمل في يده لفة، ويسمعه يقول بمشاعر القلق والهم: «لبن، لبن، لبن...».

هاو تشيانغ شينغ الذي يستبد به النعاس، يفرك عينيه حيناً، ويسأل حيناً آخر: «أي لبن؟».

والذي يفتح سترته القطنية ويجعل زميله يراني أنخرط في بكاء شديد، وفي الوقت نفسه يسلمه اللفة وأنا في داخلها. هاو ينتفض ذعراً كأنه تسلم حبة بطاطا حلوة ولسعت يده، وتبدو عليه أمارات الدهشة ويحملني إلى داخل الغرفة، وكانت زوجته وتُدعى (لي يوي جين) استيقظت من نومها أيضاً بسبب الجلبة والضوضاء، ويقول لها زوجها: «طفل زميلي في العمل يانغ جين بياو»، ترى لي يوي جين جسمي يغص باللون الأحمر الأرجواني وتدرّك أنني ولدت تَوّاً، وتحتضنني وتسحب رداء وتغطيني، وتهدأ نفسي، وأمتص حليب الأم الذي يُعتبر حجر الأساس في هذه الدنيا.

يجلس في خارج الغرفة كل من والدي (يانغ جين بياو)، وزميله الشاب عامل التحويلة (هاو تشيانغ شينغ)، وكان والدي يبلغ واحداً وعشرين عاماً فقط آنذاك، ويكفكف عرق وجهه، ويسرد بالتفصيل عملية الالتقاء بي، ويتفهم ذلك هاو تشيانغ شينغ، ويقول إن الجهل أصابه بالفزع تَوّاً لأنه يعرف أن والدي ليس عنده حتى صديقة، فكيف يخاطر وينجب طفلاً. والدي تصدر منه بضعة أصوات ضاحكة: هيه، هيه! كأنه أبله، ثم يعرب

عن مخاوفه من أنتي ربما أكون مخلوقاً غريباً، ويذكر أن جسدي به ذيل في الأمام وليس في الخلف.

عندما كانت لي يوي جين ترضعني ثديها، سمعت رجلين أصبحا أبوين تَوَا يتجاذبان أطراف الحديث في الخارج، وبعد أن رضعت وشبعت وارتويت، وانخرطت في النوم، تطرح على جسدي ملابس ابنتها التي خيبتها بنفسها، كما تأخذ صرة من الأقمشة البالية وتدلف إلى خارج الغرفة.

أعود إلى أحضان والدي. تأخذ لي يوي جين صرة الأقمشة المتهترئة وتُعلم والدي كيف يغير لي حفاض الطفل، وأخبرته بأن يقص تلك الأقمشة ويجعلها حفاضات، وكلما كانت بالية، تصبح أفضل لأن الأقمشة البالية تكون ناعمة ورقيقة. وأخيراً، أشارت إلى ذلك الذيل المعلق في بطني، وتقول:

«إنه الحبل السُّري، تذهب إلى عيادة المحطة غداً، وتطلب من الطبيب أن يقصه، ولا تقصه بنفسك خشية حدوث عدوى».

* * *

أمشي إلى الأمام على امتداد قضبان السكة الحديدية التي تشبه الأضواء الساطعة، وأبحث عن تلك الغرفة الصغيرة المتداعية بجوار تلك القضبان، والتي تضم بين أروقها العديد من قصص نشأتي. أرى أمامي المطر والثلج، وأمامها بنايات سامقة تتألف من عدة طوابق وتحتوي على عدد ضئيل من النوافذ المعتمة، وعندما كنت أتقدم نحوها، أشعر بأنها تتقهقر إلى الخلف، وأدركت أن ذلك العالم يرحل الآن رويداً رويداً.

أسمع صوت أبي يزأر بالشكوى، كان صوته بعيداً هكذا، وحميماً هكذا، وصوت شكواه بجوار أذني يقدم النزر اليسير من

أجل مساعدتي ويشبه تلك الطوابق في البناءات القصية، ولم أتمالك نفسي عن الضحك.

كان والدي يانغ جين بياو يعتقد بإصرار لفترة طويلة جداً أن أبويّ اللذين أنحدر من صلبهما ودمهما قد تخليا عني على قضبان السكة الحديدية رغبة منهما في أن عجالات القطار تسحق عظامي، ومن ثم كان والدي يناجي نفسه دائماً، ويقول: «أ يوجد في هذه الدنيا أبوان بمثل هذه القسوة وعدم الرحمة؟».

هذا التفكير المتصلب جعل والدي يحبني كثيراً، ولا أفارق ظله منذ أن غادرت قضبان السكة الحديد وارتفيت في أحضانه. وفي البداية كبرت في جيب لبان صدره، وكان أول جيب خيطة لي يوي جين، ولونه أزرق، ثم خيط والدي بنفسه الجيوب الأخرى فيما بعد، وكان لونها أزرق أيضاً. وعندما يخرج من البيت قاصداً الدوام، يخلط مسحوق اللبن بالماء ويسخنه، ثم يسكبه في زجاجة الرضاعة التي يدسها في لباس لبان صدره وتلتصق بقلبه النابض ويجعل حرارة جسمه تحافظ على سخونة زجاجة الرضاعة. وبعد ذلك، يحشرنني في الجيب القماشى أمام صدره، ويحمل على كتفه بصورة مائلة إبريقاً يشبه نظيره المستخدم في الجيش، كما يحمل على ظهره صُرتين، إحداهما معبأة بالحفاضات النظيفة، والأخرى مجهزة لحفظ الحفاضات التي تحتوي على مفرزات جسمي.

والدي يذرع المكان جيئةً وذهاباً عندما يحوّل خط القطار على السكة الحديدية، وأنا أتمايل يمنة ويسرة أمام صدره، وهذه أجمل هزة في هذه الدنيا، كما أنها أحلى نومة في مرحلة طفولتي،

وإذا لم أشعر بالجوع ربما أتمنى ألا أستيقظ من حضن والدي إلى الأبد، وعندما أستيقظ أنفجر باكياً، ويعرف أنني جائع، ويمد يده ويتحسس زجاجة الرضاعة وحرارة جسم والدي. وفيما بعد، لم أعد أعرف البكاء والصراخ بعد أن أستيقظ من النوم بسبب شعوري بالجوع، بل أمد يدي وأتحسس زجاجة الرضاعة أمام صدر والدي، مما جعله مدهوشاً ومسروراً مرة تلو مرة، وهرولاً إلى هاوتشيانغ شينغ، ولي يوي جين ويخبرهما أنني أذكى طفل في العالم.

وهناك وفاق كامل وتفاهم تام بين والدي ونموي وترعرعي، فهو يعرف ميقات تضروري جوعاً وشعوري بالظماً. وعند شعوري بالعطش يفتح الإبريق ويرتشف رشفة ماء، ثم يصوب فمه أمام فمي، ويتدفق الماء بمهل داخل فمي. ويدعي والدي أمام لي يوي جين أنه يستطيع أن يميز الفرق الطفيف بين صوت شعوري بالجوع، وصوت شعوري بالظماً. وظلت لي يوي جين بين مكذب ومصّدق، فهي تستطيع فقط أن تقدر شعور ابنتها بالجوع والعطش حسب عقارب الساعة.

يمشي والدي على السكة الحديدية ويشم رائحة كريهة تفوح أمام صدره فترة من الوقت، ويعرف أنه يجب أن يغير حفاضي. ويجلس القرفصاء على مقربة من القضبان، ويضعني على أديم الأرض وسط دوي صافرة قطار يسير بأقصى سرعة، وينظف مؤخرتي بالورق الخشن ويشد على مؤخرتي حفاضاً نظيفاً ثم ينظف الحفاضات القذرة من البراز بالتراب بجوار القضبان، ثم يطويها ويحشرها في الصرة المخصصة لذلك. وبعد انتهاء الدوام وعودته إلى البيت، يضعني في السرير، ويفسل الحفاضات الوسخة وينظفها بالماء والصابون.

كان بيتنا عبارة عن غرفة صغيرة على بعد أكثر من عشرين متراً من قضبان السكة الحديدية، ويغص مدخله من أعلى إلى أسفل بالحفاضات التي تُجفف في الشمس مثل أوراق الشجر، وفي عبارة أخرى، فإن بيتنا يشبه شجرة ناضرة تتفتق أوراقها الواحدة تلو الأخرى.

كانت نشأتي في خضم دوي قطار يسير بأقصى سرعة، وفي داخل غرفة صغيرة تتمايل وتهتز، ونما جسمي بعض الشيء، وأمضي قدماً في النمو فوق ظهر والدي. والجيب القماشي أمام صدر والدي أصبح الجيب القماشي خلف ظهره، وهناك أشب عن الطوق رويداً رويداً.

والدي ذهنه متقد وأنامله بارعة، فقد تعلّم تفصيل الملابس وحبك الثوب الصوفي. وفي الدوام لا يتمالك زملاؤه في العمل أنفسهم وينخرطون في القهقهة والضحك عندما يرونه، لأنه يحملني على ظهره ويسير على السكة الحديدية تارة، ويحيك كنزة صوف صغيرة لي تارة أخرى، وأنامله حاذقة في الحياكة بمهارة ولا يستعين بعينه.

بعد أن تعلمت المشي، يد والدي تسحب يدي. وفي نهاية الأسبوع، يأخذني والدي ويدلف إلى الحديقة للتنزه والمرح، وهناك يحرر والدي يدي وهو مطمئن ويقتفي أثري في مكان أركض إليه. ويجمعنا الوئام والانسجام، وعندما نمشي على طريق صغير داخل الحديقة، يمد يده نحوي وتأثر تأثراً بالغاً، وأمد يدي نحوه في الحال.

نعود أدراجنا إلى الغرفة الصغيرة بجوار قضبان السكة الحديدية، ووالدي شديد الحذر والانتباه تماماً، فهو يطبخ في

الغرفة، وأنا أريد اللعب واللهو خارج الغرفة، ويربطنا بالحبل، حيث يربط طرف الحبل في قدمه، ويربط الطرف الآخر في قدمي. وأستطيع فقط الحراك أمام مدخل البيت، ويترامى إلى مسامعي صراخ والذي ينطلق من داخل الغرفة محدراً إياي في كل مرة أرى فيها القطار ينطلق سريعاً، ولا أتحمل ذلك، وألوذ بأذيال الفرار إلى الأمام، ويصرخ والذي قائلاً: «يانغ فيي، تعال هنا».

* * *

لاحت أمام عيني الغرفة الصغيرة التي أبحث عنها عندما قطعت شوطاً طويلاً وبعيداً على القضيبين اللامعين. ولم تظهر الغرفة قبل لحظة، ثم ما لبثت أن ظهرت في مثل لمح البصر. ورأيت سنوات طفولتي، ووادي الشاب، فضلاً عن فتاة تتدلى ضفائرها على منكبيها، وانصرفنا نحن الثلاثة من الغرفة الصغيرة. تقاسيم وجهي كانت مألوفة ومعروفة، وملامح والذي ما زالت ماثلة في الأذهان، وأمارات الفتاة مبهمة وغامضة.

* * *

اتسمت سنوات طفولتي بالغبطة والسرور مثل قهقهة الضحكات، ولم أدرك البتة أنني أدمر حياة والذي. ومنذ أن سقطت على قضبان السكة الحديدية ضاق الخناق على طريق حياة والذي. والذي ليس عنده صديقة، والزواج صعب المنال. وقدم له هاو تشيانغ شينغ وزوجته لي يوي جين، وهما أفضل أصدقائه، عددًا من الصديقات، وعلى الرغم من أنهما أخبرا تلك الصديقات بخلفيتي الماضية، مما يبرز للعيان أن والذي مخلص وموثوق فيه، بيد أنهن عندما شاهدن والذي للوهلة الأولى كان

يحيك كنزة صوف لي وليس يغير الحفاض، هذا المشهد جعلهن بيتسمن ويضحكن لحظة، ثم يستدرن بأجسامهن وينصرفن. عندما كنت في الرابعة، ظهرت فتاة ضفائرها طويلة، وأكبر من والدي بثلاث سنوات، ولم تر مشهد تغيير الحفاض وحياسة الكنزة، بل رأت طفلاً محبوباً يمكن أن تعتبره نموذجاً، وتمد يدها وتداعب شعري وتتحسس وجهي، وبعد أن ناديتها بلقب «عمتي»، ضمتني إلى صدرها بسرور شديد، وجعلتني أجلس على ساقها. وهذه التصرفات جعلت والدي يرى شعاعاً من الأمل في الزواج بقلق وأعصابه متوترة.

بدأت بينهما مواعيد الغرام، ولم أصطحبهما عندما كانا يتقابلان، بل يتم إرسالني إلى منزل الزوجين هاوتشيانغ شينغ، ولي يوي جين. وكانا يتقابلان بعد أن يستدل الليل سدوله ويمشيان على امتداد السكة الحديدية ببطء، ثم يرجعان أدراجهما بتمهل أيضاً. والذي إنسان انطوائي وخجول، يصطحب تلك الفتاة ذهاباً وإياباً، ولم يطلق والذي بعض كلماته، بيد أن صوته كان يتناثر وسط دوي السرعة العالية للقطار.

في البداية، كان لقاؤهما يستمر وقتاً قصيراً، حيث يسيران على القضبان مرة أو مرتين ذهاباً وإياباً، وبعد ذلك يأتي والذي إلى منزل هاوتشيانغ شينغ ويأخذني ونعود إلى بيتنا. ولكنهما - فيما بعد - كانا يسيران خمس أو ست مرات ذهاباً وإياباً، وكانا يمشيان حتى انبلاج الفجر في بعض الأحيان، أما أنا فأتقاسم الفراش مع الطفلة (هاوشيا) الأكبر مني بثلاثة أيام، وتجمعنا وسادة واحدة، وهاوتشيانغ شينغ غير قادر على الاحتمال، فيستلقي على الفراش ويشخر. وليس هناك سوى لي يوي جين

تجلس بصبر في خارج الغرفة تنتظر قدوم والدي، وتسألهما بصورة عادية عن التقدم الذي أحرزته مواعيد الغرام بينهما، ثم تطلب من والدي أن يحملني وينصرف. وفي تلك الأيام، كنت في المساء دائماً أنام على السرير في منزل هاوتشيانغ شينغ، وأستيقظ في الصباح الباكر فوق فراشي في غرفتي الصغيرة.

استمر هذه الحال زهاء شهرين، وشعرت لي يوي جين بأن والدي وتلك الفتاة يبدو أن علاقتهما لم تشهد ثمة تقدماً سوى إطالة زمن مشيتهما على امتداد القضبان أكثر فأكثر. وبعد أن سألت والدي بالتفصيل عن تفاصيل اللقاءات بينهما، اكتشفت أن هناك مشكلة ما وعندما كانا يمشيان في منتصف الليل والسكون يعم الكون، شعرت تلك الفتاة بالتعب وتسمرت أقدامها وقالت: «مع السلامة»، والدي لسانه قطعة من الخشب وبطيء الكلام، وبعد أن يطأطئ رأسه، يلف جسمه وينصرف عنها، ويهرول إلى منزل هاوتشيانغ شينغ ليأخذني ونعود بيتنا.

لي يوي جين تسأل والدي: «لماذا لم تودعها حتى بيتها؟».

يجيب والدي: «قالت لي، مع السلامة».

لي يوي جين تهز رأسها، وتنفس الصعداء، وأخبرت والدي بأن الفتاة قالت «مع السلامة»، وهي تأمل في سويداء قلبها بأن تودعها وتصطحبها حتى بيتها، علائم عدم الفهم والإدراك تظهر على وجه والدي، وتقول بصورة حازمة وصارمة:

«أنت تودعها وتصطحبها حتى باب بيتها مساء غد».

يزخر قلب والدي بالشكر والامتنان تجاه هاوتشيانغ، ولي يوي جين اللذين يساعدان والدي وأنا بعد أن سقطت على قضبان السكة الحديدية. وينصاع والدي لكلام لي يوي جين، ففي

مساء اليوم التالي وبعد أن قالت تلك الفتاة «مع السلامة»، لم يستدر جسمه وينصرف، بل ودعها حتى باب بيتها بهدوء ودعة، وأمام مدخل بيتها وفي ضوء القمر في منتصف الليل قالت «مع السلامة» للمرة الثانية، وفي هذه المرة ترتسم على وجهها أمارات الغبطة والبهجة.

شهدت علاقتهما تقدماً مبالغاً ومطرداً، ويتقابلان خلسة ولم يعودا ينتظران ظلمة الليل، وفي يوم الأحد يذلفان إلى داخل الحديقة جنباً إلى جنب، وهما يمشيان باتزان وثقة بالنفس، ويتبادلان أحاديث الهوى بصورة رسمية، ويجمعهما الشوق والحنين، ويبدأان اللقاء في تلك الغرفة الصغيرة التي تهتز أركانها وتتمايل عندما يمر القطار بجوارها، وأرى ربما ارتدى كل منهما في حزن الآخر وتبادلا القبلات الحارة، ولم تتجاوز تصرفاتهما أبعد من ذلك.

تطورت علاقتهما من موعد غرام إلى العشق، وكنت غائباً عن ذلك المشهد. وكان ذلك رأي لي يوي جين التي اعتقدت إذا حشرت نفسي بينهما، بأن ذلك يعيق التطور الطبيعي لمشاعر الحب بينهما، ويجب عليّ الظهور على غرار الماء الجاري يكون المجاري. ولي يوي جين لديها يقين بأنه ما دامت تلك الفتاة تحب والدي حباً حقيقياً، فإنها من الطبيعي أن تتقبل وجودي. وكنت في أثناء تلك الفترة أعيش تقريباً في منزل لي يوي جين، وأحب هذه الأسرة وتربطني أواصر الصداقة الحميمة مع الطفلة هاوشيا، ولي يوي جين تُعد بمثابة والدتي.

عندما يناقش والدي وتلك الفتاة زواجهما، يجب عليهما مناقشة وجودي معهما. وعندما يقعان في حمأة الشوق يكون

نصيبي النسيان من جانبهما بصورة مؤقتة. بدأ والدي يسرد لها بالتفصيل قصتي التي بدأت منذ أن سمع بكائي وانتحابي قبل أربع سنوات وحملني من فوق القضبان، كما حكى لها الحوادث الكثيرة المشوّقة في نشأتي ونموي منذ أربعة أعوام، وعندما يتحدث عني أشعر بأن والدي المحظوظ حقًا، كما أنه والدي الفخور بنفسه. كما سرد العديد من القصص القصيرة حول ذكائي، وكان يعتقد بأنني أذكي طفل في العالم.

والدي لم يتحدث طويلاً على هذا النحو أبداً، وبعد أن استرسل في كلامه بلا توقف لأكثر من ساعة، تقول تلك الفتاة التي ستصبح زوجته في المستقبل، بترؤ:

«لا يجوز أن تتسى هذا الطفل، يجب أن ترسله إلى دار الأيتام».

بُهِت والدي فجأة، وتحجرت ملامح وجهه، وبدا عليه الهم والقلق، بعد أن كانت تعلوه أمارات السعادة الزاخرة، وظلت مثل تلك التعابير ترسم على وجهه فترة من الزمن، ولم تتبدد مثل العواصف والأمطار. وسقط والدي في حبائل الصراع العاطفي، فهو يحب تلك الفتاة حباً عميقاً وقتئذٍ، وطبعاً يحبني أيضاً، وبعد ذلك نوعين مختلفين من الحب، ويحتاج إلى اختيار أحدهما، ويتخلى عن الآخر.

في الواقع، فإن تلك الفتاة لم ترفض وجودي معها البتة، وعلى كل حال هي فتاة واقعية جداً، وتبلغ من العمر ثمانية وعشرين عاماً، ويعتبر سنّها كبيراً في ذلك العصر، والرجال الذين يمكن أن يقع اختيارهم عليها ليسوا كثيرين، وهي قابلت والدي وشعرت بأنه لا بأس به في كافة الجوانب، والشئ الوحيد المؤسف أنه

يتبنى لقيطاً. وتفكر أنها سوف تتجب أطفالاً، ووجودي داخل أروقة أسرتها من المحتمل أن يكون شيئاً مزعجاً. ومن ثم، تفوهت بمثل تلك الكلمات، وحياتهما ستكون أفضل بشكل كبير إذا لم أكن موجوداً بينهما. وكان تفكيرها صائباً، لأنهما قد ينجبان طفلين أو أكثر، فضلاً عن تبني طفل، ويمثل ذلك عبئاً ثقيلاً وضخماً في حياة زوجين يعيشان في ظروف مالية صعبة وعسيرة. وعلى الرغم من هذه الظروف الصعبة، فهي ما زالت تتقبل وجودي غير أنها ترى أن والدي يجب - في البداية - أن يرسلني إلى دار الأيتام. وكان ذلك كل ما تفوهت به من كلمات. كان والدي عنيداً ومكابراً، ودخل تفكيره في طريق مسدود في التو ولا يمكن الفكاك من ذلك، وقرر في مناحي نفسه أنها لا تستطيع قبول وجودي. وربما كان صائباً، وعلى الرغم من أنها تتقبلني كرهاً، ولكن ربما سأكون بمثابة سبب مسبق للخلافات والمصاعب داخل هذه الأسرة. آلام والدي لا تحتمل، فهو يشبه منشفة مبللة بالعواطف، ومسكتها أنا وهذه الفتاة بإحكام شديد وعصرنا طرفيها بقوة حتى جففنا ما بداخلها من عواطف ومشاعر.

في ذلك الحين كان عمري أربع سنوات، والوحيد الذي لا يعرف عن ذلك أي شيء، كما لا أعرف تمييز رؤية والدي نحوي إذا كان تعبير عيني من الفرحة والبهجة قد تحول إلى تعبير من الشفقة والرحمة. ويبدو في تلك الأيام أن والدي بات يحبني أكثر. وأجيد المشي ببراعة ومهارة آنذاك، ولكن والدي يحتضنني عندما ندلف إلى خارج البيت كأنتي ما زلت أتعثر في خطواتي. وعندما يتقدم إلى الأمام يلصق وجهه في

وجهي. ووالدي يتمسك بالتقشف الدائم، ويشتري لي قطعتين من الحلويات كل يوم، قطعة يقشر ورقتها ويدسها في فمي، والأخرى يدسها في جيب ملابسي الصغير.

وعندما يعز عليه فراقي في عالم عواطفه، يشعر في أعماق قلبه بأنه ينأى عني كلما مشينا، ووالدي البالغ من العمر خمسة وعشرين عامًا يحتاج إلى امرأة تقاسمه الحياة سواء في الجانب النفسي أو الفيزيولوجي. ويحبني أكثر آنذاك، ولكنه في حاجة ماسة إلى حب امرأة. وبعد أن يعيش نوبة العذاب الذاتي، يقرر اختيارها ويتخلى عني.

ذات يوم في البكور، وعندما استيقظت من نومي، رأيت والدي جالسًا على جانب السرير، ويحني ظهره ويقول بصوت خفيض: «يانغ فيي، نذهب ونركب القطار».

عشت أربع سنوات بجوار قضبان السكة الحديدية وسط دوي القطارات التي تسير بسرعة عالية، ولكن لم أركب القطار. وبعد أن ركبت القطار للمرة الأولى ألصق وجهي بزجاج نافذة القطار. وحينما شرع القطار بالتحرك، رأيت الركاب على رصيف المحطة يتراجعون إلى الخلف أكثر فأكثر، وأجمعتي الدهشة والذهول وصرخت بصوت عال. وبعد ذلك، رأيت البيوت والمساكن والشوارع تتراجع بسرعة، كما رأيت الحقول والبركات تتراجع بسرعة أيضًا، واكتشفت أنه كلما تراجع الأشياء القريبة يكون تراجعها سريعًا، وكلما تراجع الأشياء البعيدة يكون تراجعها بطيئًا. وسألت والدي:

«ما السبب في ذلك؟».

يجيب والدي وصوته يشوبه القلق والحزن: «لا أدري».

يحملني والدي وتنزل من القطار في مدينة صغيرة، وكان ذلك وقت الظهيرة، ونتناول المعكرونة في دكان صغير قبالة محطة القطار. والدي يطلب لي سلطانية الشعيرية باللحم المشروط، وطلب لنفسه معكرونة الصلصة السادة. لا أستطيع أن أكل سلطانية الشعيرية الكبيرة، وما تبقى منها يأكله والدي، وبعد ذلك، يطلب والدي مني الجلوس، ويمشي في الشارع يسأل المارة عن مكان دار الأيتام. سأل ثلاثة أشخاص ذكروا أنهم ليسوا متأكدين إذا كان هذا المكان يوجد به دار أيتام أم لا، أما الشخص الرابع فيأخذ مهلة للتفكير ويخبره بالمكان المحدد لهذه الدار.

والدي يحملني ونسير في طريق طويل جداً، ونصل إلى جانب جسر من البلاط الصخري، ويوجد تحته نهر (جي جيه)، وكان فصل الجفاف وقتئذ. ويسمع صوت غناء أطفال ينبعث من غرفة قبالة الجسر، ويعتقد أنها دار أيتام، وفي الحقيقة هناك رياض أطفال. يحملني والدي ونقف على رأس الجسر، وسمعت صوت غناء ينبثق من بناية قبالة الجسر وأخاطبه بسرور قائلاً: «بابا، هناك أطفال كثر».

والدي يحني رأسه ويجيل بصره في كافة الجهات، ويرى غابة صغيرة على مقربة من الجسر، وهناك بضعة أحجار ضخمة تتخلل الأعشاب الكثيفة والملتفة. وأضخم حجر يوجد في أحد الجوانب لونه أخضر وسطحه أملس، ويمسح والدي أعلاه بيديه، ويزيل التراب وبعض الحصى المتكسرة من فوقه مثل جلو آثار الصدا من فوق لوح حديدي باستخدام ورق السنفرة، ويصقله حتى يلتمع ويشرق، ثم يحملني ويضعني فوق ذلك الحجر، ويستل من جيبه كمية كبيرة من الحلويات ويدسها في جيوبي، وأحلق

بفرح شديد في تلك الحلويات، وما جعلني أكثر غبطة وابتهاجاً أن والدي اشترى أيضاً كمية كبيرة جداً من البسكويت الذي يملأ جيوبي الثلاثة الأخرى. وبعد ذلك، يجلب والدي الإبريق الذي يحمله على ظهره، ويعلقه في رقبتى ويقف أمامي، وتحملق عيناه في الأعشاب الكثيفة على أديم الأرض، ويقول:

«انصرف».

أقول: «حسناً».

يستدير والدي جسمه وينصرف ولا يجروء على أن يلف رأسه وينظر إلي، وسار حتى وصل إلى منعطف، وفي الحقيقة لا يتحمل، ويدور رأسه ويرمقني بنظرة، ويراني أجلس على الحجر وأهز قدمي في سعادة وغبطة.

يركب والدي قطار العودة، ويرجع إلى مدينتنا في المساء. وبعد نزوله من القطار، لم يذهب إلى غرفته الصغيرة، بل عرج على منزل تلك الفتاة، وينادي عليها بأن تخرج، وبعد ذلك يتوجهان إلى الحديقة في صمت مطبق، الفتاة تقتفي أثره في الخلف وقد اعتادت على أنه كثير الصمت.

عندما وصلنا إلى الحديقة، كانت بوابتها موصدة. والدي يسير على امتداد سور الحديقة وهي تسير وراءه، حتى دلفا إلى مكان ناء وهادئ، وتتسمر قدماه، وينكس رأسه ويحكي ما فعله في ذاك اليوم، وأخيراً يؤكد أنه تركني على مقربة من دار الأيتام. الفتاة تلجمها الدهشة والذهول، ولا تجروء على أن تصدق أنه تخلى عني بهذه الطريقة، حتى شعرت بالخوف إلى حد ما. ثم أدركت أنه فعل ذلك من أجل حبها، وتحضنه بقوة وتقبله بحرارة، وهو بدوره يحتضنها بشدة أيضاً. الحطب الجاف

يتوق إلى النار المتأججة، ويتفقان بعد التشاور وبفارغ الصبر على الاضطلاع بإجراءات تسجيل الزواج غداً. وبعد أن هدأت حمأة جيشان العواطف، يقول والدي إنه يشعر بالإعياء، ويعود إلى الغرفة الصغيرة بجوار قضبان السكة الحديدية.

في ذلك المساء ظل والدي ساهراً طوال الليل، وكانت هذه المرة الأولى التي نفترق فيها بعد أن حملني من فوق القضبان، وبدأ يكون نهباً للمخاوف والقلق، ولا يعرف مكاني في هذه اللحظة، ولا يعرف هل اكتشف مسؤول دار الأيتام وجودي أم لا؟ وإذا لم يكتشف وجودي، فمن المحتمل أن أظل جالساً فوق تلك الصخرة، ومن المحتمل أيضاً أن يدنو مني كلب عقور في جوف الليل.

وفي اليوم التالي، والدي قلبه مفعم بالأسى ويمشي مع تلك الفتاة في الشارع الذي يفضي إلى مكتب تسجيل الزواج، ولم تدرك تلك الفتاة أن قلب والدي يشهد تغيرات تقلب وجه الأرض، وشعرت فقط بأن أمارات التعب تبدو على وجهه، وبعد أن استفسرت عن ذلك باهتمام، عرفت أنه لم ينم طوال الليل، وتعتقد أن ذلك من جراء تأثره بالقلق، ولذا ترسم بسمه حلوة على زاوية فمها.

يقول والدي بعد أن قطع نصف المسافة إنه يشعر بالإرهاق، ويجلس على جانب الرصيف، ويضع يديه على ركبتيه، ثم يدفن رأسه بين ذراعيه وينفجر في نوبة بكاء بحرقلة. أخذت تلك الفتاة على حين غرة، تقف هناك ببلادة، وتشعر بالقلق بصورة غامضة. يبكي والدي فترة من الوقت، وبعد ذلك ينهض واقفاً بسرعة، ويقول:

«أريد العودة، أريد العودة، وأبحث عن يانغ فيي».

لم يدر بخلدي أن والدي تخلى عني، وأخبرني بكل المشاهد فيما بعد، ثم أبحث في أعماق ذكرياتي عن نتف من تلك المشاهد. وأتذكر أنني كنت سعيداً وأشعر بالاطمئنان في البداية، وأجلس فوق ذلك الحجر طوال ما بعد الظهر وأتناول البسكويت والحلويات، وأستمر في الأكل حتى عندما يمر أمامي أطفال رياض الأطفال، ويبدون إعجابهم بي بصورة مستمرة، وسمعت هؤلاء الأطفال يقولون لأبائهم: «نريد حلويات، نريد بسكويت». بعد ذلك، يغشى الليل وسمعت نباح كلب في مكان ليس بعيداً، وبدأت أشعر بالخوف، ونزلت من فوق ذلك الحجر، وتواريت عن الأنظار خلفه، ولا يزال الخوف يداهمني، ألملم أوراق الشجر المتساقطة على الأعشاب الكثيفة، ورقة ورقة وأغطي بها جسمي، وأغطي بها رأسي أيضاً، ولا أشعر بالأمان. ويغالبنني النوم في غطائي من أوراق الأشجار، وأستيقظ في الصباح الباكر على صوت جلبة وضوضاء هؤلاء الأطفال الذاهبين إلى رياض الأطفال، وأرى شروق الشمس من الشقوق بين تلك الأوراق، وأصعد من جديد إلى أعلى ذاك الحجر، وأجلس هناك انتظاراً لقدم والدي. انتظرت وقتاً طويلاً، ويبدو أن أناساً جاؤوا إليّ وتحديثوا معي، وتخونني الذاكرة ولا أتذكر ما دار بيننا من حديث. ليس عندي حلويات ولا بسكويت أيضاً، عندي فقط بعض الماء في الإبريق، وأستطيع فقط أن أرتشف رشفتي ماء إذا تضرورت جوعاً، وأفتقر إلى الماء بعد ذلك. وأنا أشعر بالجوع والعطش والإرهاق، وأهبط من أعلى الحجر وأستلقي على الأعشاب الكثيفة خلف الحجر، كما سمعت نباح كلب مرة أخرى، وأغطي نفسي من رأسي إلى أخمص قدمي بأوراق الأشجار مرة أخرى، ثم رحت في نوم عميق.

يصل والدي إلى تلك المدينة في الظهيرة، وبعد أن ينزل من القطار، يركض ويهرول على الطريق، وفي مكان بعيد يركز نظراته، ولم ير شبح جسمي فوق الحجر. تتهاذى خطوات هرولته تدريجياً. وتتسمر قدماه في مكان ليس بعيداً عن الحجر، وطار لبه هلعاً ويجيل بصره في كافة الأنحاء، وعندما يستبد به القلق والاضطراب، يسمع صوتاً ينطلق من منامي خلف الحجر، ويقول: «لماذا لم يحضر والدي ويأخذني بعد؟».

أخبرني والدي فيما بعد، بأنه عندما رأى لحافي من أوراق الشجر ضحك أولاً، ثم ما لبث أن انخرط في البكاء. يزيح أوراق الشجر، ويحملني من داخل الأعشاب الكثيفة، وعندما استيقظت ورأيت والدي، أهتف في فرحة غامرة: «جاء بابا، حضر والدي أخيراً».

حياة والدي عادت إلى فلك حياتي. ومنذ ذلك الوقت، والدي يرفض الزواج، طبعاً في البداية رفض تلك الفتاة التي تتدلى ضفائرها على منكبيها، وكانت حزينة جداً، واستعصى عليها الفهم وهرولت إلى لي يوي جين تبكي بعد أن شعرت بالحيف. وعرفت لي يوي جين ما حدث بينهما، وألقت باللائمة على والدي، وقالت إنها وزوجها هاوتشيانغ شينغ يرغبان في تبني، وتشعر بأنني ابنها لأنني رضعت من ثديها. ويهز والدي رأسه بخجل ويعترف بأنه ارتكب خطأ. ولكن عندما تطلب منه لي يوي جين أن يستعيد علاقته وانسجامة من جديد مع تلك الفتاة، يقرر والدي المتشبت برأيه، أنه يستطيع فقط أن يكون لديه اختيار واحد أنا أم تلك الفتاة، ويقول: «أريد يانغ فيني فقط».

والدي يلتزم بالصمت ولا يقدم جواباً مهما أسدت إليه لي يوي جين من النصح، التي استشاطت غضباً وشعرت بأنه لا حول ولا قوة لها، وذكرت أنها لم تعد تعير اهتماماً لشؤون والدي. رأيت تلك الفتاة ذات الصفائر الطويلة المسترسلة على ظهرها مرات عديدة بعد ذلك. والدي يسحب يدي ونمشي في الشارع، ورأيتها مقبلة علينا بسرور بالغ، وتسحب يدي بقوة وأناديها «مرييتي». والدي يحني رأسه دائماً في ذلك الحين، ويسحب يدي ونمشي بسرعة في البداية، كانت تلك الفتاة تبتسم في وجهي، ثم تظاهرت بعدم رؤيتنا بعد ذلك ولم تسمع صوتي. وبعد ثلاث سنوات، تزوجت قائد سرية في جيش التحرير أكبر منها بعشر سنوات ونيف، وسافرت إلى شمال الصين البعيد لتكون من أسر الجنود هناك. ومنذ ذلك الحين، قلب والدي لم تساوره الوسائوس بشأن تربييتي وإعدادي، فقد أصبحت كل شيء في حياته، نتقاسم متاعب الحياة حتى نعيش حياة قصيرة مؤقتة نتذوق فيها المعاناة أحياناً، ونتمتع بالذكريات الطويلة أحياناً. وهو يسجل على الحائط عملية نموي وترعرعي، ويطلب مني كل ستة شهور أن أقف وألصق جسمي في الحائط، ويرسم بالقلم الرصاص خطوطاً عريضة فوق رأسي. وتتمو قامتي في المدرسة التمهيدية بسرعة، ويرى على الحائط اتساع الفارق بين تلك الخطوط أكثر فأكثر، ويبتسم من سويداء قلبه.

قامتي تتاهز قامة والدي تقريباً عندما كنت في الفرقة الأولى بالمدرسة التمهيدية، وأبتسم دائماً في وجه والدي وألوح له بيدي، وهو يضحك: هيه، هيه! ويمشي بجواري، وأنصب قامتي عالياً حتى أكون أطول منه عند المقارنة. واطببت على

ذلك حتى الفرقة الثالثة بالمدرسة الإعدادية، وقامتي تزداد طولا أكثر فأكثر، وتتضاءل قامة والدي يوماً بعد يوم، ورأيت بجلاء شعيرات بيضاء في قمة رأسه، ثم لفت انتباهي التجاعيد التي يغص بها وجهه، لقد أجهد والدي نفسه بصورة مفرطة، ويبدو عليه أنه أكبر من عمره الحقيقي بعشر سنوات.

لم يعد والدي عامل التحويلة آنذاك، فقد حلت المحولة الكهربائية محل المحولة اليدوية في أتمتة السكة الحديدية. وغير والدي عمله وأصبح عامل محطة، واستغرق وقتاً طويلاً حتى تأقلم مع عمله الجديد. ووالدي يحب العمل الذي يتحلى بالمسؤولية. ويركز جل اهتمامه عندما كان يعمل عامل تحويل على خط السكة الحديدية، وإذا أخطأ في عملية التحويل تقع حادثة مفاجئة. ثم ما لبث أن أصابه الترهل والتراخي بعد أن أصبح عامل محطة، وعمل بلا مسؤولية جعله يشعر دائماً بأنه طاقة كبيرة في حيز ضيق.

* * *

الفرقة الصغيرة تتأى رويداً رويداً، وقضييبا السكة الحديدية يلتمعان ويمتدان ويبتعدان، وأنا ما زلت قابلاً في كياني نسجته حولي، أنغمس في المتعة حتى نسيت العودة، وشعرت بالإرهاق، وجلست على حجر. وجسدي يشبه شجرة ساكنة، وذاكرتي تركض بخطوات وثيدة في ذاك العالم البعيد الذي يشبه الماراثون.

* * *

يعيش والدي عيشة التقشف، ويتحمل مصاريف دراستي من المدرسة الابتدائية إلى الجامعة، وعلى الرغم من أن حياتنا فقيرة، بيد أنها لطيفة وهادئة وجميلة، وحتى جاء يوم تبحث

أمي عني، وتأتي من مسافة ألف ميل، وتزلزلت أركان حياتي الهادئة. كنت في الفرقة الرابعة بالجامعة آنذاك، ووالدتي تبحث عني من مدينة إلى أخرى على امتداد السكة الحديدية، وفي الواقع، فإنها بحثت عني منذ سنوات خلت، وبعد أن أفاقت من الإغماء في القطار، وقطع القطار زهاء مئتي كيلومتر، تذكرت أنها ولدتي قبيل نزولها في محطة القطار، ولا تدري تمامًا في أي محطة كانت ولادتي، وكلفت أحد الأشخاص البحث عني في ثلاث محطات تجاوزها القطار، ولم يجد أثرًا لي. واعتقدت أن القطار قطع لحمي إربًا إربًا، أو تضورت جوعًا ولقيت حتفي على القضبان، أو التهمني كلب، وانفجرت في البكاء وهي كسيرة القلب وبائسة. وبعد ذلك، تخلت عن فكرة البحث عني، ولكن ذؤابات الأمل ما زالت تشغل قلبها دائمًا وأبدًا، وتأمل بأن يعثر عليّ رجل طيب ويقوم بتربيتي وإعالتني حتى أشب عن الطوق، وبعد أن تقاعدت والدي في الخامسة والخمسين، قررت أن تسافر إلى جنوب الصين بحثًا عني في ذلك العام، وإذا لم تعثر عليّ هذه المرة، فمن المحتمل أن تتخلى عن فكرة البحث عني إلى الأبد، وينسق التلفاز والصحف هنا جهود البحث عني مع والدي. وكانت ولادتي العجيبة والغريبة قصة طريفة حقًا، وبالع التلفاز والصحف في تقديم قصة ولادتي، وكان مانشيت إحدى الصحف بعنوان: «ولادة طفل في القطار».

ورأيت في الصحيفة صورة والدي ودموعها تنثال، كما سمعت قصة تدفق دموعها في التلفاز، وكان ينتابني شعور مسبق آنذاك بأن الطفل الذي تبحث عنه هو أنا، لأن ما ذكرته من تاريخ السنة والشهر واليوم يوافق ذاك اليوم الذي وُلدت فيه، وعلى

كل حال، نبضات قلبها لا تعرف الخوف كأن هذه القصة تتعلق بشأن إنسان آخر. ولم يكن في الحسبان أن يكون عندي اهتمام للمقارنة وأعرف الاختلاف بين دموعها في الصورة التي نشرتها الصحيفة، ودموعها على شاشة التلفاز، فقد كانت دموعها في الصحيفة ثابتة وتلتصق بخديها، أما دموعها على شاشة التلفاز فمتحركة وتسح من زاوية فمها. وأنا ووالدي الذي يُدعى (يانغ جين بياو) نتقاسم متاعب الحياة لمدة اثنتين وعشرين سنة، وتعودت نفسي على الأم التي تُدعى (لي يوي جين)، وتظهر الأم الأخرى الغريبة بصورة فجائية، وتتدافع مشاعر غريبة في قلبي. يقرأ والدي القصة التي سردها أمي في الصحيفة آنذاك بدقة، كما يسمع قصتها في التلفاز بدقة أيضاً. وقرر أن الابن الذي تبحث عنه هو أنا. ويعرف دار الضيافة التي تقيم فيها والدتي من أخبار الصحيفة، وفي بكور ذاك اليوم عرّج على مكتب محطة القطار واتصل هاتفياً بدار الضيافة التي تقيم فيها، واستقبلت المكالمات الهاتفية بكل سهولة ويسر، وبعد أن يوفقا في كافة التفاصيل، سمع والدي بكاءها بحرقة، وتهمر دموع والدي أيضاً، ويتجاذبان أطراف الحديث في الهاتف لمدة ساعة وأكثر وصوتهما ينشج، ووالدتي تسأل عن أحوالي بصورة مستمرة، ووالدي يجيب بلا انقطاع، ثم يتفقان على الالتقاء بعد الظهر في الفندق الذي تقيم فيه. والدي متأثر بالغ الأثر، ويعود أدراجه، ويقول:

«جاءت أمك لزيارتك».

يذهب والدي إلى البنك ويسحب من دفتر التوفير ثلاثة آلاف يوان، وهذا المبلغ هو كل مدخراته، ويسحب يدي وندلف إلى

أكبر مركز مشتريات في مدينتنا فتح أبوابه أمام الجمهور تَوَّأ،
والذي يعتزم شراء ملابس غربية ذات ماركة مشهورة من أجلي.
ويرى والذي أنني يجب أن أرتدي ملابس على غرار تلك التي
يرتديها النجوم اللامعة التي تظهر على شاشة التلفاز، وأقابل
والدتي في كبرياء وكرامة، ويجعلها تشعر بأنه لم يعاملني معاملة
سيئة طوال اثنين وعشرين عامًا. يعيش والذي في هذه المدينة
منذ سنوات طويلة، ولكنه لم يبرح محيط محطة القطار بصورة
أساسية، وتُعد هذه المرة الأولى التي يدخل فيها مركز المشتريات
ذا التصميم من طراز رفيع وتتألف من ستة طوابق، ويتطلع
حواليه، ويدمدم، ويقول: «رائع جدًا، فخم جدًا».

الطابق الأول في مركز المشتريات يضم مستحضرات التجميل
من جميع الماركات، والذي يأخذ نفسًا بالقوة، ويخاطبني قائلاً:
«تفوح رائحة زكية هنا».

والذي يتقدم إلى أمام كونتر المشتريات الذي يضم مستحضرات
التجميل، ويسأل آنسة: «الملابس الغربية ذات الماركة الشهيرة في
أي طابق؟».

تجيب الأنسة: «في الطابق الثاني».

والذي مفعم بالحماسة ويسحب يدي، ونخطو خطوات واسعة،
ونسند أيدينا على السلم الكهربائي كأن والذي يلف ألوفاً مؤلفة
من لفائف المال حول خصره، ونصل إلى الطابق الثاني، ونجد
أمامنا دكان الماركات الأجنبية الشهيرة، وعندما يدخل والذي
هناك يلقي نظرة على أسعار أربطة العنق في عدة صفوف عند
مدخل الدكان، وتُصيبه الدهشة ويخاطبني قائلاً:

«رباط العنق يُباع بمئتين وثمانين يواناً».

أقول: «يا بابا، أخطأت في قراءة السعر، إنه ألفان وثمانمئة يوان».

ترتسم علائم الحزن وليست أمارات الدهشة على وجه والدي، ويحاصره الخجل والحياء، ويقف مشدوهاً هناك. وفي الأيام الماضية، وعلى الرغم من أنه يحيا الحياة الفقيرة ويعيش عيشة التقشف، بيد أنه كان لديه خداع الحواس دائماً من أنه يمتلك كساء وفيراً وطعاماً كثيراً، وفي تلك اللحظة يشعر بصورة حقيقية بأنه فقير. ولا يجرو أن يدخل ذلك الدكان للماركات الأجنبية الشهيرة، ويتقدم إلى الأنسة المسؤولة عن المشتريات ويسألها وتتأبه مشاعر مركب النقص:

- «أين توجد الملابس الغربية رخيصة الثمن؟».

- «في الطابق الرابع».

يحنى والدي رأسه ويتدلى ويتقدم نحو السلم الكهربائي للصعود إلى أعلي، وسمعت صوت زفراته ونحن نعتلي ذلك السلم، كما سمعته يقول بصوت خفيض في البداية بأنني لو لم أسقط من القطار، لكان الوضع أحسن، وحياتي ستكون أفضل بكثير مما هي عليه الآن. وقد عرف من الصحف والتلفاز أن والدتي الحقيقية تتمتع بمعاش نائب رئيس قسم، أما والدي الحقيقي فما زال مدير الشعبة في مخفر. وفي الواقع، فإن والدي الحقيقي هو موظف بسيط في تلك المدينة الواقعة شمال الصين، ولكن يرى نفسه أنه شخصية قوية تتحلّى بالنفوذ.

يحتوي الطابق الرابع على ملابس الرجال من الماركات المحلية، أنفق والدي ألفين وستمئة يوان واشترى بزة غربية، وقميصاً، وربطة عنق، وحذاء جلدياً، ثم ما لبث أن عادت إليه خداع

الحواس من الكساء الوفير والطعام الكثير، ويقف على درجات السلم الكهربائي الذي يهبط إلى أسفل رويداً رويداً ويفيض حماسة وحيوية، ويشرف من علٍ وينظر إلى إعلان معلق في الطابق الثاني فيه رجل أجنبي يرتدي بزة غربية وحذاء جلدياً، ويقول إنني أكثر أناقة من ذلك الرجل الأجنبي في الإعلان بعد أن ارتديت اللباس الغربي، ثم يتهدد ويتحسر، ولسان حاله يقول إن المرء يعتمد على الملابس لإظهار مكانته وأناقته حقاً.

في هذا اليوم في الساعة الثانية بعد الظهر، يرتدي والدي البزة النظامية للسكة الحديدية، وأنا أرتدي البزة الغربية والحذاء الجلدي، وعرجنا على دار الضيافة ذات النجوم الثلاث التي تقيم فيها والدتي الحقيقية. يتقدم والدي إلى الكونتر الأمامي ويسأل الفتاة هناك عن والدتي، وتخبره بأنها خرجت في الصباح ولم ترجع بعد، ومن المحتمل أنها ذهبت إلى التلفاز. ويبدو أن الفتاة التي تعمل في الكونتر الأمامي تعرف قصة والدتي الحقيقية، وترمقني بنظرة، وهي لا تعرف أنني بطل هذه القصة. جلسنا على الأريكة عند مدخل الردهة ننتظر قدوم والدتي الحقيقية. وبدأ لون الأريكة الأسود يتسخ ويبهت فعلاً، لأن الجلساء كثر جداً، ومؤخرتهم نالت كثيراً من دهان الأريكة. أرتدي البزة الغربية وأصلح هندامي وأجلس بوقار، ويساورني القلق والخوف ومقطب الجبين، ووالدي يصلح لباسه ويجلس باحترام، وتتأبه مشاعر الهم والقلق وهو مقطب الجبين أيضاً، ويرتدي البزة النظامية الجديدة.

لم يمض وقت طويل، وتدخل امرأة في أواسط العمر، وتتجه نحونا وترمقنا بنظرة، وتعرفنا عليها ونهضنا في الحال،

وجذبنا انتباهها، وتسمرت قدماها تحمق في وجهي. وتخبرها فتاة الكونتر الأمامي آنذاك بأننا ننتظرها وتشير إلينا بيدها اليسرى. وتعرّفت علينا والدتي الحقيقية، وعلى الرغم من أنها اتفقت مع والدي على الموعد المحدد بعد الظهر، ولكنها لم تتحمل الانتظار، وعرجت على محطة القطار في الصباح بحثًا عن والدي، وكنا في مركز المشتريات في ذلك الحين ولم تعثر علينا، وقابلت هاوتشيانغ شينغ الذي أخبرها بالتفصيل بأن (يانغ جين بياو) تولى رعايتي وإعالتني حتى كبرت، كما ذهبت إلى الجامعة التي درست فيها وأقامت في مسكن الطلاب، وسألت زملائي في الدراسة عن أحوالي بالتفصيل. والآن تدخل دار الضيافة وجسمها يرتعش، وتحقق في وجهي وجعلتني أشعر بأن نظراتها تخترق وجهي، تمشي حتى تصل أمامي، وتفتح ثغرها عدة مرات ولم تنفوه بحرف، وطفرت الدموع من عينيها، ثم أصدرت صوتًا بصعوبة بالغة، وسألتني:

«أأنت يانغ فيي؟»

أومئ برأسي.

وتسأل والدي: «أأنت يانغ جين بياو؟»

والدي يطأطئ رأسه أيضًا.

تتحرق في البكاء، تبكي تارة وتخاطبني تارة أخرى، وتقول: «ملا محك تشبه أخاك الكبير كثيرًا، وقامتك أعلى من قامته».

تفرغ من تلك الكلمات، وتركع أمام والدي بصورة فجائية، وتقول: «صاحب الفضل، صاحب الفضل...».

والدي يسندها بسرعة وتجلس على الأريكة ذات اللون الأسود الباهت، وتبكي بحرقه بلا انقطاع، وتغمر الدموع وجه والدي

أيضًا. والدتي الحقيقية تتقدم بالشكر والامتنان إلى والدي بصورة مستمرة، وكل جملة شكر وامتنان تتبعها كلمات تعبر عن أنها لا تستطيع أن تشكر والدي على ما قدمه من جميل ومعروف كبيرين، وعرفت أنه تخلص من حياة الزوجية من أجلي، وتكلم وفي عينيها دمع يترقرق:

«أنت قدمت تضحيات كبيرة من أجل ابني، تضحيات كبيرة جدًا».

والدي لم يتعود على سماع تلك الكلمات ورؤية تلك التصرفات، ويحملك في وجهي ويقول: «يانغ فيي ابني أيضًا».

والدتي الحقيقية تكفكف دموعها، وتقول: «أجل، نعم، هو ابنك أيضًا، هو ابنك إلى الأبد».

بعد أن يسود الهدوء تدريجيًا، تمسك والدتي الحقيقية يدي، وتحقق في وجهي بعينين مذهولتين، وتتحدث معي بكلمات مفككة ومشوشة، وفي كل مرة عندما أجيب على أسئلتها، تدير رأسها، وتخبر يانغ جين بياو بسرور بالغ:

«صوته يشبه صوت أخيه الأكبر تمامًا».

والدتي الحقيقية تثق ثقة تامة بأنني ابنها الذي أنجبته في مرحاض قطار متحرك قبل اثنين وعشرين عامًا، وذلك بفضل معالم وجهي وصوتي.

وفيما بعد، أثبتت نتيجة تقييم رابطة الدم في الحمض النووي (DNA) بالدليل الحقيقي أنني ابنها. وبعد ذلك، جاء أقربائي الغريباء مهرولين من تلك المدينة في شمال الصين، جاء والدي الحقيقي، ووالدتي الحقيقية، وأخي الأكبر، وأختي الكبرى، كما جاءت زوجة أخي الأكبر، وزوج أختي الكبرى. وشهد التلفاز

والصحف في مدينتنا جلبة وضوضاء بعد لم شمل أسرة «الطفل الذي وُلد في القطار»، وشاهدت نفسي في التلفاز مرتبكاً وقلقاً، أما في الصحف فكنت أبتسم على مضض.

واستمرت هذه الحملة والضوضاء لمدة يومين، وفي اليوم الثالث تحول الاهتمام في التلفاز والصحف إلى «حملة الرعد المفاجئ» التي تقوم بها الشرطة للقضاء على الأدب الإباحي. وذكرت الصحف أن الشرطة تضطلع بالتمشيط المبالغ والصاعق لمراكز الاستحمام والممرات في مدينتنا تحت جنح الظلام، وألقت القبض على المخالفين للقانون وبلغ عددهم ثمانية وسبعين من المشتبه بهم في الدعارة والمومسات، وكان من بينهم مومس لم يُتوقع أنها رجل واسمه (لي)، تهنّدم في ملابس امرأة لممارسة الدعارة من أجل كسب المال، ويتحلى بالمهارة العالية جداً في طرائق الدعارة، واستقبل أكثر من مئة زبون في أكثر من عام. ولم يكن في الحسبان افتضاح أمره من جانب الداعرين. وكان ذلك بؤرة الاهتمام في الأخبار، ثم انتقل الاهتمام في التلفاز والصحف من «ولادة طفل في القطار»، وتركز على ذلك الرجل المتكرر في زي النسوة ويمارس الدعارة الزائفة وكأنه فتاة، وأشار فقط إلى مهارته الحاذقة في ممارسة الدعارة، أما تفاصيل كيفية استغلال تلك المهارة في الدعارة، فقد أشار التلفاز إلى ذلك بصورة غامضة، والناس في مدينتنا يحلو لهم الحديث في هذا الموضوع، وخبّنوا طرائق متعددة ومتنوعة تتسم بها تلك المهارة في ممارسة الرذيلة.

* * *

يحوم حولي المطر والثلج، ولكن لم يصلأ إلى عيني وجسدي، وأعرف أنهما ينأيان ويبتعدان. لا أزال أجلس فوق حجر، وما زالت ذاكرتي تركض في عالم الفوضى والارتباك.

* * *

تخرجت في الجامعة بعد انقضاء شهرين من عودة أقرائي الغرباء إلى مدينتهم في شمال الصين. وعندما جمعنا اللقاء، أعرب والدي ووالدتي اللذان أنحدر من صلبهما ودمهما، عن أملهما في أن أعمل في المدينة التي يقطنان فيها بعد تخرجي. وقال والدي الحقيقي إنه يستطيع أن يعمل لمدة أربع سنوات في منصب رئيس شعبة بالمخفر، وبعدها ستنتم إحالته إلى المعاش، وينتهاز فرصة أنه ما زال يتمتع ببعض النفوذ والسلطة، ويجري اتصالات ببعض الجهات للحصول على عمل جيد. ووافق والدي يانغ جين بياو على ذلك بصورة كاملة، فقد كان يرى أنه رجل عادي بسيط لا حول ولا قوة له، ويفتقر إلى وسيلة لمساعدتي في الحصول على عمل يرضي طموحاتي، ويعتقد أن مستقبلي سيكون بلا حدود عندما أسافر إلى تلك المدينة في الشمال. وكان والدي الحقيقي قدم هذا الاقتراح آنذاك بحذر شديد خشية أن يثير غضب يانغ جين بياو، ويوضح مرارًا وتكرارًا أنه لا بأس أن أمكث هنا وأعمل، ويستطيع أن يفكر في وسيلة وقيم علاقات هنا ويجعلني أحصل على عمل جيد. ولم يدر بخلده أن يانغ جين بياو يقبل اقتراحه بكل همة ويشكره بإخلاص على ما قدمه من تضحيات من أجلي، بل جعله في غاية الحرج، ويصحح يانغ جين بياو أقواله بعد أن رأى علامات الحيرة والارتباك تظهر على وجهه، ويقول:

«لا يجوز أن أقول شكرًا وامتنانًا، يانغ فيني هو ابنكما».

تتأثر والدتي الحقيقية تأثرًا بالغًا، وتمسح دموعها بمنأى عن الأنظار، وتخاطبني قائلة: «إنه رجل طيب، إنه رجل صالح حقًا».

يدرك والدي أن المدينة التي أسافر إليها باردة جدًا، ويحيك من أجلي كنزة صوف سميقة، ناهيك عن بنطال صوفي. كما اشترى لي معطفًا أسود من الجوخ، وحقيبة سفر كبيرة جدًا وعبأها بملابس الفصول الأربعة، ثم يُفرغ منها الملابس القديمة، ويذهب للسوق ويشتري ملابس جديدة لي. ولا أعرف أنه اقترض بعض المال من صديقه هاو تشيانغ شينغ، ولي يوي جين من أجل شراء ملابس جديدة لي. وفي بكور ذات يوم في فصل الصيف، أجزُ حقيبة السفر التي تكتظ بملابس الشتاء وفي داخلها البزة الغربية أيضًا، وأمشي وراء يانغ جين بياو وندلف إلى محطة القطار، وبعد أن خرم التذكرة يسلمني إيّاها ويوصني بالمحافظة عليها حيث هناك تفتيش على التذاكر داخل القطار. وعندما كنا ننتظر على رصيف المحطة، يحني والدي رأسه، ولم يتفوه بكلمة، وعندما ركبت القطار ويتحرك بخطوات وثيدة، رفع رأسه ويربت على كتفي، ويخاطبني قائلاً:

«اكتب إليّ رسالة، واتصل بي هاتفياً عندما يكون لديك متسع من الوقت حتى أشعر بالاطمئنان، وهذا وحده يكفي، ولا تجعلني فريسة للقلق من أجلك».

عندما كان القطار الذي ركبته يغادر المحطة، كان والدي يقف هناك يحرق في القطار ويلوح بيده، وعلى الرغم من أن هناك ركاباً أكثر على رصيف المحطة يذرعون المكان جيئةً وذهاباً، بيد أنني أشعر بأن والدي يقف وحده هناك.

وأشعر دائماً بالحزن عندما يدور بخلدي مشهد محطة القطار في بكور أحد أيام فصل الصيف، وذلك بعد أن تلاشى وجوده في حياتي بهدوء. وعشت معه حتى سن الحادية والعشرين. وافتحمت حياته على حين غرة، وملأت عليه أقطار حياته تماماً، وكان يجب أن يتمتع بالسعادة، بيد أنه لم يتذوقها أبداً. وبينما تحمل المشاق من أجل تربيتي وإعالتني، أنا تخلّيت عنه دون وعي فوق محطة القطار.

بدأت في تلك المدينة حياة غريبة وقصيرة. يذهب والدي الحقيقي إلى الدوام مبكراً ويعود متأخراً، وهو منهمك في العمل وحفلات العشاء. وأنا ووالدتي الحقيقية التي تقاعدت، لا نفترق ليلاً نهاراً، وتصطحبني في التجول بين المناظر التي تستحق المشاهدة في تلك المدينة، كما نخرج على بيوت عشرة من زملائها في العمل، وتبرز أمام عيونهم ابنا الذي فقدته لمدة اثنين وعشرين عاماً، ويشعرون بفرحة غامرة بعد لم الشمل بين الأم والابن، لكن مشاعر الاستغراب كانت الأكثر شيوعاً لديهم. ووالدتي الحقيقية، صاحبة الوجه البشوش، تحكي لهم قصة كيفية العثور علي، وعندما يتطرق حديثها إلى إثارة العواطف، يتفرق الدمع في عينيها، وكنت مرتبكاً وحائراً في البداية، ثم تعودت ببطء، وشعرت بأنني مثل سلعة ضاعت وتم العثور عليها، وأعارت أذنًا صاغية دون أن أشعر إلى حديث والدتي الحقيقية عن آلام فقدان، وبهجة اللقاء بيننا.

كنت ضيفاً عزيزاً في بداية إقامتي في الأسرة الجديدة، ووالدي ووالدتي اللذان أنحدر من صلبهما ودمهما، وزوجة أخي الكبير وزوج أختي الكبيرة يهتمون دائماً بصحبتني والاطمئنان

علي، وأدركت بعد أسبوعين أنني ضيف بلا دعوة. ونتزاحم جميعاً في شقة تتألف من ثلاث غرف يعيش فيها الوالدان وأخي الكبير وزوجته، وأختي الكبيرة وزوجها، أما أنا فأنام على سرير طواء في الردهة الضيقة، وفي المساء وقبل النوم، أ طرح أولاً طاولة الطعام جانباً بجوار الحائط، ثم أفرد السرير الطواء. وكل يوم في البكور، وعندما أغط في نومي، تأتي والدتي الحقيقية توقظني من نومي برفق شديد، وتطلب مني طي سرير في أسرع وقت ممكن، وأسحب طاولة الطعام إلى مكانها الأصلي، وإلا لا يجد أفراد الأسرة مكاناً يتناولون فيه طعام الإفطار. والدتي الحقيقية تبدي اعتذارها وأسفها، وتواسيني وتقول إن وحدة عمل أخي الكبير سوف توزع عليه شقة قريباً، كما أن وحدة عمل زوج أختي الكبيرة ستوزع عليه أيضاً شقة قريباً، ويمكن أن يكون لي غرفة خاصة بعد أن ينتقلا إلى مسكنهما الجديد.

وتشهد أسرتي الجديدة هذه الشجار والعراك دائماً، حيث الشجار بين أخي الكبير وزوجته، وبين أختي الكبيرة وزوجها، وبين أبوي الحقيقيين، وأحياناً يقع العراك بين أفراد الأسرة كلها، وينجم عن ذلك المشهد الفوضوي الذي يجعلني لا أميز بوضوح الأطراف المتناحرة. وذات مرة حدث شجار بسببي عندما كنت على وشك الذهاب إلى وحدة عمل لأسجل اسمي، وقال أخي الكبير إن نومي في الردهة يثير المشكلات، واقترح أن أستأجر غرفة في الخارج بعد الحصول على عمل وتقاضي راتباً، وحظي اقتراحه بتأييد أختي الكبيرة أيضاً. والدتي الحقيقية في ثورة غضب تشير إليهم بإصبعها وتصرخ في وجوههم قائلة:

«أنتم لديكم العمل وتتقاضون الراتب، فلماذا لا تستأجرون شقة في الخارج؟».

والدي الحقيقي يؤيد كلمات والدتي الحقيقية، ويقول إنهم يعملون منذ بضع سنوات خلت، ويدخرون بعض النقود في البنك، ويتعين عليهم استئجار شقة في الخارج. وبعد ذلك، نشب عراك بين الأبناء والوالدين، وأخي الأكبر وأختي الكبيرة يعددان زملاءهم في الدراسة الذين يكون أولياء أمورهم من ذوي السلطة والنفوذ وجهزوا لأبنائهم البيوت للمعيشة منذ زمن بعيد. والدي الحقيقي يغضب غضباً شديداً وقد بُهت لونه ووجهه، ويلعن أخي الكبير وأختي الكبيرة، ويصفهما بأنهما جاحدا الجميل والمعروف، ثم ما لبثت والدتي الحقيقية تسبهما وتصفهما بأنهما يفتقران إلى الضمير، وتقول إنهما الآن يعملان بفضل علاقة والدي الحقيقي. أقف في ركن وأرقب شجارهم الصاخب العاصف، وأشعر بالحزن والهم في سويداء قلبي على حين غرة. وبعد ذلك جاء الدور على المشاحنة بين أخي وزوجته وأختي وزوجها، الزوجتان تسبان زوجيهما بأنهما ليسا من ذوي الطموح والتطلعات، وتقولان إن زوج فلانة وفلانة في وحدة عمل كل منهما يتحلون بالكفاءة والمقدرة ولديهم شقة وسيارة ونقود، يأبى الزوجان الاعتراف بالضعف، ويقولان إن زوجتيهما تستطيعان الطلاق، وبعد الطلاق تبحثان عن الرجال الذين يملكون الشقق والسيارات والمال. تهرول أختي الكبيرة إلى الغرفة في التو وتكتب اتفاقية الطلاق، وقد حذت حذوها زوجة أخي الكبير، ويوقع على الاتفاقية كل من أخي الكبير وزوج أختي الكبيرة. وبعد ذلك ينفجران في بكاء صاخب، كما يعتزمان

القفز من المبنى السكني، يهرول زوج أختي الكبيرة إلى الشرفة ويحاول القفز، ثم أختي الكبيرة تركض إلى الشرفة أيضاً، يهدأ أخي الكبير وزوج أختي الكبيرة، الزوجان في الشرفة يسحبان الزوجتين ويحاولان شرح حجتيهما ويعتذران عن أخطائهما، وفي حضوري وأمامي يركع أحد الزوجين، أما الزوج الآخر فيضرب فمه. في هذه الأثناء، يدخل أبوأي الحقيقيان إلى غرفتيهما، ويوصدان الباب، ويأويان إلى فراشهما، فقد اعتادا على مثل تلك المشاهدات.

بعد أن هبت العواصف والأمطار الرعدية على هذه الأسرة، أقف في الشرفة في هدأة جوف الليل، وأرقب المناظر الليلية الفخمة في تلك المدينة الواقعة في شمال الصين، ويخطر على بالي والذي يانع جين بياو. ومنذ صغري حتى شببت عن الطوق، لم يسبني، ولم يضرني، وعندما أقترف خطأ يعنفني بكلمات قليلة وبرفق شديد، ثم يرسل زفرة كأنه ارتكب خطأ.

في بكور اليوم التالي، ساد السكون والهدوء الأسرة بعد أن هدأت العاصفة وكأن شيئاً لم يحدث. يتناول أفراد الأسرة طعام الإفطار ويذهبون إلى الدوام، أجلس أنا ووالدتي الحقيقية على مقربة من طاولة الطعام، وتشعر بتأنيب الضمير من جراء الشجار الذي نشب مساء أمس بسببي، كما أنها أكثر شعوراً بالظلم الذي يقع عليها. وتجأر بالشكوى بلا انقطاع، تشتكي من أن أخي الكبير وأختي الكبيرة يأكلان ويشريان بلا مقابل، ولا يدفعان تكاليف الطعام أبداً، كما تجأر بالشكوى من والذي الحقيقي الذي بعد انتهاء الدوام يشارك في الكثير من حفلات العشاء والمآدب، ويعود إلى بيته ثملاً مساء كل يوم تقريباً.

والدتي الحقيقية تثرثر وقتاً طويلاً جداً، وتشتكي من أن بيتها عبارة عن ركام من المشكلات، وتقول إن معالجة شؤون البيت على هذا النحو يشعرها بالإرهاق والتعب. وقد انتظرت حتى فرغت من كلامها، وأخبرتها بصوت خفيض:

«أريد العودة إلى البيت».

تشعر بالارتباك والحيرة بعد أن سمعت كلامي، ثم أدركت أن البيت الذي أقصده ليس هنا، بل في جنوب الصين. وتسح دموعها في صمت رهيب، ولم تتصحني بالعدول عن فكرة العودة إلى هناك، بل تكفكف دموعها بيدها وتقول:

«هل تعود إلى بيتي هنا مرة أخرى وتأتي لزيارتي؟»

أطأطأ رأسي.

تقول بحزن وألم شديدين: «تعرضت للتعسف والحيث خلال تلك الأيام التي قضيتها هنا».

لم أنقوه بحرف.

بعد أن عشت سبعة وعشرين يوماً داخل هذه الأسرة الجديدة، أركب القطار وأعود أدراجي إلى أسرتي القديمة. ولم أخرج من المحطة بعد أن نزلت من القطار، بل أخرج حقيبتي السفر وأعبر ممراً تحت الأرض، وأجتاز ثلاثة أرصفة بحثاً عن والدي الذي رأيت شبحه في الرصيف رقم (4)، وعندما توجهت نحوه، كان يرشد أحد الركاب بالتفصيل إلى الطريق الصحيح بعد أن أخطأ في تحديد الرصيف، وانتظرت حتى قال ذاك الراكب «شكراً»، ويلف جسمه ويمشي، وبعد ذلك، أنادي:

«بابا».

والدي عندما يمشي يصبح جسمه متيبسًا بصورة فجائية، وأناديه مرة أخرى، ويستدير بجسمه ويحملق في وجهي بدهشة، كما ينظر بذهول إلى حقيبة السفر التي تجرها يدي، ويرى أن الملابس التي أرتديها هي الملابس نفسها عند مغادرتي، بالإضافة إلى حقيبة السفر، فكيف غادرت؟ وكيف رجعت أيضًا؟ أقول: «بابا، رجعت إليك».

والدي يدرك المعنى الذي أقصده بما تفوهت به من «رجعت إليك»، ويومئ برأسه قليلًا، ويترقرق الدمع من عينيه، ويلف جسمه في عجالة، وينصرف، ويمضي قدمًا في عمله. أنظر إلى ساعة الرصيف وأعرف أنه مازال في وقت الدوام، أخرجرجر حقيبة السفر وأمشي حتى أصل إلى جوار السلم في الممر تحت الأرض، وأقف هناك أنظر إليه وهو يعمل بكل دقة متناهية، ويقوم بتوجيه وإرشاد نضر من الركاب إلى مكان العربة التي يستقلونها في القطار، كما يحمل حقيبة سفر راكب طاعن في السن ويساعده في ركوب القطار، ويعد أن يغادر هذا القطار رصيف المحطة، يرفع رأسه وينظر إلى الساعة ويعرف أنه قد حان وقت انتهاء الدوام، ويأتي إلى جواري ويحمل حقبتي وينزل درجات السلم، وأمد يدي وأحاول أن أستعيد الحقيبة من يده، ولكنه يدفعني بقوة بيده اليسرى كأنني ما زلت طفلًا لا أستطيع حمل مثل تلك الحقيبة الكبيرة.

رجعت أدراجي إلى بيتي، وفي تلك الأثناء، تركنا الغرفة الصغيرة بجوار السكة الحديدية، ونقلنا إلى بناية مساكن عمال السكة الحديدية، وعلى الرغم من أننا نقطن في غرفتين، ولكن لا تسمع فيهما صوت شجار وعراك.

يشعر والدي بالهدوء التام إزاء عودتي المباغثة، ويقول إنه لا يعرف أنني أرجع هنا، ومن ثم لا يوجد طعام في البيت، وطلب مني الاستحمام، بينما يذهب إلى مطعم على مقربة من مسكننا ويشتري أربعة أصناف من الخضراوات. وهو قلما يغشى المطعم، وكانت هذه المرة الأولى التي يشتري فيها مثل تلك الخضار على حين غرة. ولم ينطق بكلمة تقريباً أثناء تناول الطعام، وكان يلتقط الطعام بصورة مستمرة ويضعه في سلطانية طعامي. وأنا لم أتكلم كثيراً أيضاً، وأخبرته فقط بأنني أشعر بأن هذا البيت يناسب إقامتي، والآن من السهل إلى حد ما أن يحصل طالب الجامعة على عمل، وبحثي عن عمل هنا لا يكون أقل من ذلك العمل الذي قدمه لي والدي الحقيقي. والدي ينصت إلى كلامي تارة، ويومئ برأسه تارة أخرى. وعندما قلت أعتزم البحث عن عمل غداً، بدأ يتكلم:

«علام كل هذه العجلة؟ استرح بضعة أيام».

أخبرني هاو تشيانغ شينغ فيما بعد، أنني بعد أن غلبني النوم في مساء ذاك اليوم، وحضر والدي إلى بيته، ودخل الغرفة وانثالت دموعه، وكانت تنهمر دموعه حيناً، ويتحدث إليه وزوجته لي يوي جين حيناً آخر، ويقول:

«رجع يانغ فيني، عاد ابني إلى أحضانني».

كان والدي يعتقد حتى آخر لحظة في حياته أنه أحسن عمل اضطلع به طوال حياته هو تربية ابن اسمه (يانغ فيني) وإعالتة. وقد تقاعد عن العمل آنذاك، وأنا أعمل مدير قسم في تلك الشركة، وادخرت بعض المال وأعتزم شراء شقة جديدة تتألف من غرفتين. وأستغل الإجازة في نهاية الأسبوع، وأغشى

مع والدي أكثر من عشرة أحياء سكنية صغيرة قيد البناء والتعمير، وأعجبتني شقة هناك، ونستعد لأن نبيع شقة والدي ذات الغرفتين في مساكن السكة الحديدية، وهي الشقة التي وُزعت عليه ومصدر رفاهيته، أضف إلى ذلك مدخراتي في تلك الأعوام، ويمكن أن ما في جعبتنا من نقود يكفي لشراء تلك الشقة الجديدة. وعلى الرغم من إخفاقي في الزواج جعله يتهد ويتحسر دائماً، بيد أن نجاحي في عملي جعله يشعر بالسرور والرضى بصورة عميقة.

في تلك الأيام، أشارك في عدد غير قليل من حفلات العشاء والمآدب في المساء، وعندما أعود متأخراً إلى البيت، أجد والدي طها طعاماً لذيذاً وينتظر حضوري، وإذا لم أرجع إلى البيت، لا يتناول الطعام ولا ينام أيضاً. وبدأت أعتذر بقدر استطاعتي عن تلك الحفلات والمآدب في المساء، وأرجع إلى البيت وأتناول الطعام مع والدي، ونشاهد التلفاز سوياً. وفي إجازة العام، يرافقني في السفر إلى الجبل الأصفر⁽¹⁾. وكان ذلك المرة الأولى وكذلك المرة الأخيرة التي يغادر بيته ويسافر للسياحة. والدي البالغ من العمر ستين عاماً، قوي البنية والعافية، وعندما أصعد الجبل الأصفر تتقطع أنفاسي، وهو لا يزال أنيقاً خفيف الحركة مثل السُنُونُو⁽²⁾، وأحتاج إليه في أن يشد جسمي في الأماكن شديدة الانحدار.

أحيل هاو تشيانغ ولي يوي جين إلى التقاعد، وبعد أن تخرجت ابنتاهما في الجامعة في بكين، سافرت إلى الولايات المتحدة

(1) الجبل الأصفر يقع في جنوب مقاطعة آنهوي في شمال غرب الصين، ويعد من أهم المناطق السياحية العشرة في الصين، وقد أدرجته منظمة اليونسكو في قائمة التراث العالمي في عام 1990. [المترجم]

(2) السُنُونُو أو الخطاف: طائر طويل الجناحين مشقوق الذيل. [المترجم]

لإعداد الدراسات العليا، ثم مكثت هناك، وعملت هناك وتزوجت أمريكياً وأنجبت طفلين هجينين جميلين. وبعد تقاعدهما يستعدان للهجرة إلى الولايات المتحدة. وفي طور انتظارهما للحصول على تأشيرة الهجرة، كانا يأتیان لزيارة والدي دائماً، وكان ذلك بمثابة أسعد لحظة في حياته، وأعرف أنهما جاءا لزيارتنا عندما أعود إلى البيت وأسمع قهقهات الضحك تصطبغ وتدوي، وعندما أظهر أمامهما، تشعر لي يوي جين بسعادة وتتاديني: «يا ابني».

كانت لي يوي جين تتاديني دائماً بـ «يا بُني»، وأشعر دائماً في أعماقي أنها أمي طوال نموي وكبري. وعندما كنت أمص إصبع يانغ جين بياو وأنا قابع في الجيب القماشي أمام صدره، كانت تأتي إلى غرفتنا الصغيرة بجوار السكة الحديدية كل يوم تقريباً، وترضعني من ثديها، وتخاطب والدي قائلة: حليب الأم أفضل من مسحوق اللبن. وتخزن ذاكرتي صورتها بأنها نحيفة الجسم دائماً. ويقول والدي: إنها كانت سمينة، وأنا التهمت لبنها وصارت نحيلة، وأوافق ضمناً على مقولة والدي، ففي ذلك العصر من الفقر المدقع، كانت تعاني من سوء التغذية، وفي الوقت نفسه ترضع طفلاً.

معرفتي بأحوال بيتهما ليست أقل من معرفتي بأحوال بيتي، فقد عشت رديحاً طويلاً من طفولتي في بيتهما. وعندما يكون والدي في ورديّة ليلية، أتناول الطعام وأنام في بيتهما أيضاً. وتعاملني لي يوي جين مثل ابنتيهما هاوشياو تماماً، وكأنها تعامل ابنها وبناتها. وعندما نأكل اللحم بالمصادفة، تلتقط آخر قطعة في السلطانية وتعطيني إياها، ولا تعطينا لابنتها هاوشياو التي بكت ذات مرة، وقالت:

«يا ماما، أنا ابنتك من صلبك ودمك».

تقول لي يوي جين: «أعطيك المرة القادمة».

بيني وبين هاوشياو صداقة تكونت في مهد الطفولة، وعقدنا اتفاقاً سرياً أن نتزوج بعد أن نشبّ عن الطوق، وبذلك نستطيع أن نمكث سوياً دائماً وأبداً، وذكرت هاوشياو آنذاك: «أنت ستكون أباً، وأنا سأكون أما».

كان إدراكنا للزواج في ذلك الحين عبارة عن رابطة تجمع بين الأب والأم، ولكن بعد أن فهمنا المقولة الأكثر دقة، ومفادها أن تلك الرابطة يجب أن تكون بعد أن نصبح زوجاً وزوجة، لم يعد أحد منا يذكر ذلك الاتفاق السري مرة أخرى، ونسيناه بنفس السرعة التي وافقنا عليه.

في الأيام التالية، لم أسافر مرة أخرى إلى تلك الأسرة التي تقطن في مدينة شمال الصين، غير أنني أتصل بهم هاتفياً في عيد رأس السنة أو في غيره من الأعياد، وتستقبل والدتي الحقيقية المكاملة الهاتفية، وبعد أن تسألني عن التطورات الأخيرة بالتفصيل في الهاتف، توصيني دائماً بالاهتمام ورعاية يانغ جين بياو، وأخيراً تتهد شوقاً وتقول الجملة التالية:

«هو رجل صالح».

تعتل صحة والدي يانغ جين بياو بعد انقضاء شهرين من تقاعده، ويعزف عن تناول الطعام، وقد وهنت صحته بصورة مطردة، وطول اليوم ليس فيه إلا نفس يتردد. وأخفى عني حقيقة مرضه، ولم أعرف أنه يخوض صراعاً مع المرض، وكان يثق بأنه يبرأ من سقمه رويداً رويداً. وعندما كان يصيبه مرض في الماضي، لا يذهب إلى المستشفى، ولا يتناول الدواء، ويعول

على قوة بنيانه وعافيته ويتحمل ويتجلد، وفي هذه المرة ما زال يثق بأنه قادر على النهوض والشفاء. كنت مشغولاً في عملي وقتئذ، ولم يلفت انتباهي منظر والدي الذي يلتهمه الإرهاق والتعب يوماً بعد يوم، وفي ذات يوم اكتشفت أن والدي بات نحيلاً ونحيفاً وجفّ عوده، وعرفت آنذاك أن المرض أصابه منذ نصف سنة. وأجبرته على إجراء الكشف الطبي في المستشفى، وبعد إعداد التقرير الطبي وأخذته بيدي المرتعشة، عرفت أنه مصاب بمرض الورم اللمفاوي.

جحظت عيناى وأرى غوائل المرض المزمن تلتهم والدي إرباً إرباً، وأنا بلا حول ولا قوة. والمعالجة بالإشعاع، وإجراء العمليات، والعلاج بالكيماوي تنهافت على قوة بنيان والدي ويتآكل لدرجة أنه يترنح ويتمايل في مشيته، ويسقط على الأرض من جراء عاصفة ريح. وتتحمل هيئة السكة الحديدية جزءاً من نفقات علاج والدي بصفته عاملاً متقاعدًا كان يعمل بها. ولكن مصاريف العلاج ضخمة جداً، ويجب عليّ أن أتحمل الجزء الأكبر منها، وأبيع شقة والدي في مساكن السكة الحديدية بهدوء وبلا ضجة. وتقدمت باستقالتى من عملي من أجل رعاية والدي، واشترت حانوتاً صغيراً على مقربة من المستشفى، وبنام والدي في الغرفة الداخلية، وأنا أنام في الحانوت في الخارج، أبيع اللوازم اليومية للزبائن الذين يذرعون المكان جيئةً وذهاباً، وذلك من أجل الاستمرار في الحياة اليومية.

يشعر والدي بحزن شديد لأنني لم أتشاور معه بشأن استقالتى من العمل وبيع شقته، وعندما علم بالأمر الواقع، يتأوه ويصعد الزفرات دائماً، ويقول وقلبه مفعم بالأسى:

«بعت الشقة، وتقدمت بالاستقالة من العمل، ماذا تعمل في المستقبل؟».

أقوم بمواساة والدي، وأنتظر حتى يبرأ من سقمه، وأعود إلى عملي في الشركة من جديد، وأدخر بعض المال، وأشتري شقة جديدة، وأجعل والدي ينعم بالراحة في خريف العمر. يهز والدي رأسه، ويقول هل ما زال هناك نقود تشتري شقة؟ أقول: لا يمكن أن ندفع كل ما نملكه من النقود، ويمكن شراء الشقة بالقروض التي نسدها بالتقسيط. ولا يزال والدي يهز رأسه باستمرار ويقول لا أريد شراء شقة، ولا أريد الاقتراض. ألتزم الصمت ولم أنطق بكلمة، وقبل الارتفاع الهائل في أسعار الشقق، كان عندي خطة للشراء بالتقسيط ولكن والدي تتابه المخاوف من اقتراض مبالغ كبيرة من البنك، واضطرت لأن أتخلى عن هذه الخطة.

يبدو أن حياتنا عادت إلى ما كانت عليه في الغرفة الصغيرة الآيلة للسقوط بالقرب من السكة الحديدية. وبعد أن نوصد باب الحانوت في المساء، نتكوم أنا ووالدي فوق الفراش ونغط في النوم. وأسمع تنهدات والدي وأنيبه في المساء كل يوم، فهو يرسل الزفرات بسبب مستقبلي في الأيام القادمة، ويئن أنيناً بسبب آلام مرضه. وعندما تخف حدة آلام مرضه بعض الشيء، نتذكر سوياً ماضينا. ويزخر صوت والدي بالغبطة والفرحة آنذاك، ويسرد الكثير من الحكايات في طفولتي، ويقول عندما كنت صغيراً وأريد النوم، أصر على أن أحظى باهتمامه ورعايته، وفي بعض الأحيان عندما يعدل والدي وضعه في النوم ولا يستدير بظهره، أصرخ في التو مرة تلو مرة، وأقول:

«يا بابا، اهتم بي، يا بابا، اعتن بي...».

أخبرت والدي بأنني كنت أصغي إلى صوت شخيرهِ دائماً عندما أستيقظ في منتصف الليل وأنا صغير غريب، ولكن لم أسمعهُ عدة مرات، وبكيت بخوف شديد خشية أنه ربما قد رحل عن دنيانا، وهزّزته بقوة حتى استيقظ من نومه، ورأيتهُ جالساً على السرير، وابتسمت ابتسامة تبللها الدموع، وقلت له: لا تمت أبداً.

ذات يوم في المساء لم يتهدد والدي، ولم يئن أيضاً، بل راح يتكلم بصوت خفيض جداً، وذكر كيف أنه سمع بكائي وانتحابي على السكة الحديدية، وكيف حملني إلى بيت لي يوي جين وطلب منها أن ترضعني من ثديها، وأنا في الرابعة من عمري، أخبرني في ذاك المساء أيضاً بأنه تخلى عن فكرة الزواج من أجلي، وعندما تطرق بحديثه إلى هذا الموضوع بكى بمرارة، ويحاسب نفسه عن أعماله تكراراً ومراراً، ويقول:

«كيف أستطيع أن أكون قاسي القلب هكذا...».

كما أخبرته بأنني قد تخلّيت عنه عندما سافرت إلى تلك الأسيرة في مدينة شمال الصين، وقلت: أصبحنا متعادلين لم ترجح كفة أحد منا. ويتحسس يدي في الظلام، ويقول: لا يمكن أن أعتبر أنك تخلّيت عني عندما سافرت إلى منزل والديك اللذين تتحدر من صلبهما ودمهما.

ويبتسم ابتسامة رقيقة بعد أن يفرغ ما في جعبته من كلمات. ويتذكر عندما رجع يبحث عني أمام ذلك الحجر الأخضر، وأوراق الشجر تغطي جسدي كله بسبب البرد، ويقول: لا يوجد طفل أكثر ذكاء منك في هذا العالم. وكانت ذاكرتي واضحة جلية على حين غرة في ذاك المساء، وتذكرت الحجر، والغابة

والأعشاب الكثيفة، كما تذكرت نباح الكلب الذي جعل فرائصي ترتعد خوفاً ورعباً. وقلت: ليس البرد بل الخوف، حيث هناك كلب ينبج دائماً.

ويقول: «لا غرو، إذن، أن تغطي رأسك بأوراق الشجر». أضحك: هيه، هيه، وهو يضحك أيضاً ويجذو جذوي. ثم يخاطبني بهدوء، ويقول: «أنا لا أخاف الموت، لا أخشاه إطلاقاً، وخوفي يكمن في عدم رؤيتك مرة أخرى».

وفي اليوم التالي، ينصرف والدي بلا استئذان، ويمشي في سكون وهدوء تامين وبلا ضجة، ولم يترك حتى قصاصة ورق، وينأى بعيداً عني ويجر خلفه حياة لم يبق منها شيء يستحق الذكر.

وفي الأيام المقبلة، لا أكف عن تعنيف نفسي بلا انقطاع من جراء إهمالي، وقبل مغادرة والدي المنزل ببضعة أيام طلب مني أن أبحث له في الدولار عن بذلته النظامية الجديدة للسكة الحديدية، ووضعها بجوار الوسادة. لم أعر اهتماماً لهذه المبادرة انطلاقاً من اعتقادي بأنه يرغب في أن يتمتع نظره بالبزة النظامية الجديدة التي ارتداها في المرحلة الأخيرة قبل إحالته إلى المعاش، وأغفلت عاداته منذ عدة سنوات خلت وهي ارتداء تلك البزة النظامية الجديدة في كل مرة يكون عنده أمر مهم.

وقعت كارثة حريق في مدينتنا في ذلك اليوم الذي انصرف فيه والدي بلا استئذان، واندلع الحريق في سوق كبير على مسافة أقل من كيلومتر من الحانوت الصغير الذي اشتريته، ووصلني خبر هذه الكارثة بعد الظهر، وكنت فريسة للهموم والهواجس والظنون في ذلك الخين لأن الوقت متأخر، ولم يرجع والدي إلى

البيت. والتمعت فكرة في ذهني حينئذ، وشعرت بأنه ربما ذهب إلى ذلك السوق. بيد أن عيد ميلادي سيحل بعد أكثر من شهر، ومن المرجح جداً أن والدي انتهز فرصة أنه يستطيع أن يمشي ببطاء، ودلف إلى هناك لشراء هدية عيد ميلادي.

أوصدت باب الحانوت، وهرولت إلى ذلك السوق. وقد تغير لون السوق من الفضي الرمادي إلى اللون الأسود الفاحم مثل الفحم النباتي، وتتصاعد أعمدة الدخان إلى أعلى، وتم إخماد النيران تقريباً، ولا تزال حنفيات أكثر من عشر سيارات إطفاء تضخ أعمدة المياه العالية وتسقط على السوق الذي احترق. وقفت بضع سيارات إسعاف في الشارع، ناهيك عن عدد من سيارات الشرطة. وتصل سلالم الإطفاء إلى السوق، ويدخل رجال الإطفاء إلى السوق لإنقاذ الناس، ويحملون بعض الأفراد، وبعد أن ينقلوهم إلى سيارة الإسعاف يدوي بوقها وتمرق في الشارع بأقصى سرعة.

يتدافع الجمهور إلى تقاطع الطرق المحيطة بالسوق من كل جهة، ويسردون قصة اندلاع النيران، ويتكلمون في وقت واحد بسبعة أفواه وثمانية أسنة، وبقيت بين ظهرانيهم أصغي إلى كلماتهم المتقاطعة، يقول البعض إن الحريق شب في الساعة العاشرة صباحاً تقريباً، بينما يقول آخرون إن النيران شبت وقت الظهيرة. وأضطلع بحركة مكوكية بين صفوفهم، وأستمع إلى مناقشاتهم في أسباب حدوث حريق وتقديرهم لأعداد الجرحى والضحايا، حتى غشي الليل، وأرجع إلى الحانوت.

يذيع التلفاز في المساء خبر الكارثة والحريق بالسوق، وزعمت الأخبار الرسمية أن الكارثة وقعت من جراء اندلاع النيران في

الدائرة الكهربائية في الساعة التاسعة ونصف الساعة صباحاً. وذكر مذيع التلفاز أن السوق كان - آنذاك - فتح أبوابه تواء، والزبائن في داخله ليسوا كثيرين، وتم إخلاء السوق من معظم الزبائن في عجالة، ولم يبق هناك سوى قلة قليلة لم يسعفها الوقت أن تغادر موقع الحادث. أما بخصوص أعداد الجرحى والضحايا، فقد ذكر التلفاز أن ذلك قيد البحث والتحقيق.

لم يرجع والدي إلى البيت في مساء ذلك اليوم، وقلبي راجف واجف طوال الليل. ونشرة الأخبار في التلفاز في الصباح عرضت آخر أخبار كارثة الحريق في السوق، وذكرت أن عدد الضحايا سبعة، وأن المصابين واحد وعشرون، من بينهم اثنان إصابتهما بالغة. وبحلول الظهيرة، كرر التلفاز أسماء الضحايا والمصابين، ولا يوجد اسم والدي.

ولكن شبكة الإنترنت عرضت أخباراً مختلفة، وذكر مستخدم على الشبكة أن عدد الضحايا تجاوز الخمسين، ويقول آخر بل إن العدد تجاوز المئة. وقلة قليلة انتقدت الحكومة على شبكة الإنترنت لأنها أخفت حقيقة عدد الضحايا. وحصل البعض على تعريف عدد الضحايا في الحوادث من قبل لجنة الأمن التابعة لمجلس الدولة الصيني، ومفاده إذا كان عدد الضحايا يتراوح بين ثلاثة وتسعة يعتبر الحادث كبيراً نسبياً، أما إذا ارتفع إلى أكثر من عشرة مصابين فيعتبر حادثاً خطيراً، وإذا كان أكثر من ثلاثين مصاباً يعتبر خطيراً على وجه الخصوص. ووجه البعض ضربة قاصمة للحكومة من خلال الشبكة لأنها تتصلت من مسؤوليتها إزاء الكارثة، وإذا كان عدد المصابين سبعة بصورة محددة، وحتى لو كان هناك اثنان إصابتهما بالغة وبقيان حتفهما،

فإن إجمالي المصابين والضحايا يبلغ تسعة فقط، مما يجعل الحادث كبيراً نسبياً، ولا يلقي بظلاله القاتمة على وظيفة عمدة المدينة وأعضاء الأمانة العامة للمدينة.

وانتشرت الشائعات من كل حذب وصوب على شبكة الإنترنت، ويقول البعض إن أهالي هؤلاء الضحايا الذين لم يتم الإفصاح عنهم، تلقوا تهديداً، بينما يذكر البعض أن هؤلاء الأهالي تقاضوا مبالغ ضخمة مقابل تكميم أفواههم، كما قام البعض بنشر أسماء الضحايا الذين تم التستر عليهم، وما زال اسم والدي غير موجود بينهم.

لم يرجع والدي إلى البيت لمدة يومين، ورحت أبحث عنه. عرجت - أولاً - على محطة القطار أتسم أخباره، وجال بخاطري أنه ربما رآه بعض العاملين في محطة القطار، ولكن انقطعت أخباره. لقد بات نحيلاً ونحيفاً وربما حتى معارفه لا يتعرفون عليه أيضاً. وسافرت إلى أسرة هاو تشيانغ شينغ، ولي يوي جين مرة أخرى، وقد عادا من مدينة غوانغتشو توا، واجتازا بسهولة وسر اختبار منح تأشيرة الهجرة في القنصلية الأمريكية هناك، وبعد عودتهما يبدأان بيع الشقة التي عاشا فيها سنوات عديدة، ويعتزمان الإقامة مع ابنتيهما اللتين تفصل بينهما وبينهما البحار الشاسعة. ويشعران بحزن شديد عندما عرفا هذه الأخبار، ويتهد هاو تشيانغ شينغ، وتتهمر دموع لي يوي جين، وتقول:

«يا ابني، والدك لا يرغب في أن يثقل كاهلك بالمتاعب». ويشعران بأن والدي من المرجح جداً أنه عاد إلى قريته حيث مسقط رأسه وسنوات تربيته ونشأته على غرار الأوراق

المتساقطة تعود إلى جذورها، وطلبنا مني أن أسافر إلى هناك وأبحث عنه.

أبيع الحانوت، وأستقل حافلة المسافات الطويلة متوجهاً إلى مسقط رأس والدي. وقد سافرت هناك في طفولتي، وكرهني جدي وجدتي جداً، ويشعران بأنني أشعت البلبلة والفوضى في حياة ابنهما. ووالدتي من أسرة تتألف من خمسة من الإخوة والأخوات، علاقاتهم مع والدي سيئة. وكان جدي يعمل في السكة الحديدية، وكانت الدولة تنتهج سياسة آنذاك مفادها أنه إذا تقاعد جدي مبكراً، يمكن أن يحل محله في العمل أحد أبنائه، واختار جدي من بين أبنائه الستة الطفل الأصغر وكان والدي. مما أثار غضب وحنق سائر الأبناء الخمسة، وربما لهذا السبب لم يصطحبني والدي مرة أخرى إلى مسقط رأسه.

رحل جدي وجدتي عن دنيانا منذ عشر سنوات ونيف، ومازال الإخوة والأخوات الخمسة يقطنون هناك، ويعمل أولادهم وبناتهم خارج القرية منذ سنوات عديدة، وتجذرت جذورهم في مدن مختلفة.

أنزل من الحافلة في مركز المحافظة المزدهم، وأركب تاكسي يوصلني إلى قرية والدي، يسير التاكسي على طريق مسفلت وعريض ومستو، وأتذكر في طفولتي عندما ركبت السيارة مع والدي وحضرنا هنا، كنا نمشي على طريق ترابي ووعر شديد الانحدار، وعندما يسير التاكسي ويتقدم إلى الأمام يهتز ويقفز. وتتهدت في قلبي إعجاباً بالتغيرات الهائلة، وتوقف التاكسي آنذاك، وانقطع الطريق الإسفلتي بصورة فجائية، وبدا للعيان مرة أخرى طريق ترابي وشديد الانحدار، ويقول سائق التاكسي

إن القيادات العليا لا تأتي إلى مثل تلك المنطقة القاصية المنعزلة، ومن ثم انتهى طريق الإسفلت عند هذا الحد. السائق يحملق في أمارات الدهشة التي ارتسمت على وجهي، ويشرح السبب في ذلك قائلاً إن الطرق في الريف يتم إصلاحها فقط بغرض أن تتفقد القيادات السياسية. ويشير السائق إلى طريق التراب الضيق في الأمام، ويقول إن القادة لا يحضرون إلى هذا المكان الموحش المقفر الذي لا تطفئه أقدام الطيور. وأردف قائلاً إن القرية التي أقصدها على بُعد خمسة كيلومترات في الأمام.

وعندما سافرت إلى قرية والدي في المرة الثانية، وجدت أنها ليست تلك القرية التي زرتها في طفولتي، إنها القرية التي كانت تحتوي على غابة الأشجار، وغابة البامبو، ناهيك عن بضع برك. وأنا ونفرت من أبناء الخال نأخذ النبلة ونصطاد عصفور الدوري في تينك الغابتين، كما نشي البنطال ونقف في البرك ونصطاد الجمبري، وتختزن ذاكرتي زهور السلجم الحقلي التي تشرق وتلمع تحت أشعة الشمس، وأصوات الرجال والنساء، والعجائز والصغار، والدجاج والإوز، والأبقار والغنم.. سيل متدفق لا ينقطع، بالإضافة إلى عدد من إناث الخنزير تركض على الممر الترابي. أما القرية الآن فموحشة تسري فيها برودة العدم، والحقول جرداء وصفراء، والتهمت الفؤوس الأشجار والبامبو، وجفت المياه في البرك. والشباب اليافعون في القرية يعملون خارجها، ورأيت فقط بعضاً من العجائز يجلسن أمام حجراتهن، بالإضافة إلى ثلة من الأطفال يترنحون في مشيتهم، وقد غابت عن ذهني صورة هؤلاء الإخوة والأخوات الخمسة، وسألت رجلاً طاعناً في السن أحذب، ويجلس أمام الباب ويدخن غليون،

عن مكان إقامة أسرة والدي (يانغ جين بياو)، يغمغم باسم (يانغ جين بياو) عدة مرات، ويقدح زناد ذهنه، وينادي مسنًا يجلس أمام الغرفة المقابلة المائلة ويقشر الفول، ويقول:

«ضيف يبحث عنك».

ينهض ذلك الرجل المسن واقفًا، ويحدق في وجهي، وأنا أتقدم نحوه، ويمسح يديه في ملابسه، ويبدو أنه يستعد لمصافحتي. ومشيت حتى بلغت أمامه، وأخبرته بأنني (يانغ فيي)، ولم تظهر ملامحه ثمة بادرة رد فعل، وأقول أنا ابن يانغ جين بياو. وبعد أن يتفوه بالحرف «آه» للاستغراب، يفتح فمه الذي يخلو من القواطع وينادي إخوته وأخواته:

«حضر نجل يانغ جين بياو!».

ثم يخاطبني قائلاً: «لقد كبرت وقامتك عالية، ولم أتعرف عليك البتة».

يحضر سائر الإخوة المسنين الأربعة تباعًا. وأرى الإخوة الخمسة يرتدون ملابس من قماش الألياف الكيماوية، وعندما يقفون معًا لم أتوقع أن أشكالهم متقاربة ووجوههم متشابهة، بيد أن أطوال قاماتهم متفاوتة مثل الأصابع الخمسة في راحة الكف.

ويشعرون بفرحة غامرة عند رؤيتي، وينقعون أوراق الشاي في الماء المغلي ويقدمون السجائر لاستضافتي، أتناول فنجان الشاي، وأومئ برأسي تجاه السجائر وأقول لا أدخن. وبينهمكون في طهي الطعام ويشترون الخمر، وأرى عقارب الساعة لم تبلغ بعد الساعة الثالثة بعد الظهر، وأقول: الآن مازال الوقت مبكرًا إلى حد ما، وأنتم تطبخون، ويردون: ليس مبكرًا.

انصرمت سنوات كثيرة على هذا النحو، وهم لا يحسدون والدي، ولا يبغضونه مرة أخرى، فقد علموا أنه مصاب بمرض عضال وغادر البيت ولا نعرف مكانه، وتتهمر الدموع من عيونهم، ويكفّفونها بظاهر أيديهم لأن أصابعهم خشنة جداً. وأقول إنني أبحث عن والدي طول الوقت، ودار بخلدي أنه ربما عاد هنا، رجع إلى مسقط رأسه مثل الأوراق المتساقطة تعود إلى جذورها. ومن ثم حضرت إليكم، ويطأطئون رؤوسهم، ويقولون إن والدي لم يرجع إلى قريته.

* * *

وقفت وسط السكون والهدوء، وغادرت ذلك الجحر، وأمشي وسط السكون والهدوء أيضاً. لا يزال يسقط المطر والثلج على التوالي، ومازال جسدي لم يبلله ماء المطر ولا الثلج، بيد أنهما يحاصراني، وعندما أنصرف، المطر والثلج ينفصلان، وعندما أدير رأسي يندمجان.

وأسير على درب الذاكرة متوجّها نحو لي يوي جين.

* * *

تودع (لي يوي جين) دنيانا عندما رجعت أدراجي إلى المدينة قادماً من قرية والدي.. وقد صدمتها سيارة ماركة (بي.إم.دبليو) تسير بسرعة فائقة وطارَت في الهواء، ثم سقطت سقوطاً مروّعاً على الأرض في الشارع. كما سحقته شاحنة وسيارة أعمال تجارية كانتا في الخلف. لقد تركتُ المدينة لمدة ثلاثة أيام فقط، ولقيتُ والدتي التي تتوسد قلبي مصرعها.

هاوشيا على متن طائرة في طريق عودتها إلى أسرتها، وهاوتشيانغ شينغ تلقى ضربة قاصمة فجأة وثبطت عزيمته.

وعندما عرجت على بيته، كان هناك ثلة من الرهبان يضطلعون بمراسم المذهب البوذي ويقيمون جنازاً بوذيًا لتعديّة روح الميت إلى شاطئ الخلاص، وتتصاعد أعمدة الدخان من الغرفة، وتكتسي الطاولة بالقماش الأصفر، وفوقها فواكه وكعك، بالإضافة إلى لوحة جنازية مكتوب عليها اسم (لي يوي جين). ويقف هؤلاء الرهبان أمام الطاولة، ويغمضون عيونهم إغماضة طفيفة ويتلون الكتاب المقدس، وصوتهم يشبه طنين سراب من البعوض. يجلس هاوتشيانغ شينغ ونظراته ذاهلة، وأنا أجلس على كرسي بجواره. وربما يعلم الرهبان أن لي يوي جين كانت تستعد للسفر إلى الولايات المتحدة، وبعد تلاوة الكتاب المقدس، يخبرون هاوتشيانغ شينغ بأنه عندما يتلون الكتاب المقدس تتعدى روح لي يوي جين ركبته، كما تتعدى منكبيه، وتدوس على القدم اليمنى وتصعد إلى السماء. ويقول الرهبان إن مراسم الجنازة البوذية تتكلف ثلاثة آلاف يوان صيني، وإذا زدنا خمسمائة يوان يمكن أن نجعل لي يوي جين تتقمص الأرواح الأمريكية. هاوتشيانغ شينغ يومئ برأسه مصعوقاً، ونظر من الرهبان يغمضون عيونهم قليلاً مرة أخرى، ويواصلون تلاوة الكتاب المقدس. وكانت التلاوة قصيرة هذه المرة. وسمعت كلمة أمريكا في جلبة تلاوة الرهبان المبهمة الذين قالوها باللغة الإنجليزية (USA)، وليس باللغة الصينية. وبعد ذلك، ذكر الرهبان أن لي يوي جين وطئت أقدامها الطريق المفضي إلى الولايات المتحدة، وسوف تصل هناك بسرعة جداً، وأسرع من طائرة البوينج. هاوتشيانغ شينغ لم يتعرف علي عندما رأيته، وجلست بجواره طويلاً حتى أدرك من أنا، وبيكي زوجته التي ارتحلت إلى العالم الآخر، ويشد يدي ويقول:

«يانغ فيي، اذهب وألق نظرة على أمك، اذهب وألق نظرة على أمك...».

قبل وفاة لي يوي جين بثلاثة أيام، اكتشفت فضيحة في مدينتنا، ويتوافق ذلك الصباح الباكر في اليوم الذي سافرت فيه إلى القرية بحثاً عن والدي، وكانت في طريق عودتها إلى بيتها بعد أن اشترت خضراوات من سوق المحاصيل الزراعية، وعندما كانت تمشي على الجسر، رأت كوكبة من الأطفال الرضع يطفون على صفحة مياه النهر. في البداية اعتقدت أنهم ربما أسماك نافقة، ثم شعرت بالغرابة حيث لم تر في حياتها أسماكاً على هذا النحو، أسماك لها أذرع وسيقان. وشعرت بأنها طاعنة في السن وبصرها بصر شيخوخة، ثم تتادي شابين وتطلب منهما أن يدققا النظر في معرفة ماذا يطفو على مياه النهر! يقول الشابان إن ذلك لا يشبه السمك، بل يشبه أطفالاً رضعاً فاضت أرواحهم، وتطفو أجسادهم مختلطة بأوراق الأشجار والأعشاب المتنوعة ويدفعها التيار إلى الأمام، بالإضافة إلى بضعة أطفال رضع تطفو أجسادهم في الظلال تحت الجسر، ثم تغادر هذه الظلال إلى أشعة الشمس اللامعة على سطح الماء. وعندما كانت تمشي على ضفة النهر وشاهدت بعينيها هؤلاء الأطفال الموتى يطفون على سطح الماء تعثرت قدمها، ثم رأت ثلاثة منهم وصلوا إلى طريق مسدود على الضفة.

لي يوي جين الصديقة المخلصة لم ترجع إلى بيتها، وتحمل سلة الخضراوات وتذهب مباشرة إلى دار الصحيفة. حرس الدار يمنعها من الدخول بعد أن رأى السلة في يدها، واعتقد أنها جاءت شاكية أو طلباً للمساعدة، ويخبرها بأن تقديم الشكوى

وطلب المساعدة يجب أن يكونا في مكتب خطابات الالتماس في الإدارة البلدية. تعترض لي يوي جين طريق اثنين من الصحفيين جاءا للدوام توأ، وأخبرتهما بظهور أطفال رضع موتى في النهر، ثم يهرولان إلى موقع الحادث بعد أن سمعا كلامها، ويغص أعلى الجسر وضفة النهر بالجمهور في ذلك الحين، وهناك شخص يستخدم قسبة بامبو وينتشل عددا من هؤلاء الأطفال إلى ضفة النهر.

وشهدت فترة الصباح كلها، الصحفيان وأكثر من عشرة من أهالي المدينة يعثرون هناك على سبعة وعشرين وليداً رضيعاً، من بينهم سبعة تعلق في أقدامهم علامة المستشفى في مدينتنا، بينما تسعة عشر آخرون أقدامهم خاوية من تلك العلامة. يلتقط الصحفيان صوراً لهؤلاء الأطفال الأموات باستخدام الهاتف النقال، ثم يفشيان المستشفى، ويستقبلهما مدير المستشفى بحماسة بالغة، ويعتقد أنهما يقومان بالتغطية الإعلامية ويجريان حديثاً صحافياً معه، لأن المستشفى طرحت سياسة جديدة لإيجاد حل لصعوبة وغلاء زيارة الطبيب المعالج من أجل تخفيف حدة الانتقاد للمستشفى في المجتمع. وبعد أن شاهد مدير المستشفى صور الرضع الموتى في هاتفيهما النقال، تلاشت الابتسامة من وجهه في الحال، وقال إنه يذهب إلى المدينة في التولعقد اجتماع، وطلب من نائبه أن يعالج هذه المشكلة مع الصحفيين. وعندما يشاهد نائب مدير المستشفى تلك الصور، يقول إنه يذهب إلى مكتب الصحة فوراً لعقد اجتماع هناك، وطلب من مدير إدارة المستشفى أن يقابلهما. مدير إدارة المستشفى تبدو عليه علامات الضجر، وبعد أن يرى صور الرضع الأموات يميز العلامة في

أعلى أقدامهم، ثم يقول إن ثمانية من الأطفال الرضع الذين تعلق علامة في أقدامهم لقوا حتفهم حيث لم ينفع فيهم علاج أو دواء، وأولياء أمورهم عجزوا عن تحمل نفقات العلاج ولاذوا بالفرار. مدير الإدارة مثقل بالهموم والمشكلات، ويقول: هناك الكثير من أهالي المرضى يلوذون بالفرار أيضاً لأنهم لا يدفعون مصاريف العلاج. وتتكدب المستشفى خسائر بسبب ذلك، وتقدر بأكثر من مليون يوان، وشرح مدير الإدارة أن الرضع الأموات الذين تخلو أقدامهم من العلامة وعددهم تسعة عشر ماتوا أجنة في الشهر السادس تقريباً بسبب الإجهاض تنفيذاً لخطة تحديد النسل بالقوة، كما لفت انتباه هذين الصحفيين بغطرسية، وذكر أن خطة تحديد النسل تُعد سياسة دولة. وأخيراً، زعم أن الرضع الأموات البالغ عددهم تسعة وعشرين هم نفايات العلاج الطبي، ولا يرى أن المستشفى ارتكبت خطأ، وقال: يجب التخلص من النفايات.

تتلقى الصحف في مدينتنا توجيهات القيادة العليا، وتسحب التقارير التي كتبها الصحفيان اللذان يشعران بالحنق، وكانا يعتزمان نشر الصور والمقالات الصحافية على شبكة الإنترنت، وتهيبج الرأي العام في المجتمع. وصوت النقد على الشبكة العنكبوتية يطير إلى مدينتنا مثل تطاير شظايا قذيفة بصورة مركزة. في هذه الأثناء، اعترف المستشفى بالخطأ، وذكر أن المعالجة لنفايات العلاج الطبي ليست جيدة، وتمت معاينة المسؤولين في هذا الشأن، وعندما ذكر المستشفى مرة تلو الأخرى أن الأطفال الرضع يعتبرون نفايات العلاج الطبي أثار غضب مستخدمي الإنترنت، وانطلقت شظايا قذيفة الاستهجان

بشكل أكبر من كل حذب وصوب في الجهة المقابلة، وانبرى المتحدث الإعلامي لإدارة البلدية بالتعليق على هذا الحادث، وأكد أن المعالجة الصحيحة والسليمة لتسعة وعشرين طفلاً من النفايات الطبية تكون بمعاملتهم معاملة إنسانية، ودفنهم بعد حرق أجسادهم.

ذهبت إلى مستودع الجثث في المستشفى حتى ألقى نظرة على جثة لي يوي جين، وعندما دخلت هناك كانت تزرخ بباقات الورود في الجهات الأربع، حيث معلق ومكتوب عليها: «ننعى بحزن شديد ليو شين تشينغ». ولا أعرف من هو ليو شين تشينغ الذي أرسل إليه أناس كثر باقات الورود. ومن الجلي، أن ذاك الرجل إما ثري وإما صاحب منزلة نبيلة. ولم أر لي يوي جين. وباقات الورود في الجهات الأربع جعلت حجرة مستودع الجثث تبدو خاوية على عروشها، وقلبي تساوره الريبة والشك إذا كنت دخلت المكان بالخطأ أم لا.

في هذه الأثناء اكتشفت غرفة صغيرة جانباً، ودخلت من الباب، ورأيت قطعة قماش بيضاء كبيرة جداً تغطي أديم الأرض، والتقعر البارز من القماش الأبيض جعلني أشعر بأن تحته جثة. أجلس القرفصاء وأسحب القماش الأبيض، ورأيت لي يوي جين ترتدي ملابس بيضاء من رأسها إلى أخمص قدميها، وثلة من الرضع الأموات على الأرض. تتمدد جثتها في منتصف الحجرة ويحيطها هؤلاء الرضع من الجهات الأربع الواحد تلو الآخر، وكأنها أصبحت أمًا لهم.

الأم التي شهدت سنوات تربيته وترعرعي، جثتها مستلقية هناك، وتحدرد الدموع على الخدين، ولا تزال ملامحها المألوفة

لدي ترتسم على وجهها وهي ميتة، تتسمر نظراتي بحزن شديد على تلك الملامح الساكنة الهادئة، أمسح دموعي، وقلبي يردد في أعماقه كلمة «ماما».

وقع انهيار أرضي وانخسفت الأرض في مدينتنا في مساء ذاك اليوم. ففي الليل البهيم يسمع الأطباء والمرضات في الدوام الليلي والمرضى صوتاً يحدث هديرًا ودويًا، كما سمعه قاطنو المباني المتاخمة، واعتقدوا أنه زلزال، ويهرولون ويفرون إلى الخارج الواحد تلو الآخر، ثم اكتشفوا أن مستودع الجثث اندثر من الوجود، وظهرت مكانه حفرة مستديرة كبيرة جدًا. وأصاب الناس الهلع والفرع من جراء ظهور هذه الحفرة الناجمة عن الانهيار بصورة فجائية، ولا يجروء الناس في المستشفى، ولا قاطنو البنايات السكنية المتاخمة المكوث في بيوتهم، ويتدافعون إلى الشارع، ولم يبق هناك سوى المرضى من ذوي الأمراض المستعصية يستلقون على فراش المرض، ويستسلمون للقدر.

البشر في الشوارع لم يهدأ روعهم بعد، ويعربون عن امتنانهم للسماء، ويقولون إن السماء لها عيون تحميننا، والسماء نسفت مستودع جثث الموتى، وعلى كل حال نتوسل إليها ألا تخسف بالمباني السكنية المجاورة، وإذا تحركت هذه الحفرة الناجمة عن الانهيار الأرضي عشرات الأمتار، فإن تلك المباني تنهار سواء كانت في الشرق أو الجنوب أو الغرب أو الشمال، وأعداد الموتى والمصابين لا تُحصى، وثلة من الناس يدمدمون: «الشكر والامتنان للسماء»، وهناك عجوز تتدفق دموعه كالشلال، ويقول:

«أيتها السماء أنت رحيمة حقًا، افعلي كما تشائين بتحطيم ما يجب تحطيمه، ولا تهدمي ما لا يجوز هدمه».

وبعد أن سادت مشاعر الخوف والفرع طوال الليل، بدأت تهدأ رويداً رويداً، وأعلنت الإدارة البلدية أن قطر الحفرة الناجمة عن الانهيار الأرضي يبلغ ثلاثين متراً، وسبب الانهيار أنه بعد أن تجمعت المياه الجوفية بصورة مفرطة، تشكل هناك هيكل جيولوجي معلق في الهواء. خمسة من موظفي جهاز مراقبة البيئة الجيولوجية يلقون حبلاً إلى قاع تلك الحفرة، ثم يسحبونه بعد أكثر من ساعة، وذكروا أن حجرة مستودع الجثث مازالت سليمة تماماً، غير أن السقف يعاني من سبعة شقوق.

سيل متدفق من أهالي المدينة يهرولون إلى موقع الحادث، ويقفون على مقربة من المكان الأصلي لحجرة جثث الموتى، ويمتعون عيونهم بمنظر الحفرة الناجمة عن الانهيار الأرضي، ويتهددون في عجب أن الحفرة مستديرة حقاً وتشبه تماماً نظيرتها المرسومة بالفرجار مسبقاً، إنها مستديرة مثل الآبار في الماضي.

وبعد انقضاء يومين، يتذكر أحد الأشخاص أن لي يوي جين وسبعة وعشرين طفلاً رضيعاً كانوا في حجرة جثث الموتى عندما وقع الانهيار الأرضي، ولكن الموظفين الخمسة من جهاز مراقبة البيئة الجيولوجية الذين فحصوا قاع حجرة جثث الموتى، ذكروا أنها خاوية من الجثث. لي يوي جين وهؤلاء الرضع فقدوا بصورة تثير العجب والدهشة.

يقوم صحافي بالتغطية الإعلامية للحادث، ويسأل العامل النظامي المسؤول عن تنظيف حجرة جثث الموتى، ويقول الأخير إن تلك الجثث كانت ما زالت ملقاة في تلك الحجرة الصغيرة عندما انتهى من الدوام في أصيل ذاك اليوم. وسأله الصحافي

أيضاً: هل تم حرق تلك الجثث أم لا؟ وينفي ذلك بصورة قاطعة، ويقول إن مؤسسة الخدمات الجنائية لا تعمل في المساء، ومن ثم لم تحرقها. كما عرج الصحفي أيضاً على إدارة المستشفى، ولا يدري الموظفون هناك السبب في اختفاء لي يوي جين وسبعة وعشرين طفلاً رضيعاً. وقالوا: رأينا أشباحاً، ومن غير المعقول أن الجثث تصعد من تلك الحفرة إلى الخارج وتتجول في الشارع. هاوشيا، التي نزلت من الطائرة تَوّاً وتئن تحت وطأة الحزن والألم وفرق التوقيت، تسند والدها بذراعها الذي تبدو عليه تعابير اللب الشارد، وتغشى المستشفى، وتسال عن مصير أمها، ويقول موظفو المستشفى إنهم لا يعلمون شيئاً عن ذلك.

ينتشر في مدينتنا خبر فقدان لي يوي جين وسبعة وعشرين طفلاً رضيعاً بصورة تثير العجب والدهشة، ثم ما لبثت الصفحات الرئيسية في العديد من الشبكات الإلكترونية أن أذاعت الخبر نفسه، وتوسع دائرة الاهتمام بالحادث كلما أثارت حوله الجلبة والضوضاء، وانتشرت الإشاعات في كافة تلك الشبكات، وأبدى البعض ارتياحه من أن الحادث ربما ينطوي على أسباب تم إخفاؤها عن أعين الجمهور. وعلى الرغم من أن وسائل الإعلام في مدينتنا تلقت توجيهات مفادها أنها جميعاً بلا استثناء لا تنشر أخباراً حول هذا الحادث، ولكن وسائل الإعلام في المناطق الأخرى استخدمت العناوين الرئيسية في نشر خبر هذا الحادث المثير للعجب والدهشة. وعدد غير قليل من الصحفيين في تلك المناطق يسافرون إلى منطقتنا ويركبون وسائل المواصلات المختلفة من طائرة وسيارة وقطار، ويستعدون ويتجهزون لتقديم تقارير صحافية طويلة وواسعة النطاق حول هذا الحادث.

تعقد الإدارة البلدية مؤتمراً صحافياً عاجلاً، وصرح موظف في مكتب الإدارة الشعبية بأن جثث لي يوي جين وسبعة وعشرين طفلاً رضيعاً في حجرة جثث الموتى تم نقلها إلى مؤسسة الخدمات الجنائزية بعد الظهر قبل وقوع الانهيار الأرضي لحرقها. ويواصل الصحفي أسئلته: هل تم إعلام أهالي الأموات قبل حرق جثثهم أم لا؟ يقول الموظف: لم نستطع الاتصال بأهالي هؤلاء الأطفال والبالغ عددهم سبعة وعشرين. كما يسأل الصحفي أهل لي يوي جين مرة أخرى. ويشعر الموظف بالارتباك والحيرة فترة من الزمن، وبعد ذلك يعلن انتهاء المؤتمر الصحفي، ويقول: «شكراً لكم جميعاً».

في أصيل ذاك اليوم، يرسل موظف مكتب الإدارة الشعبية ومندوب المستشفى علبة رفات لي يوي جين إلى أهلها، ويقولان إنه لا يمكن الحفاظ على جثتها بسبب الجو الحار، ولذا قاما بنفسيهما بحرقها. هاوشيا مازالت بكامل وعيها ولم تتم منذ ثلاثين ساعة ونيفاً، وتشعر بالضجر والحنق، وتصرخ قائلة: «نحن الآن في فصل الربيع».

ذلك العامل النظامي في المستشفى المسؤول عن حجرة جثث الموتى يسحب أقواله، ويخبر الصحفيين الذين جاؤوا من المناطق الأخرى، بأن جثث لي يوي جين وسبعة وعشرين طفلاً رضيعاً تم نقلها إلى مؤسسة الخدمات الجنائزية للحرق في الظهر قبل وقوع الانهيار الأرضي، وأضاف أنه بنفسه ساعدهم في نقل الجثث إلى عربة الموتى. وهناك شخص زعم أنه يعمل في البنك ونشر خبراً على الإنترنت جاء فيه أن ذلك العامل النظامي في المستشفى أودع في حسابه الخاص في ذاك اليوم خمسة آلاف

يوان، وأبدى ذلك الشخص ارتياحه من أن ذلك العامل أخذ هذا المبلغ مقابل سحب أقواله.

طلبت الإدارة البلدية من الصحافيين الذين جاؤوا بسرعة التوجه إلى مؤسسة الخدمات الجنائزية لمشاهدة العلب الصغيرة لرفات سبعة وعشرين طفلاً رضيعاً مرصوصة في رتل واحد، وذلك حتى تبرز للعيان أن جثث هؤلاء الأطفال تم حرقها، وأنها تعتزم الاضطرلاع بإجراءات الدفن المناسبة، وذلك من أجل القضاء على الشائعات المتفشية على شبكة الإنترنت. ولكن ما إن يتم القضاء على موجة شائعات، حتى تصعد موجة أخرى. وفي اليوم التالي، كان هناك شخص لديه أخبار تفيد بأن رماد عظام لي يوي جين وهؤلاء الأطفال قد حسمت من رماد الجثث الأخرى التي حُرقت في ذاك اليوم. وانتشر هذا الخبر انتشاراً سريعاً، وبعد أن سمع أقارب الموتى الذين حُرقت جثثهم في ذلك اليوم، فتحوا علب رماد العظام الواحدة تلو الأخرى، وكان لرد الفعل المنتشر على نطاق واسع أن رماد العظام يقل وزنه كثيراً جداً، وذلك على الرغم من أنه لا يوجد أحد منهم يعرف وزن رماد العظم في العادة، وهناك أناس راحوا يسألون الآخرين عن وزن رماد العظم الذين يطأطئون رؤوسهم باستمرار ويقولون لم نفتح علب رماد عظام أقاربنا أبداً ولا نعرف وزنها. وهناك صحفي غشي مؤسسة الخدمات الجنائزية على وجه الخصوص آملاً بأن يتحلى موظفوها بالجسارة ويتخلون عن صمتهم ويثبتون بالأدلة حقيقة ما حدث فعلاً. جميع العاملين في تلك المؤسسة يدحضون ذلك ويعتبرونه زلة لسان، أما قيادة المؤسسة فقد شجبت بشدة الشائعات المنتشرة على شبكة الإنترنت، وبهزاً

شخص على شبكة الإنترنت قائلاً: إن مكافآت العاملين في مؤسسة الخدمات الجنائية تضاعفت في هذا الشهر أكثر من مرتين عن ذي قبل.

* * *

أنتشل نفسي من ذاكرتي الثقيلة المعقدة كأنتني أجتاز غابة من الجبال المتراكمة. تتمدد نفسي طلباً للراحة، وينوء فكري بالإرهاق والإعياء، ولا يزال جسدي يتقدم إلى الأمام، وأسير في الأزلية اللانهائية، وفي الفراغ المجهول. لا طير يحلق في السماء، ولا سمكة تطوف في الماء، ولا كائنات حية تنمو في الأراضي الشاسعة.

اليوم الرابع

أواصل تجوالي بين البكور والمساء. ليس عندي علة رفات العظام، ولا أمتلك قبرا، وعاجز عن الوصول إلى أرض الراحة الأبدية. لا توجد كرات الثلج، ولا ماء المطر، ورأيت فقط الهواء المتحرك من بقعة إلى بقعة مثل ربح تذرع المكان جيئة وذهابا. تمر بجواري امرأة شابة يبدو أنها تتجول هناك، وألف رأسي وأنظر إليها، وهي تدير رأسها، وتحقق في وجهي. ثم تمشي وتعود إلي، وتتفرس في معالم وجهي بوعي، وصوتها مثل الدخان ينتقل من مكان إلى آخر، وتسألني قائلة: «هي أي مكان رأيتك؟».

وكان ذلك بمثابة سؤال أيضا. وتسمّر نظري في وجهها الذي يبدو أنه تربطني به معرفة سابقة، ويتطاير شعرها في الهواء، ولكن لا أشعر بأن الريح يداعب خصلات شعرها، ولفت انتباهي ظهور بقعة دم باقية في أذنّها. وتردّ قائلة: «رأيتك من قبل».

سؤالها يتحول إلى يقين، وجهها في ذاكرتي غريب، ما لبث أن يصبح مألوفا. ولا أذكر وسعا في استعادة الذكريات، ولكن ذاكرتي متعبة ومرهقة أكثر فأكثر مثل الصعود إلى الجبل. وتلفت انتباهي، وتقول: «كنت تستأجر غرفة».

ذاكرتي تهبط برفق شديد من قمة الجبل، وتتحدى برؤية واسعة النطاق.

* * *

قبل سنة ونصف السنة، عندما انتقلت واستأجرت الغرفة، كان يقطن بجواري عاشقان في شرخ الشباب، ولون شعريهما زاهي الألوان، يدلّفان إلى الدوام مبكرا، ويعودان أدراجهما متأخرين، ولا أعرف اسميهما، كما لا أعرف ماذا يعملان؟ وهما يغيران لون شعريهما مرة كل أسبوع تقريبا بين اللون الصفر، والأخضر، والأحمر، والأرجواني، إلى اللون المختلط، ولم أر اللون الأسود. وكانت درجة اللون متشابهة عندما يغيران لون شعريهما، ويزعمان أن في ذلك جمالاً وحلاوة لدى العاشقين. وعرفت بعد شهر أنهما يعملان في كوافير، وذكر صاحبه أنهما لا يقصان شعر الزبائن، بل يقومان بغسل شعورهم في الكوافير. وهما ينقلان مسكنهما ويرحلان بعد انقضاء ثلاثة شهور من تأجير الغرفة.

ينقلان في الغرفة المجاورة لي، وأقوالهما وأفعالهما واضحة وجلية ومسموعة، والجدار الفصال بيني وبينهما يمنع العين من الرؤية فقط، ولكن لا يعيق الأذن عن السمع. وعندما يمارسان شهوة الحب، يدوي صوت صرير ذلك السرير بصورة مستمرة، كما تسمع لهاث الأنفاس، ويبدو أن الحجرة المجاورة لي تدوي فيها أصوات صاخبة وهائجة كل مساء تقريبا.

وينشب الشجار بينهما دائما لأنهما يعيشان في ظروف مالية صعبة. وذات مرة سمعت الفتاة تبكي وتتنحب تارة، وتتكلم تارة أخرى، وتقول إنها لا ترغب تماما في العيش مع هذا الشاب

المسكين الفقير، وإنها تريد أن تتزوج ثريا من الجيل الثاني، ولا تشتغل العمل الشاق، وتمكث في البيت تلعب المايجانغ⁽¹⁾ كل يوم. أما الشاب فيقول إنه يرغب عن العيش معها في أيام فقيرة، وإنه يسعى إلى التعرف على امرأة ثرية، ويعيش في فيلا، ويقود دراجة سباق. ويصف كل منهما تطلعاته نحو الثروة والجاه من أجل أن يحط من قدر الآخر، ويقسم بكل صدق وعزم على الفراق غدا، ويسعى كل واحد منهما نحو مستقبله العظيم. ولكن في اليوم التالي كأن لم يحدث بينهما شيء، ويخرجان من غرفتهما المستأجرة وأيديهما متعانقة وتربطهما أواصر الصداقة الحميمة، ويدلفان إلى الكوافير ويضطلعان بعملهما المرهق المتعب الذي يدر عليهما النزر اليسير من المال.

وحدث بينهما الشجار الأكثر عنفا وحدة عندما ضرب ذلك الشاب الفتاة عشيقته. في البداية، سمعت تلك الفتاة تسرد قصتها مع زميلتها عندما خرجا إلى العمل، ويبدو أنهما جاءا من قرية واحدة، وتعمل زميلتها في ملهى ليلي كمضيفة تستقبل الزبائن في كونتر الملهى وتصطحبهم للتسلية واللهو والمرح، وعندما يقع الزبائن في حبالها، تغادر الكونتر وتكسب ألف يوان في المرة الواحدة، ويمكن أن تكسب ألفي يوان إذا اصطحبت الزبون إلى غرفته، وتتقاسم النقود مع الملهى الليلي الذي يحصل على 40 ٪، وهي تستأثر بالباقي 60 ٪. وعلى هذا النحو، تكسب ما يتراوح بين ثلاثين وأربعين ألفا في كل شهر. وقد عملت أكثر من

(1) من ألعاب التسلية والترفيه في الصين، وتشبه الدومينو، وهي عبارة عن قطع مستطيلة الشكل مصنوعة من البامبو أو الحجر أو البلاستيك، منقوش فوقها تصميمات زخرفية وكلمات مطبوعة. [الترجم]

ثلاث سنوات، وتربطها علاقات مع بعض الزوار الدائمين الذين يتصلون بها هاتفيا دائما ويطلبون منها أن تزورهم وترافقهم، ومن ثم، النقود التي تكسبها لا تتقاسمها مع الملهى، والآن تكسب ما يتراوح بين ستين وسبعين ألفا في الشهر. وتقول تلك الفتاة إن زميلتها تريد أن تتقدم للعمل كآنسة في الملهى، وقد اتفقت على ذلك مع مدير الملهى، وتعتزم أن تصطحبها معها إلى هناك غدا. تلك الفتاة تسأل عشيقها الشاب: «هل تسمح لي بالعمل هناك؟».

لم يفه ذلك الشاب بحرف. أما تلك الفتاة فتقول إنها تبغي العمل كآنسة في الملهى الليلي حتى تتمكن من كسب المال الكثير، ويمكن لعشيقها الشاب ألا يعمل، وهي تقوم على إعالته. وتردف قائلة: بعد أن أعمل هناك بضع سنوات، أعود إلى الحياة الشريفة، وأعود إلى مسقط رأسي مع عشيقتي، ونشتري شقة، وندير حانوتا صغيرا.

الفتاة تسأل عشيقها الشاب مرة أخرى:

«هل توافق على أن أعمل في الملهى الليلي؟».

«تعرضين للإصابة بالمرض التناسلي (الإيدز) بالتأكيد».

«مستحيل، أموت جوعا، ولا أوافق على أن تعلمي آنسة في

الملهى الليلي».

«أنت يمكن أن تموت جوعا، أما أنا فلا».

«أقول مستحيل بكل ما تحمل الكلمة من معنى».

«سلام كل هذا الإصرار؟ بالإضافة إلى أننا لم نتزوج بعد،

ويمكن أن يجمعنا الطلاق قبل الزواج».

«لا يجوز أن تتفوهي بمثل تلك الكلمات مرة أخرى».

«كل ما أريد قوله إن زميلتي لها صديق وافق على أن تعمل في الملهى، فلماذا أنت لا توافق؟».

«صديقها ليس إنسانا، هو حيوان».

«صديقها ليس حيوانا، ففي ذات مرة عضها أحد الزبائن وأصابها بجرح، وذهب صديقها إلى عقردار ذلك الزبون ولعنه بأنه شرير، كما ضربه ضربا مبرحا».

«يوافق لصدييقته على ممارسة الرذيلة، إذا لم يكن حيوانا، فماذا يكون؟ كما يسب الآخرين بأنهم أشرار، وهو نفسه شرير».

«لقد قاسيت شظف العيش، وأرغب عن العيش في أيام الفقر مرة أخرى. وزميلتي تستخدم iPhone 3 عندما تم طرحه في الأسواق، كما غيرت هاتفها الخلوي فور ظهور iPhone s3، وفي العام الماضي غيرت هاتفها iPhone 4، وتستخدم الآن الهاتف iPhone s4. وأنا أستخدم هذا المحمول البالي ولا أحد يشتريه حتى بمئتي يوان».

«سوف أشتري لك iPhone s4 فيما بعد».

«نقودك لا تكفي لشراء الطعام، وإذا انتظرتك حتى تشتري لي ذلك المحمول، فسيكون هناك iPhone s40».

«أشتري لك الهاتف الخلوي iPhone s4 بالتأكيد».

«أنت تهذي بالكلام، أم تقول كلاما معقولا؟».

«أتكلم بعقلانية».

«لا أعيرك اهتماما، أذهب إلى الملهى الليلي غدا».

ثم سمعت صوت فرقة صفعه على خدها.

تبكي وتصرخ: «أنت تضريني، أنت أشبعني ضربا حتى

الموت».

كما يبكي عاشقها الشاب، ويقول: «أسفا ومعذرة، أنا آسف». تبكي وتشتكي بحزن شديد، وتقول: «لم يدر بخلدي أن تضربيني، أنت فقير هكذا، وأعيش معك لأنك تعاملني معاملة حسنة. أنت تضربيني، أنت إنسان خبيث!». ينشج ويقول: «آسف، أنا آسف».

كما سمعت صوت فرقة صفعة على الخد، وشعرت بأن ذلك الشاب يضرب وجهه، وبعد ذلك، يدوي صوت ارتطام الرأس بالحائط. تبكي بحرقة وتتوسل إليه: «لا تضرب رأسك في الحائط، لا تفعل ذلك، أتوسل إليك، أتوسل إليك، لا أذهب إلى الملهى الليلي حتى إذا مت جوعا».

* * *

تتوقف ذاكرتي عند هذا الحد. وأرى أمامي امرأة تدل تعابير وجهها على أنها تعيش وحيدة، وأومئ برأسي، وأقول: «لقد رأيتك من قبل، عندما كنت أستأجر غرفة». تبسم ابتسامة خفيفة، ويلتصع في عيونها الحزن والقلق، وتسألني: «كم يوما مضى على حضورك إلى هنا؟». أطأطئ رأسي، وأقول: «ثلاثة أيام، وربما أربعة أيام». تُحني رأسها، وتقول: «حضرت إلى هنا منذ عشرين يوما ونيفا».

وسألتها:

«هل عندك قبر؟».

«ليس عندي قبر».

«وأنت هل عندك قبر؟».

«ليس عندي قبر أيضا».

ترفع رأسها وتحملق في وجهي بدقة، وتسألني:
«هل تحركت عيناك وأنفك من مكانهما من قبل؟»
«ما تحركت أذني أيضا».

«يبدو من الظاهر أن ذقنك لم تتحرك من مكانها».
ترى شريطا قماشيا أسود معلقا على ذراعي الأيسر، وتقول:
«أنت تعلق شريطا قماشيا أسود وتتعى نفسك إلى الناس».
تلجمني الدهشة قليلا، وأفكر كيف عرفت أن الشريط
القماشي الأسود علقتة على ذراعي بفرض الحداد على
وفاتي؟

تقول: «هناك أناس أيضا ينعون أنفسهم ويعلقون شرائط
قماشية سوداء». أسألها: «في أي مكان؟».
تقول: «أصطحبك ونذهب سويا، والناس الذين يعيشون هناك
يفتقرون جميعا إلى قبر».

ترافقني ونغشى مكانا مجهولا. أعرف اسمها، وهي لم
تخبرني باسمها، بل ذاكرتي تبحث عنه في عالم الممات ذلك.

* * *

هناك فتاة يافعة تدعى (ليومي) قفزت من بناية سامقة
وانتحرت بعد أن أصابها الحزن والكآبة واليأس لأن صديقها
قدّم لها هدية في عيد ميلادها عبارة عن هاتف خلوي iPhone
S4 مغشوش، ليس حقيقيا. وكان ذلك خبرا ذائعا في كافة الأنحاء
منذ أكثر من عشرين يوما.

ونشرت عدة صحف في مدينتنا تقارير عن انتحار (ليومي)
على مدى ثلاثة أيام متتالية، وزعمت تلك الصحف أن تقاريرها
في هذا الشأن عميقة الغور. وكشف الصحافيون النقاب عن

قصص ليست قليلة في حياة ليومي التي تعرفت على صديق عندما كانت تعمل في الكوافير، ويضطلعان بعملين مستقرين في غضون ثلاث سنوات، هما: عامل غسيل الشعر في الكوافير، ونادل في مطعم، كما اشتغلا بالعديد من الأعمال غير المستقرة، وقاما بتغيير مسكنهما خمس مرات، وكان الإيجار رخيصا أكثر فأكثر، وكان مسكنهما الأخير في حجرة تحت الأرض، كانت ملجأ للأشرار تم بناؤه في فترة الثورة الثقافية (1966 - 1976)، وبعد التخلي عنه أصبح ذلك الملجأ أضخم مسكن تحت الأرض في مدينتنا. وأضافت الصحف أن ملجأ الأشرار في مدينتنا يقطنه أكثر من عشرين ألف فرد على الأقل، أطلق عليهم أنهم ينحدرون من فصيلة الفئران، وأنهم يشبهون الفئران ينطلقون من تحت الأرض، وبعد أن يعملوا طوال اليوم، يرجعون إلى تحت الأرض. ونشرت الصحف صورة لمكان إقامة ليومي وصديقتها تحت الأرض، ولا يفصلها عن الجار سوى ستارة قماشية. وأشارت الصحف إلى أن هؤلاء البشر الذين ينتمون إلى فصيلة الفئران يطهون الطعام ويذهبون إلى المرحاض في ملجأ الأشرار، وتكدست هناك القاذورات والأوساخ بلا حدود، ويشعر المرء بأن الهواء أصبح فاسدا، ولم يعد صالحا للبشر.

واكتشف الصحافيون سجل (ليومي) اليومي في الفضاء الافتراضي على شبكة الفيسبوك الصينية كيوكيو (QQ)، وتدعى (شيومي) في هذا الفضاء الافتراضي. وسردت ليومي في سجلها اليومي قبل انتحارها بخمسة أيام قصة صديقتها يهدي إليها هدية عيد ميلادها. ويقول صديقها إنه أنفق أكثر من خمسة آلاف يوان من أجل شراء iPhone 4 التي لصديقتها التي

شعرت بالبهجة والغبطة لمدة يوم واحد فقط، وتناول طعام العشاء في مطعم الجائلين في العراق. وفي اليوم التالي، يسافر الشاب العاشق إلى مسقط رأسه لزيارة والده المريض. والتقت صديقتها بزميلتها التي تستخدم الهاتف الخلوي الحقيقي iPhone s4، وعقدت مقارنة بين هاتفها المغشوش ونظيره الحقيقي لدى زميلتها، كما أن هاتفها خفيف الوزن بجلاء أيضاً، غير أن درجة وضوح الشاشة لا بأس به، وأدركت آنذاك أن صديقها قد خدعها، وأهدى لها هاتفاً خلويًا ثمنه أقل من ألف يوان. وهناك صديق على شبكة الإنترنت من أرباب الصناعة، كتب رسالة فيما بعد على السجل اليومي للفتاة (شومي) جاء فيها: «إذا تحدثنا عن نسبة الوضوح العالية لشاشة العرض، يجب أن يكون المنتج من ماركة شارب». واحتكم هذا الصديق إلى نسبة الوضوح لتصحيح ما ذكرته الفتاة عن درجة وضوح الشاشة، كما صحح أقوالها حول الهاتف الخلوي المغشوش، وقال إذا كانت شاشة العرض من ماركة شارب، فإن ذلك يجب أن نطلق عليه هاتف من نسخة طبق الأصل، وثمنه يجب أن يكون أكثر من ألف يوان. الفتاة (شومي) لا تستطيع الاتصال بصديقها بعد أن تعطل هاتفه الخلوي بسبب القروض، واضطرت لأن تغشى مركز اتصالات الإنترنت، وتبحث عن صديقها وترسل رسالة صوتية باسمه في الفضاء الافتراضي على شبكة (كيوكيو) لمدة خمسة أيام متتالية، وتطلب منه العودة على جناح السرعة. وفي اليوم الخامس، مازال صديقها لم يظهر في الفضاء الافتراضي، وتلعنه بأنه زوج الفاسقة المرتعشة، ثم تعلن أنها ترغب عن الحياة، كما أعلنت على الملأ أنها تستعد للانتحار، وذكرت الميقات والمكان

الذين يشهدان انتحارها. وحددت الموعد في ظهيرة اليوم التالي، أما المكان فقد حددته -بادئ ذي بدء- فوق أعلى الجسر، وكانت تخطط للانتحار قفزا في النهر. وهناك صديق على شبكة الإنترنت أسدى النصح لها ألا تنتحر غرقا في النهر، وأضاف أننا في فصل الشتاء قارس البرودة، ومياه النهر باردة ومتجمدة وتخرق العظام، ويجب البحث عن مكان دافئ للانتحار، وأردف أن الإنسان الذي ينتحر يجب أن يعامل نفسه معاملة طيبة. وسألت ذلك الصديق كيف يكون الانتحار دافئا ولطيفا؟ ويقترح عليها أن تشتري علبتين من الحبوب المنومة وتبتلعهما في نفس واحد، وتلف جسدها باللحاف، وتغط في أحلام سعيدة، ثم تودع دنيانا. وذكر أصدقاء آخرون على الشبكة أن ذلك هراء وكلام فارغ، والمستشفى تعطيها فقط أكثر من عشرة حبوب منومة، أما إذا كانت تريد أن تبتلع علبتين، فإن مبيعات الانتحار يتأجل إلى نصف سنة على الأقل. وذكرت أنها لا تؤجل موعد الانتحار، وقررت أن ترتدي الملابس المخملية وتنتحر قفزا من أعلى مبنى، وقررت أن مكان الانتحار هو سقف البناية السكنية التي تقع قبالة مخرج المكان الذي تسكن فيه تحت الأرض، وقالت: هناك صديقان على شبكة الإنترنت يقطنان خلف هذا الحي السكني ويطلبان منها عدم الانتحار أمام بوابة منزلهما، لأن انتحارها هناك سيجلب لهما النحس والحظ المنكود. واقترح أحدهما أنها تفكر بطريقة وتصعد قمة البناية السامقة للإدارة البلدية، وتقفز إلى أسفل، وقال إن ذلك يعد انتحارا عظيما. وذكر أصدقاء آخرون على الإنترنت أن ذلك مستحيل لأن البوليس المسلح يقوم بحراسة الإدارة البلدية، وقد يرى أنها جاءت شاكية أو طلبا

للمساعدة ويحتجزها ويقيدها. وفي نهاية المطاف، اختارت
 بناية قصر (بينغ فيي)، وهي المبنى التجاري، ويتألف من ثمانية
 وخمسين طابقا، وبعد علامة بارزة في التخطيط المعماري في
 مدينتنا، ولم يعارض ذلك أي صديق على الإنترنت، بل هناك
 أصدقاء امتدحوا هذه الطريقة ووصفوها بأنها جيدة، وقبل
 الموعد الذي حددته تستطيع أن تقف عاليا وتتنظر إلى بعيد، وفي
 الفضاء الافتراضي كتبت آخر كلمة لصديقتها، وقالت: أكرهك.
 الفتاة (شومي) حددت موعد انتحارها بعد الظهر. وفي هذه
 الأثناء، وصلت توا إلى بناية قصر (بينغ فيي)، وأحمل في جيبتي
 شهادة التخرج الجامعية، وشهادة درجة الليسانس. وعثرت في
 شبكة الإنترنت على عدد من الشركات في تلك البناية التي تعمل
 في مجال التدريس الإضافي، وبحثت أبحث عن فرصة عمل في
 إحدى تلك الشركات.

يتدافع ويتزاحم الناس أمام بناية قصر (بينغ فيي)، كما هرولت
 إلى هناك سيارة الشرطة وسيارة الإطفاء، والناس جميعهم
 هناك يفتحون أفواههم قليلا ويتطلعون إلى تلك البناية السامقة.
 والسماء صافية زرقاء بعد سقوط كميات كبيرة من الثلج لأول
 مرة في هذا الشتاء، وأشعة الشمس تجعل أكوام الثلج المتراكمة
 تشرق وتتلألأ. أقف هناك، وأرفع رأسي عاليا، وأرنو إلى شبح
 إنسان صغير يقف على الحائط الخارجي المكشوف لتلك البناية
 التي تتألف من ثلاثين طابقا. وبعد فترة وجيزة، أشعة الشمس
 توجع عيني، وأحني رأسي، وأفرك عيني. وشاهدت أناسا كثيرا
 يحذون حذوي، حيث يرفعون رؤوسهم فترة وجيزة، ثم ينكسون
 رؤوسهم، ويفركون عيونهم، ثم يرفعون رؤوسهم ويتطلعون إلى

أعلى فترة قصيرة. وسمعت مناقشة صاخبة جاء فيها أن هذه الفتاة تقف هناك لمدة أكثر من ساعتين.

ويسأل أحدهم: «لماذا تقف هناك هذه الفتاة؟».

يجيب أحد الأشخاص: «تستعد للانتحار».

«لماذا تنتحر؟».

«ترغب عن الحياة».

«لماذا لا تريد الحياة؟».

«أنت أحمق وأبله؛ كيف تسأل هذا السؤال، هناك كثرة كاثرة ترغب عن الحياة في هذه السنين».

يتدافع ويتزاحم بين الناس هناك تجار صفار، والباعة المتجولون يذرعون المكان جيئة وذهابا، ويروجون بضاعتهم من محفظة جيب جلدية، وحقيبة يد جلدية، بالإضافة إلى العقود والشالات وغيرها من البضائع غير الأصلية وذات الماركات المغشوشة. كما هناك تجار يروجون بضاعة «مرهم السعادة والبهجة».

وهناك من يروج منتجات عجيبة، ويقول بصوت خفيض: من يريد أن يشتري جهاز تنصت؟ ويسأل سائل: ما فائدة جهاز التنصت؟ وكانت الإجابة أن هذا الجهاز يمكنك من التلصص على زوجتك إذا كانت خلية لأناس آخرين. وهناك من يروج نظارات شمسية، ويقول بصوت عال: النظارة بعشرة يوانات، كما يصيح بكلام مقفّى: النظارة تري من عل، وترى من جلي، ولا تخشى الشمس التي تفسد الحلي. بعض الأشخاص يشترون نظارات ويضعونها على عيونهم ويرفعون رؤوسهم، ويتطلعون باستمرار إلى شبح الفتاة الصغيرة فوق

قصر (بينغ فيي)، وترامى إلى مسامعي أنهم يقولون: رجل شرطي يطل برأسه من نافذة بالقرب من تلك الفتاة. كما سمعتهم يقولون إن الشرطة تقوم الآن بتهيئة ذهن الفتاة حتى لا تقبل على الانتحار. وبعد فترة وجيزة يصرخ هؤلاء الناس الذين يضعون على عيونهم النظارات الشمسية من ذوات العشرة يوانات، ويقولون: رجل الشرطة يمد يده، والفتاة تمد يدها أيضاً، لقد نجحت الشرطة في عملها المعنوي. وبعد ذلك، يدوي صوت منتظم من صرخة الخوف (آه)، ثم يتبعه هدوء وسكون، وفي الحال سمعت صوت ارتطام تلك الفتاة بأديم الأرض يدوي ويحدث هديراً.

كان المشهد الأخير للفتاة (ليومي) في ذلك العالم الذي عاشت فيه حيث يتدفق شلال الدم من ثغرها وأذنيها، وقوة الارتطام الهائلة مزقت بنطالها الكاوبوي.

تقول الفتاة المنتحرة: «ما زال اسمي (شيومي)، أين كنت آنذاك؟».

أومئ برأسي.

وتقول: «هناك أناس يقولون إن موتي يبث الخوف في نفوس الآخرين؟ ويقولون إن وجهي يفص بالدم».

ثم تسأل:

«أليس كذلك؟».

«من قال ذلك؟».

«شخص آت من الخلف».

لم أفه بحرف.

«هل أجعل الناس يشعرون بالخوف الشديد؟».

أطأطئ رأسي، وأقول:

«عندما رأيتك كنت وديعة ولطيفة جدا كأنك تغطين في نوم

عميق».

«هل رأيت الدم؟».

يصيبني التردد برهة، وأرغب عن الإشارة إلى تلك الدماء،

وأقول:

«رأيت بنطالك الكاوبوي يتمزق».

تصدر برفق شديد صوت آه، وتقول:

«لم يخبرني بذلك».

«من الذي لم يخبرك بذلك؟».

«ذاك الرجل الذي آتى من الخلف».

أهز رأسي.

تدمدم وتقول:

«تمزق بنطالي الكاوبوي».

ثم تسألني:

«ما شكل البنطال بعد تمزقه؟».

«إريا، إريا».

«ما شكل إريا إريا».

فكرت برهة، ثم أخبرتها:

«يشبه شرائط ممسحة».

تحني رأسها، وتحملق في بنطالها الذي أصبح عبارة عن

شرائط طويلة وعريضة، وبات يشبه البنطال الذي يرتديه الرجال.

تقول:

«أوجد شخص بديل لي البنطال».

«هذا البنطال لا يشبه بنطالك».

«آه، ليس عندي بنطال بمثل هذه المواصفات».

«يجب أن يكون هناك رجل صالح غير لك البنطال».

تطأطأ رأسها، وتساءلني: «كيف حضرت إلى هنا؟».

يجول بخاطري المشهد الأخير في مطعم (تاي جيا تساي)،

وأقول:

«بعد أن انتهيت من تناول سلطانية المعكرونة في المطعم، وعندما

كنت أطلع صحيفة وضعها أحد الزبائن على الطاولة نشب حريق

في المطبخ، وحدث انفجار، ولا أدري ماذا جرى هناك بعد ذلك؟».

توافق على كلامي، وتقول: «يخبرك بذلك رجل يأتي من

الخلف».

* * *

تقول: «في الواقع، لا أريد أن أرحل عن هذه الدنيا، كنت في

سورة غضب فقط».

أقول: «أعرف ذلك، عندما مد رجل الشرطة يده، أنت مددت

يدك أيضا».

«هل رأيت ذلك؟».

لم أر ذلك، ولكن شاهدت أناسا يضعون على عيونهم نظارة

بعشرة يوانات، ولا أزال أومئ برأسي تلميحا بأنني رأيت ذلك

بأم عيني.

«وقفت هناك ردحا طويلا، وهبت ريح عاتية وباردة جدا،

وربما تكلس جسدي، وأريد الاستمساك بيد رجل الشرطة بقوة،

وتزل قدماء كأنه يدوس على قطعة ثلج.. وجاء رجل من الخلف

يقول إن حديث الصحف عن حادث انتحاري لا ينتهي».

أقول: «حديث الصحف استمر ثلاثة أيام، ثلاثة أيام بالتأكيد». تقول: «ثلاثة أيام كثيرة جدا أيضا»، ثم تسألني: «كيف تناولت الصحف حادث انتحاري؟».

«ذكرت الصحف أن صديقك أهدى لك الهاتف الخليوي iPhone s4 مغشوشا، مما جعلك تنتحرين».

تقول بهدوء: «الموضوع ليس على هذا النحو، لقد خدعني وقال إن iPhone s4 حقيقي، وفي الواقع هو مغشوش حقا. ولم يقدم لي ثمة هدية، ولا يثير ذلك غضبي. إنه لا يستطيع أن يخدعني فعلا. إن الصحف تهرف بما لا تعرف، وماذا ذكرت أيضا؟».

«أضافت الصحف أن صديقك غشي مسقط رأسه لزيارة والده الذي سقط مريضا، بعد أن أهدى إليك iPhone s4 المغشوش». بعد أن تؤمئ برأسها، تقول: «هذه أخبار حقيقية، لا أريد الانتحار بسبب ذلك المنتج المغشوش».

«كما نقلت الصحف السجل اليومي الخاص بك في الفضاء الافتراضي كيو كيو (QQ)».

ترسل زفرة، وتقول: «كتبت له رسالة في الفضاء الافتراضي حتى يقرأها، وقد تعمدت أن أذكر فيها الانتحار حتى يرجع في التو ويقدم لي الاعتذار، وأنا أصفح عنه».

«ولكن أنت صعدت قمة بناية قصر (بينغ فيي)».

«إنه الديوث الجبان لم يظهر دائما، واضطرت أن أصعد أعلى تلك البناية، واعتقدت أنه يجب أن يظهر أمامي في ذلك الحين».

تتوقف هنيهة، وتسألني: «هل ذكرت الصحف أنه حزن حزنا شديدا بعد وفاتي أم لا؟».

أطأطأى رأسي، وأقول: «الصحف لم تذكر ثمة شيئاً عنه». تحديق في وجهي بارتياح، وتقول: «ذكرت الشرطة أنه رجع بسرعة. وأضافت أنه يبكي الآن أسفل تلك البناية، ومن ثم، مددت يدي وقبضت بإحكام على يد رجل الشرطة»، وبعد أن تردت أخبرها قائلاً: «إنه لم يرجع من مسقط رأسه. وفي الأيام الثلاثة التالية للحادث لم تذكر الصحف كلها أنه رجع آنذاك».

«الشرطة خدعتني أيضاً».

«الشرطة خدعتك من أجل إنقاذك».

تومئ برأسها برفق عدة مرات، وتقول: «لقد أدركت كل شيء يتعلق بالحادث».

تسألني: «ماذا كتبت عنه الصحف فيما بعد؟».

أقول: «لم تكتب شيئاً».

تقول في ألم وحزن: «يقوم دائماً بدور الديوث الجبان».

أقول: «ربما لا يعرف ذلك أبداً»، وأضيف: «وربما لم يقم بالاتصال بشبكة الإنترنت دائماً ولم يقرأ الرسالة التي كتبتها له في سجلك اليومي، كما أنه سافر إلى مسقط رأسه، ولا يستطيع أن يجد الصحف هناك أيضاً».

وتقول مرة أخرى: «وربما لا يعرف حادث انتحاري، لأنه لا يعرف بكل تأكيد».

أقول: «الآن يجب عليه أن يعرف ذلك الحادث».

* * *

أصطحبها ونسير على طريق طويل جداً، وتقول: «أشعر بالإرهاق، أريد أن أجلس على كرسي وأستريح».

الجهات الأربع المكشوفة تعتبر بمثابة حقيقة مترامية الأطراف مدركة غير محسوسة، ونستطيع أن نرى السماء والأرض فقط. ولم نر مشهد الأشجار، ولم نسمع خرير تدفق مياه النهر، ولم نسمع حفيف الأوراق في الريح، ولم نسمع قعقعة وقع الأقدام. أقول: «لا يوجد هنا كرسي».

تردف قائلة: «أريد أن أجلس على كرسي خشبي، لا أجلس على كرسي إسمنتي، أو كرسي حديدي».

أقول: «أنت تستطعين الجلوس على الكرسي الذي يحلو لك».

تقول: «لقد فكرت جيدا، وقررت وجلست، إنه مقعد خشبي طويل، وأنت تجلس أيضا».

أقول: «حسنا».

نمشي تارة، ونجلس تارة على المقعد الخشبي الطويل المفضل لديها. ونجلس على طرفي المقعد، ويبدو أنها تحمق في وجهي. وتخطبني قائلة: «أشعر بالتعب الشديد، أبغي أن أتكئ على كتفك.. لا، أنت لست هو، لا أستطيع أن أستند على كتفك».

أقول: «تستطعين أن تسندي جسدك على ظهر المقعد».

تميل بجسمها إلى الورا قليلا، وتقول: «أسنده على ظهر المقعد».

«أشعرين بالراحة؟»

«أشعر بالراحة قليلا».

نتقدم إلى الأمام في صمت مطبق كأننا نجلس على المقعد الخشبي الطويل ونأخذ قسطا من الراحة.

يبدو أننا جلسنا وقتا طويلا، وتأمل في أعماقها أن تنهض، وتقول: «هيا بنا نمشي».

وتبدو خطواتنا أسرع بعض الشيء عندما نتقدم إلى الأمام.
تقول في حزن وألم: «أبحث عنه دائماً، ولم أعر عليه. الآن
يتعين عليه أن يعرف حادث انتحاري، ولم يعد ديوثا وجباناً، إنه
يبحث عني بالتأكيد».

أقول: «أنتما كتب عليكم الفراق».
«هو هناك، وأنا هنا».

تحني رأسها، وتقول بهدوء: «حالنا على هذا النحو».
أقول: «هو يشعر بالحزن والألم الآن».

تقول: «هو حزين ويتألم حقاً، هو يحبني حباً جماً هكذا،
وهو الآن بالتأكيد يبحث عن قبري حتى يجعلني أشعر بالراحة
الأبدية».

تتكلم وتتهجد، ثم تردف قائلة: «ليس عنده نقود، وهو فقير
مثل ثلة من أصدقائه، وأين يذهب ويحصل على النقود لشراء
قبر لي؟».

أقول: «سوف يدبر هذا الأمر جيداً».

تقول: «أجل، إنه يرغب في القيام بعمل أي شيء من أجلي،
ويفكر في وسيلة للحصول على نقود بالتأكيد».

تعلو وجهها علائم سرورها ورضاها بأنها عثرت على
الذكريات الحلوة في عالم الممات ذلك.

تقول بصوت منخفض: «يقول إنني أجمل فتاة في العالم».
ثم تسألني: «هل أنا جميلة؟».

أقول بصدق وإخلاص: «جميلة جداً».

تبسم بعد أن شعرت بالبهجة والغبطة، ثم ما لبثت أمارات
القلق تعلو قسماً وجهها. وتقول: «يعتريني خوف شديد، الربيع

سيأتي حالا، والصيف أيضا، وجسدي يتعفن، وأصبح مجرد هيكل عظمي».

أقوم بمواساتها قائلا: «سيشتري لك قبرا حالا، ويمكن أن تتمتع بالراحة الأبدية قبل قدوم الربيع».

تطأ طئ رأسها، وتقول: «نعم، سوف يشتري بالتأكيد».

نمشي في الهدوء والسكون، والموت هو اسم ذلك الهدوء والسكون. لم نتجاذب أطراف الحديث مرة أخرى لأن ذاكرتنا تجمدت، ولم تعد تتحرك إلى الأمام. وهذا هو العالم الذي تتفصل فيه الذاكرة، عالم أرقش متعدد الألوان، كما أنه عالم الزيف والحقيقة أيضا. وأشعر بأن هذه المرأة، التي ترسم على وجهها تعابير الوحدة والعزلة، تسير بجواري في صمت مطبق، وأتهدتعجبا من أن ذاك العالم عالم الموت يجعل المرء عاطفيا ورقيق القلب جدا.

يبدو أننا مشينا إلى نهاية البرية، وتتسمر قدماها، وتخطبني قائلة: «لقد وصلنا».

أنظر بدهشة وذهول إلى عالم.. تتدفق فيه المياه، وينتشر العشب الأخضر في أصقاعه، والأشجار مزدهرة وناضرة، وتغص فروع الأشجار بالثمار ذات النوى، وأوراق الأشجار تشبه القلب، وعندما تهتز يشبه حفيفها دقات القلب. وشاهدت أناسا كثيرا، كما شاهدت بشرا كثيرا لم يبق منهم سوى الهيكل العظمي، بالإضافة إلى بعض البشر الذين مازالوا يحتفظون بجسم الإنسان، يذرعون المكان جيئة وذهابا.

وسألتها: «ما هذا المكان؟».

تقول: «هنا المكان الذي يموت فيه المرء ولا يجد دفانا».

* * *

يعيق تقدمنا نحو الأمام هيكلان عظيميان يجلسان على الأرض ويلعبان الشطرنج، ويشبهان الباب الذي يعيقنا عن المشي. ونقف أمامهما، الهيكلان العظيمان يتشاجران ويتبادلان الاتهامات بأن كل واحد منهما يحاول التراجع عن لعبته في الشطرنج، وصوت عراكهما عال رنان أكثر فأكثر مثل ألسنة اللهب تتصاعد عاليا كلما قفزت في الهواء.

الهيكل العظمي في الجانب الأيسر يتظاهر أنه يرمي قطع الشطرنج، ويقول: «لا أَلعب معك الشطرنج».

الهيكل العظمي في الجانب الأيمن يتظاهر برمي قطع الشطرنج أيضا، ويقول: «أنا لا أَلعب معك الشطرنج أيضا».

الفتاة (شومي) تنفوه بكلمات، وتقول: «لا تتعاركا، أنتما تحاولان التراجع عن لعبتكما في الشطرنج».

يكف الهيكلان العظيمان عن الشجار، ويرفعان رأسيهما، وبعد أن ينظرا إلى شومي، يفتحان تجويف فمهما، واعتقدت أن ذلك يجب أن يرسم الابتسامة على وجهيهما. وبعد ذلك، لفت انتباههما أن هناك شخصا بجوار شومي، ويلقيان عليّ نظرة فاحصة من أعلى إلى أسفل من تجويف عيونهما.

الهيكل العظمي في الجانب الأيسر يسأل شومي: «إنه صديقك، أليس كذلك؟».

الهيكل العظمي في الجانب الأيمن يسأل شومي: «صديقك طاعن في السن».

تقول شومي: «هو ليس صديقي، وليس عجوزا أيضا، إنه حضر هنا حديثا».

يقول الهيكل العظمي في الجانب الأيمن: «عرفت أنه حضر حديثا حيث ما زال بجسده به لحم».

الهيكل العظمي في الجانب الأيسر يسألني: «هل تبلغ من العمر خمسة وخمسين عاما ونيفا؟».

أجيب قائلا: «عمري واحد وأربعون عاما».

يقول الهيكل العظمي في الجانب الأيمن: «مستحيل، عمرك خمسون عاما على الأقل».

أقول: «عمري واحد وأربعون عاما حقا».

الهيكل العظمي في الجانب الأيسر يسأل نظيره في الجانب الأيمن: «هل يعرف قصتنا؟».

يقول الهيكل العظمي في الجانب الأيمن: «يجب أن يعرف قصتنا ما دام بلغ الواحد والأربعين عاما».

يسألني الهيكل العظمي في الجانب الأيسر: «أنت تعرف قصتنا؟».

«أي قصة؟».

«قصتنا هناك».

«توجد قصص كثيرة جدا هناك».

«قصتنا أشهر قصة بين تلك القصص هناك».

«ما قصتنا؟».

انتظرت حتى سردا قصتيهما، ولكن لم ينطقا بكلمة بعد ذلك، وبنهما كان في لعب الشطرنج. وأنا وشومبي نجتاز الطريق بينهما قفزا مثل اجتياز عتبة الباب بخطوات واسعة.

* * *

أسحب شومبي ونمضي قدما إلى الأمام، أمشي حيناً، وأتطلع حولي حيناً آخر، وشعرت بأن أوراق الأشجار كأنها تلوح لي، والأشجار تبتسم في وجهي، ومياه النهر ترسل إلي تحية.

بعض البشر من ذوي الهياكل العظمية تتطلق من ضفة النهر، وتتبشق من داخل طبقات عشبية، وتخرج من الغابة. وعندما يمشون أمامنا يطأطئون رؤوسهم قليلا، وعلى الرغم من أنهم مروا بجانبنا ولمسوا أكتافنا، بيد أنني ما زلت أشعر أنهم إخوة أحماء، وكان من بينهم بضعة أشخاص سجلوا أسئلتهم بصورة حميمة؟ وهناك شخص يسأل (شومبي) إذا رأت صديقا أم لا؟ وشخص آخر يسأل هل حضرت هنا توا؟ ويبدو أن أصواتهم تتجول أولا في كافة البقاع، ثم تتراعى إلى مسامعي بعد أن يبللها ماء النهر، وتجلب معها نضارة العشب الأخضر، وحفيف أوراق الأشجار.

كما سمعنا صوت شجار الهيكلين العظميين وهما يلعبان الشطرنج ويدوي مثل صوت فرقة السوط في الفضاء ويأتي من مكان ناء، وتسمع فقط صوت عراكهما يدوي بقوة في الفضاء الواسع.

وتخبرني (شومبي) أنهما عندما يلعبان الشطرنج تتسم تصرفاتهما بالوقاحة، حيث يلعبان الشطرنج تارة، ويحاولات التراجع عن ألعابهما في الشطرنج تارة أخرى، ثم ينشب بينهما الشجار، ويقولان إنهما يفترقان مرات عديدة تقدر بالآلاف، ويريدان حرق جسديهما، ويرغب كل منهما في الذهاب إلى قبره، وعلى كل حال عندما يتفوهان بتلك الكلمات، لم ينهض أحد منهما واقفا ولو مرة واحدة.

«هل لديهما قبر؟»

تقول شومبي: «يمتلك كل منهما قبراً».

«لماذا لم يذهبا إلى قبريهما؟»

كل ما تعرفه شومبي أنهما جاءا هنا منذ عشر سنوات وأكثر، أحدهما اسمه (تشينغ) في ذاك الجانب وهو رجل شرطة، ولا يحرق جسده، ولا يذهب إلى قبره، ينتظر أبويه هناك، وهما اللذان يبذلان جهودهما حتى يظفر ابنهما بلقب الشهيد. والرجل الآخر اسمه (لي) يرافقه، ولا يحرق جسده، ولا يذهب إلى قبر أيضا. ويقول (لي) إنه ينتظر حتى يتم التصديق على منح لقب شهيد لزميله (تشانغ)، وبعد ذلك، يرافق كل منهما الآخر وتربطهما الأواصر الحميمة والانسجام التام، ويفشيان غرفة حرق الجثث في مؤسسة الخدمات الجنائزية، وبعد عملية الحرق، يهرول كل منهما إلى مقر راحته الأبدية.

تقول شومبي: «سمعت أن أحدهما قتل الآخر».
أقول: «أعرف قصتيهما».

* * *

قبل عشر سنوات ونيف، حضر أبواي، اللذان أنحدر من صلبهما ودمهما، من المدينة شمال الصين بسرعة، وتعرفا على ملامحي، وبعد أن حققت قصة «ولادة طفل في القطار» نهاية مرضية، بدأت قصة أخرى. واضطلعت الشرطة في مدينتنا بحملة للقضاء على الأدب الإباحي أطلق عليها «حملة الرعد المفاجئ»، وألقت القبض على النسوة اللاتي يمارسن الرذيلة، وكان من بينهن رجل يدعى (لي) تنكر في زي لباس المرأة ويمارس الرذيلة من أجل المال.

ويشارك في «حملة الرعد المفاجئ» رجل شرطي شاب تخرج في مدرسة الشرطة توا، ويدعى (تشانغ فانغ) ويقوم باستجواب

(لي) الذي ألقى عليه القبض في مساء ذاك اليوم، ولا يزال مكابرا ولا يرغب في التوبة عن ممارسة الرذيلة والتظاهر الخفي بملابس النساء، بل إنه يتبه عجباً وزهوا بنفسه لأنه يتحلى بالمهارة في ممارسة الرذيلة، ويزعم أن مهارته تضاهي هؤلاء الزبائن الذين يغشون دار البغايا، ويقول: لا يوجد داعر يستطيع أن يكتشف أنه رجل إذا لم يقبض عليه البوليس. ويتهدد تحسرا على أنه كرس قوته ومهارته من أجل مجابتهم وليأخذ الحذر من الشرطة، وكانت عاقبة ذلك أن القارب انقلب في المجرور.

وكان تشانغ غانغ مفعما بالنشاط والقوة في ذلك الحين لأن ذلك كان أول استجواب يقوم به بعد أن غادر مدرسة الشرطة. والرجل (لي) المتكرر في زي فتاة ويمارس الرذيلة لا يحتفظ بحيوته ونشاطه فحسب، بل يبرز للعين مظهره بأنه تعلم العسكرية في مدرسة الشرطة أيضا، وجمرات الغضب تحرق تشانغ غانغ، وعندما يشبه (لي) الشرطة بأنها مجرور، لم يعد تشانغ يستطيع الاحتمال، ويرفع قدمه عاليا ويركل نصفه السفلي، ويمسكه (لي) بإحكام شديد، ويزعق ويصرخ، ويتدحرج على الأرض لأكثر من عشر دقائق، ثم ينخرط في نوبة بكاء شديدة من الألم.

يتعرض (لي) للاعتقال لمدة خمسة عشر يوما، وبعد أن يفك أسره من سجن الموقوفين يبدأ في الاحتجاج لمدة ثلاث سنوات. في البداية، يتحدى الرياح والأمطار ويظهر أمام بوابة مصلحة الأمن العام كل يوم، وترفع يده لافتة مكتوب عليها: «أعيدوا إليّ رجولتي»، وذلك حتى يثبت أن رمز رجولته ليستا ديكورا وزينة، بل هما حقيقة ماثلة وواقع قائم، ويمكن للمارة بلا كلل ولا ملل

معرفة كيفية حصوله على المال من ممارسة الدعارة، ويغشى دار البغايا مرة أخرى كالنومس.

يشير شخص ما إلى أن اللافتة مكتوبة بلغة سوقية ومبتذلة، يتقبل (لي) ذلك الانتقاد برحابة الصدر، ويصحح لغة اللافتة، ويشرح للمارة قائلا:

«إنها لغة ثقافتى».

احتجاج (لي) طويل الأمد سبب صراعا بلا نهاية لكل من رئيس مصلحة الأمن العام ونائبه، اللذين يريان (لي) يرفع اللافتة كل يوم ويقف أمام البوابة الكبرى، وبات ذلك مصدرا للإزعاج حقا، وبخاصة عندما قامت القيادة العليا بالتفتيش وتقصي الحقائق، وقدمت استجوابا لهما عن:

«ماهى رمز الرجولة في اللافتة خارج البوابة؟».

وبعد أن يعقد رئيس مصلحة الأمن العام ونائبه اجتماعا للتشاور، قررا نقل تشانغ غانغ من عمله في تلك المصلحة إلى نقطة بوليس محلي، وتبع ذلك نقل هذه المشكلة إلى نقطة البوليس نفسها أيضا. وبعد انقضاء عام، لا يكف مأمور تلك النقطة ونائبه عن الشكوى، ويهرولان إلى مصلحة الأمن العام أكثر من مرتين في الأسبوع ويقدمان هدايا إلى رئيس المصلحة ونائبه، كما يبتان لهما شكواهما، ويقولان إن نقطة البوليس قد عجزت عن أن تعمل بصورة طبيعية. رئيس المصلحة ونائبه يتفهمان هموم المرؤوسين، ويقرران نقل تشانغ غانغ من عمله إلى سجن الموقوفين، وكذلك نقل مشكلته إلى ذلك السجن أيضا. وبعد أن عانى مدير سجن الموقوفين ونائبه من الصراع لمدة عامين، يرفعان تقريراً إلى رئيس المصلحة ونائبه، ذكرا فيه أن مشكلته

الخاصة تحدث قلاقل طوال اليوم خارج سجن الموقوفين، وفقد القانون هيئته، ويشعر مدير السجن ونائبه بأنهما تحملا كثيرا من المعاناة طوال عامين، ويجب نقل هذه المشكلة إلى مكان آخر. يشعر رئيس المصلحة ونائبه بأن سجن الموقوفين ليس سهلا حقا، وأن مشكلة من هذه النوع يجب نقلها إلى مكان آخر فعلا. ولكن لا يوجد مدير سجن للموقوفين يرغب في قبول تشانغ غانغ يعمل لديه، ويقولون إن حضور تشانغ غانغ يتبعه بالضرورة مشكلته الخاصة برمز الذكورة.

تشانغ غانغ يدرك أن سجن الموقوفين يسعى إلى طرده، كما لا توجد نقطة بوليس ترغب في قبوله للعمل لديها، كما أنه لا يرغب في المكوث بسجن الموقوفين، وعرج على مصلحة الأمن العام لمقابلة رئيس المصلحة، وقدم طلبا من أجل أن يعود إلى عمله في المصلحة. رئيس المصلحة يصفي إلى كلام تشانغ غانغ، ويلتزم في ذهنه - أولا - عودة مشهد اللافتة أمام بوابة المصلحة والجلبة الناجمة عن ذلك. رئيس المصلحة يطرق رأسه ويمعن في الأمر، ويسأل تشانغ غانغ إذا كان يعتزم أن يغير عمله أم لا؟ ويسأل تشانغ غانغ أي عمله أبدله؟ ويقترح رئيس المصلحة أن يستقيل تشانغ غانغ من عمله، ويدير حانوتا صغيرا وخلافه. ويقول رئيس المصلحة إذا تخلص تشانغ غانغ من الشرطة، فربما مشكلة انعدام رمز ذكوريته لم تعد تطارده مرة أخرى. بيتسم تشانغ غانغ ابتسامة صفراء ويخبر رئيس المصلحة بأن أمامه خيارين، أولهما: قتل صاحب المشكلة، وثانيهما: أنه يقف أمام البوابة الكبرى لمصلحة الأمن العام، ويرفع لافتة عودته إلى العمل على غرار اللافتة السابقة. والدموع تخضب عينيه بعد

أن يفرغ من كلامه. يعرب رئيس المصلحة عن تعاطفه الشديد مع تشانغ غانغ من جراء المعاناة التي ألمت به، وبالإضافة إلى ذلك رئيس المصلحة يحال إلى التقاعد قريبا، وبعد إحالته إلى المعاش لا يعير اهتماما للقلق الناجمة عن تلك المشكلة أمام بوابة الأمن العام. ينهض رئيس المصلحة واقفا ويمشي إلى جوار تشانغ غانغ، ويريت على كتفه، ويقول:

«ارجع إلى عملك في المصلحة».

يعود تشانغ غانغ إلى عمله في مصلحة الأمن العام، ولم يكن في الحسابان - في هذه المرة - أن المشكلة السابقة لم تطارده هناك، وبعد انقضاء شهر من عودته إلى العمل في المصلحة، وعندما يراه الموظفون في الأقسام الأخرى مازالوا يعتقدون أنه ينجز بعض الأعمال في المصلحة، ولم يدر بخلدهم أنه عاد إلى عمله، ويسألونه عن تردده الدائم على المصلحة، وماذا جرى في سجن الموقوفين؟ ويخبرهم تشانغ غانغ بأنه عاد إلى عمله. والدهشة تلجم هؤلاء الموظفين ويقولون لماذا لم نر اللافتة مجدداً خارج البوابة الكبرى؟ كما يشعر رئيس المصلحة ونائبه بالدهشة أيضا، وعندما كانا يعقدان اجتماعا ذات مرة، نائب رئيس المصلحة لم يعد يستطيع الاحتمال، ويقول:

«ما حكاية تلك اللافتة أمام مدخل المصلحة؟».

وعلى الرغم من اختفاء هذه اللافتة، ولكن تشانغ غانغ ما زال مرتبكا حائرا إلى حد ما، وعندما يذهب إلى الدوام والانتهاه منه، لا ترتد عيناه عن النظر نحو مدخل المصلحة ليتأكد أن (لي) ليس موجودا، حتى يطمئن قلبه المعلق بين ضلوعه. وفي البداية، يخشى تشانغ غانغ من أن (لي) ربما أصابه مرض، وبعد

أن يشفى من مرضه يأتي إلى مدخل مصلحة الأمن العام ويثير الاضطرابات. وعلى كل حال، انقضت ثلاثة شهور، ونصف سنة أيضا، وأخيرا، لم تظهر اللافتة أبدا. وفي نهاية المطاف، يستريح تشانغ غانغ قليلا، ويشعر بأنه يستطيع أن يبدأ عمله وحياته بصورة طبيعية.

بعد انقضاء سنة وأكثر، وعندما أسدل الموظفون في مصلحة الأمن العام ستارة النسيان على اللافتة المشينة، يظهر (لي) أمام عيونهم. وفي هذه المرة لم يرفع لافتة «أعيدوا إليّ رجولتي»، بل يحمل على ظهره حقيبة سوداء وينطلق إلى الأمام، حرس المدخل في تلك المصلحة يرى هذا الشبح يمر بجانبهم وتلمس كتفه مركبة كبيرة تتطلق من الداخل، وينادي عليه عدة مرات، ويسأله ماذا يفعل هنا؟ ولم يدر رأسه. يقول:

«نتحدث عن العمل».

حرس المدخل ينادي: «تعال، وسجل اسمك».

ما كاد حرس المدخل ينتهي من كلامه حتى يندفع (لي) إلى مبنى مصلحة الأمن العام، ويجتاز الممر، ويسأل رجل شرطة هناك عن مكتب تشانغ غانغ، يقول الشرطي إن تشانغ غانغ في الدور الخامس غرفة رقم (503)، وبعد ذلك يشعر بأن (لي) مألوف لديه، ولم يتذكر اللافتة أمام مدخل تلك المصلحة التي يعرفها القاصي والداني منذ أربع سنوات. ولم يركب (لي) المصعد، بل يصعد السلم على امتداد المصعد، وذلك خشية أن يفتضح أمره في المصعد من قبل الآخرين، ويصعد إلى الدور الخامس، وعندما يدخل الغرفة رقم (503)، كان هناك أربعة من رجال الشرطة يجلسون في الداخل، ويتعرفون على تشانغ غانغ

من النظرة الأولى، ويفتح الحقيبة السوداء، ويتقدم إلى الأمام،
وينادي بصوت عال:
«تشانغ غانغ».

تشانغ غانغ يكتب على الطاولة، ويرفع رأسه، ويتعرف
على ملامح (لي)، وعندما ينظر إليه بعين الشك والارتياب،
يستل (لي) من الحقيبة السوداء سكيناً طويلاً ويقطع بها
رقبة تشانغ غانغ، ويتدفق الدم كالنافورة، ويمسك تشانغ
غانغ رقبته بيده بقوة، ويسند جسمه على الكرسي وهو
خائر القوى، ويئن في التو أنينا مؤلماً مرتين، وتخترق السكين
لبان صدره. في هذه الأثناء، يأتي رجال الشرطة الثلاثة
الآخرون للتعامل مع الحادث، ويندفعون مهرولين، وينزع
(لي) السكين من لبان صدر تشانغ غانغ ويلوح بها في وجه
هؤلاء الشرطة الذين يستطيعون الدفاع عن أنفسهم وحماية
حياتهم باستخدام أذرعهم، ويشاهدون حمام الدم المتدفق
من قطع الرقبة، ويلوذون بأذيال الفرار إلى الممر، ويصرخون
بصوت عال:

«أمسكوا القاتل، اقبضوا على القاتل...».

يعم الهرج والمرج الطابق الخامس في مصلحة الأمن العام،
وجسد (لي) ملطخ بالدم من رأسه إلى أخمص قدمه وهو يطعن
بالسكين رقبة تشانغ، (لي) يطعن بالسكين تارة، ويلهت تارة
أخرى. ويهرول إلى مكان الحادث رجال الشرطة في الطوابق
الأخرى، ويلوح عشرون شرطياً ونيفا بالهراوات الكهربائية حتى
تمكنوا من كبح جماح (لي) الذي يسند جسمه على الحائط
بلا حول ولا قوة.

يودع تشانغ غانغ دنيانا في سيارة الإسعاف التي نقلته إلى المستشفى، أما القاتل (لي) فقد حكم عليه بالإعدام بعد مرور نصف سنة.

قضية القاتل أحدثت جلبة في مدينتنا، ودارت مناقشات مشوشة ومتعددة بين قاطنيها الذين ذكروا أن رجال الشرطة هؤلاء يستعرضون عضلاتهم في المدينة، وهم في الواقع نفايات، ورجل بلا رجولة استطاع بسهولة مثل شرب الماء أن يقتل شرطيا بقطع رقبتة، ناهيك عن إصابته تسعة من رجال الشرطة أيضا، من بينهم شرطيان إصابتهما بالغة. وإذا استبدلناهم بثلة من الرجال الأسوياء يحولون مصلحة الأمن العام إلى ميدان تتناثر فيه الأشلاء. ورجال الشرطة في تلك المصلحة لم يذكروا بصورة كاملة ما دار في المناقشات، وقالوا إنهم لم يعرفوا أن (لي) حضر إلى المصلحة بغرض القتل، وإلا لألقوا عليه القبض في الحال. وهناك شرطي يخبر نفرا من أصدقائه بأن الذين يحملون حقائق سوداء على ظهورهم في العادة، ويحضرون إلى المصلحة يكون ذلك بغرض إرسال هدايا، ولم يخطر على بال أحد أن ذلك الشخص (لي) لم يستل هدية من حقيبتة، بل سكين قتل.

ولأكثر من عشر سنوات فيما بعد، يبذل أبوا تشانغ غانغ جهودا مضنية دائما من أجل أن يظفر ابنهما بلقب الشهيد.

مصلحة الأمن العام - بادئ ذي بدء - لم توافق، والسبب في ذلك أنه عندما مات ابنهما لم يكن على رأس العمل. وأبواه يسيران على درب طويل جدا من الشكوى، ففي البداية يذهبان إلى مكتب الأمن العام في المقاطعة، وبعد ذلك، يعرجان على وزارة الأمن العام في بكين، ومكتب الأمن العام في مدينتهما

يشعر بصداع شديد لا ينتهي من جراء شكواهما، وأثناء انعقاد مؤتمرين في بكين في غضون عام واحد، يقفان في ميدان تيان آنمين (السلام السماوي) في بكين ويرفعان لافتة يطلبان فيها الاعتراف بابنهما الشهيد، مما جعل الجهات المعنية في بكين تتفجر غضبا، ووجهت انتقادات لاذعة للجهات المعنية في المقاطعة والمدينة، ويضطر مكتب الأمن العام في المدينة لأن يرفع تقريراً إلى القيادة العليا يطلب فيه الاعتراف بالشهيد تشانغ غانغ. ومكتب الأمن العام في المقاطعة يرفع تقريراً إلى بكين التي لا ترد خطياً أبداً. ولا يزال الأبوان يصران على الشكوى بصورة مستمرة، ولا سيما أثناء انعقاد مؤتمرين في بكين، ناهيك عن انعقاد مؤتمر ممثلي نواب الشعب، ويقضان في القطار المتجه إلى الشمال، ولكن يتم إيقافهما في كل مرة في منتصف الطريق، ثم حبسهما في فندقين مختلفين حتى ينتهي انعقاد المؤتمرات في بكين، وبعد ذلك يتم إطلاق سراحهما. وقصة شكوى الأبوين وكفاحهما من أجل أن يحصل ابنهما على لقب شهيد انتشرت على شبكة الإنترنت، وبعد ذلك، لم تعد ترسل المدينة أشخاصاً يوقفون الأبوين وحبسهما. وفي عبارة أخرى، إنها غيرت أسلوبها، حيث ترسل أشخاصاً يصطحبوهما في السياحة بين الجبال والأنهار والمناظر الطبيعية الخلابة، ويستطيعان التمتع والمرح حتى يتمكن القادة من الاستمتاع بالأموال العامة في السياحة. وبعد أن يشهد الأبوان طريقاً طويلاً من الشكوى دون التوصل إلى نتيجة يتحول بأسهما إلى حالة من اللهو والتسلية، ويقدمان شكواهما إلى مسؤولي المدينة قبل الفترة الحاسمة لانعقاد المؤتمرات، ويبدیان رغبتهما في القيام بجولة سياحية

في المناطق ذات المناظر الشهيرة، والتي لم تطأها أقدامهما. الجهات المعنية في المدينة تضج بالشكوى بسبب ذلك، وتقول إنها أنفقت أكثر من مليون يوان صيني تقريبا على الرحلات السياحية للأبوين في غضون عشر سنوات ونيف.

اليوم الخامس

والدي الذي أبحث عنه موجود هنا؛ في وسط جماعة من الهياكل العظمية. وينتابني شعور مدهش حيث إنه على الرغم من أن آثاره هنا تظهر وتختفي مثل صوت الأوز البري، ولكن مشاعري كانت مثل الشعر الذي تداعبه النسائم، وأدركت حتى لو كان والدي يقف في المقدمة، فأنا لا أعرف على ملامحه، ولكنه يستطيع أن يتعرف عليّ من النظرة الأولى. وقابلت هياكلهم العظمية التي تمشي في جماعة حيناً، وفي تسعة أفراد حيناً آخر، وأقف أمامهم وأقدم عرضاً لنفسِي، وأتطلع بشغف لأن ينبثق من بينهم صوت ينادي اسمي: «يانغ فيي؟».

وأدرك أن هذا الصوت سيكون غريباً على غرار صوت زوجتي لي تشينغ على هذا النحو. وعلى كل حال، أستطيع أن أميز صوت والدي من بين كل الأصوات، ويتحلى صوت والدي دائماً بالحنو والود في عالم هذه الدنيا، ويجب أن يكون هذا في عالم الآخرة أيضاً.

أتجول في كافة الأصقاع ولم أجد شبح قبر، وهذه الأشباح التي تعجز عن الوصول إلى أرض الراحة الأبدية تنتقل من مكان إلى آخر كأنها أشجار متحركة، أشجار متاثرة ومبعثرة

طوراً، وأشجار مجتمعة محتشدة تارة أخرى كأنها أحراج، ونمشي بين صفوفهم كأننا نمشي في غابة قطعت أشجارها. وأتطلع إلى سماع صوت والدي في الأمام، في الخلف، في الجانب الأيسر، في الجانب الأيمن، أتطلع لأن يهتف والدي وينادي اسمي.

أقابل - بين حين وحين - أناساً يضعون على أذرعهم شرائط قماشية سوداء، وتبدو الأكمام التي تغطيها تلك الشرائط خاوية على عروشها، وعرفت أنهم جاؤوا هنا منذ ربح طويل، وأكمامهم خاوية من اللحم، ولم يظهر منها سوى الهيكل العظمي. أبادل معهم النظرات والضحكات، ولا ترسم الابتسامات على وجوههم، بل تتطلق من تجويف عيونهم لأن وجوههم طالحة متجهة من الهيكل العظمي مثل الحجر الصلب، بيد أنني شعرت بتلك الضحكات النابعة من القلب لأننا جميعاً بشر، وفي العالم الآخر لا يوجد إنسان يضع شريطاً قماشياً أسود على ذراعه من أجلنا، ونحن بأنفسنا ننعى أنفسنا.

هناك شخص يضع شريطاً قماشياً أسود على ذراعه ويلفت انتباهه تعابير البحث عن والدي في عيوني، ويقف أمامي، وأرى ملامح هيكله العظمي، ويوجد تجويف صغير جداً في جبهته، ويصدر صوتاً ودياً.

ويسألني: «أأنت تبحث عن إنسان؟» ويردف: «أنت تبحث عن شخص واحد، أم تبحث عن بضعة أفراد؟».

أجيب: «أبحث عن رجل واحد، أبحث عن والدي ربما يكون موجوداً هنا».

«أأنت تبحث عن والدك؟».

«اسمه يانغ جين بياو».

«اسمه هنا غير ذي جدوى».

«يبلغ من العمر ستين عاما ونيفا...».

«أعمار البشر هنا لا يمكن أن تعرفها».

أرى الهياكل العظمية التي تمشي وتتحرك في الأماكن القريبة والنائية لا يمكن أن نقدر أعمارهم حقاً.

تستطيع عيني أن تميز فقط بين البشر من ذوي القامات العالية والقصيرة، والضعف والنحيف، وتستطيع أذني أن تميز فقط بين أصوات الرجال والسيدات، والعجائز والصغار.

وتذكرت أن والدي في الآونة الأخيرة كان ضعيف البنية وسقيم الجسم، وأقول: «قامته تبلغ متراً وسبعين سنتيمتراً، وشكله نحيف جداً...».

«البشر هنا أجسادهم واهنة ونحيفة جداً».

أرى هؤلاء البشر النحيلين الذين لا يمتلكون سوى الهيكل العظمي، ولا أعرف كيف أصف ملامح والدي! ويسألني: «أتذكر الملابس التي كان يرتديها والدك عندما جاء هنا؟».

أخبره قائلاً: «البزة النظامية للسكة الحديدية، البزة النظامية الجديدة للسكة الحديدية».

«كم من الوقت مضى على حضورك؟».

«عام ونيف».

«رأيت بزة أخرى، ولم أر البزة النظامية للسكة الحديدية».

«ربما هناك أناس آخرون رأوا البزة النظامية للسكة الحديدية».

«أنا هنا منذ فترة طويلة جداً، ولم أر تلك البزة، وكذلك الآخرون».

«ربما يكون بدّل ملابسه».

«قلة قليلة التي تبدل ملابسها وتأتي هنا».

«أشعر أنه موجود هنا».

«إذا لم تعثر عليه، فمن المحتمل أنه ذهب إلى القبر».

«ليس عنده قبر».

«لا يمتلك قبراً، ولا بد أنه ما زال هنا».

في تجوالي وتطوافي بحثاً عن والدي، أمشي إلى أمام تينك الهيكلين العظميين بلا شعور، وهما يجلسان الأريعاء على العشب مثل تمثالين يركزان انتباههما على هذا النحو، وما زال جسدهما على حالهما، غير أن أيديهما تتحركان وتضطلعان بنقل قطع الشطرنج بصورة مستمرة. لم أر رقعة الشطرنج، ولم أر قطعة الشطرنج أيضاً. ولكن رأيت فقط أيديهما التي هي عبارة عن هيكل عظمي تلعبان الشطرنج، ولم أدرك -من خلال مشاهدتي- إذا ما كانا يلعبان الشطرنج أم يلعبان ويتشي⁽¹⁾.

هناك يد ذات هيكل عظمي تضع قطعة الشطرنج تواء، وتأخذها أيضاً في الحال، ويمسكها بإحكام شديد يدان أخريان هيكلهما عظمي أيضاً. ويصبح صاحبا هاتين اليدين، ويقولان: «لا يمكن القيام بمحاولة التراجع عن لعبة في الشطرنج».

كما يصرخ صاحب اليد ذات الهيكل العظمي أيضاً ويقول: «أنت تحاول التراجع عن لعبة في الشطرنج أيضاً».

(1) نوع من الشطرنج الصيني. [المترجم]

«أنا تراجع عن اللعبة لأنك فعلت ذلك من قبل».

«أنا تراجع عن اللعبة من قبل لأنك فعلت ذلك من قبل كثيراً».

«أنا تراجع عن اللعبة قبلك منذ زمن لأنك فعلت ذلك أمس».

«وأنت - أولاً- تراجع عن اللعبة أمس، ثم أنا تراجع عن اللعبة بعدك».

«وأنت تراجع عن لعبتك أولاً في أمس الأول».

«ومن تراجع أولاً عن اللعبة قبل أمس الأول؟».

يتعارك هذان الشخصين بلا توقف، ويتبادلان الاتهامات بمحاولة كل طرف التراجع عن اللعبة في الشطرنج، ويتقصيان أسباب تلك الاتهامات، ويستهن كل طرف طريقة حساب الزمن في محاولة التراجع عن اللعبة في الشطرنج، وبدأت من عدد الأيام إلى عدد الشهور، ومن عدد الشهور إلى السنة.

يصرخ صاحبا اليمين من الهيكل العظمي: «هذه الطريقة في لعب الشطرنج لا يمكن أن تجعلك تتراجع عن اللعبة، وأنا كنت على وشك الفوز حالاً».

يقول أحدهما: «وأنا كنت على وشك التراجع عن اللعبة أيضاً».

«أنا لا أعب معك الشطرنج».

«وأنا لا أعب معك الشطرنج أيضاً».

«وأنا لا أعب معك الشطرنج إلى الأبد».

«وأنا من زمن بعيد لا أحب أن أعب معك الشطرنج».

«وأنا أخبرك بأنني أريد الانصراف، وأغشى المحرقة غداً، ثم أذهب إلى قبري».

«أعتزم الذهاب إلى المحرقة منذ زمن بعيد، وأرغب في الذهاب إلى القبر منذ زمن بعيد أيضاً».

أقطع شجارهما، وأقول: «أعرف قصتكما».

يقول أحدهما: «جميع البشر هنا يعرفون قصتنا».

يصحح الصاحب الآخر أقوال زميله، ويقول: «ربما الذين حضروا حديثاً لا يعرفون قصتنا».

«قصتنا اختلط فيها الحابل بالنابل في الشوارع الرئيسية بسبب أن هؤلاء القادمين حديثاً لا يعرفوننا».

«قصتنا معلومة للجميع وتستخدم لغة ثقافتنا».

أقول: «كما أعرف أيضاً العواطف الودية بينكما».

«أي عواطف ودية وصداقة؟».

ينخرطان في نوبة ضحك صاخبة.

سأل أحدهما الآخر: «ما العواطف الودية؟».

يجيب الآخر: «لا أعرف».

يرفعان رأسيهما وهما ينهمكان في الضحك، ويحملقان في وجهي من تجويف عيونهما، وسألني أحدهما: «أأنت حضرت هنا حديثاً؟».

لم أقدم إجابة، وبيادرني الآخر، ويقول: «إنها تلك الروابط الجميلة».

يحني الهيكلان العظيمان رأسيهما، ويستمران في لعب الشطرنج وهما يضحكان ويحدثان جلبة وضوضاء كأن لم يحدث بينهما عراك توا، ولم يحاول أي منهما التراجع عن لعبته في الشطرنج في الحال.

يلعبان الشطرنج فترة وجيزة، ويرفع أحدهما رأسه ويسألني: «أأنت تعرف اسم الشطرنج الذي نلعبه؟».

أحملك في حركات أيديهما في لعب الشطرنج، وأقول: «الشطرنج الصيني».

«خطأ، شطرنج ويتشي».

ثم يسألني الآخر: «أأنت تعرف اسم الشطرنج الذي نلعبه الآن؟».

أقول: «طبعاً، إنه شطرنج ويتشي».

«خطأ، نحن نلعب الشطرنج الصيني».

ثم يسألني الهيكلان العظميان في آن واحد: «ما اسم الشطرنج الذي نلعبه الآن؟».

أقول: «ليس شطرنج ويتشي، إذن، يكون الشطرنج الصيني بالتأكيد».

يقولان: «خطأ أيضاً، نلعب الشطرنج الخماسي».

يضحك الهيكلان العظميان من قلبيهما، ويضطلعان بحركات متشابهة تماماً؛ حيث يمسك كل منهما بطنه بيده بإحكام، واليد الأخرى يضعها كل منهما بجوار كتف زميله. الهيكلان العظميان يهتزان بصورة مستمرة من قوة الضحكات مثل شجرتين جافتين يابستين تتقاطعان وتهتزان في خضم الريح.

ينهمك الهيكلان العظميان في لعب الشطرنج بعد نوبة الضحك والقهقهة، ولم يمض وقت طويل وما لبثت المشاحنات أن ظهرت بينهما بسبب محاولة التراجع عن لعبة الشطرنج، وشعرت أنهما يلعبان الشطرنج من أجل العراك والشجار، إنهما تاريخ تبادل الاتهامات في محاولات التراجع عن الألعاب في الشطرنج، وتكمن سعادتهما القصوى في إمطة اللثام عن مساوئ الآخر في التراجع عن لعبة في الشطرنج، ويتبادلان

الاتهامات منذ سبع سنوات خلت، وقد عيل صبري، وأدركت أنني سوف أنتظرهما سبعة أعوام أو ثمانية في هذا العراق، ولذا قاطعتهما قائلاً:

«أنتما الاثنان: من منكما يدعى (تشانغ غانغ)؟ ومن يدعى (لي)؟»، وترددت قليلاً، وشعرت بأنه ليس من المناسب أن أقول (الرجل لي) كما ذكرت الصحف وقتئذ، ثم أقول: «من المستر (لي)؟».

«من المستر (لي)؟».

بعد أن يتبادلا النظرات، ينخرطان في نوبة قهقهة وضحك. ثم يقولان: «أنت تخمن من (لي)؟». أفرس في وجهيهما بدقة، وهيكلهما العظميان متشابهان تماماً، وأقول: «لا أستطيع التخمين، أنتما تشبهان التوأمين». «توأمان؟».

ينهمك الهيكلان العظميان في نوبة قهقهة مرة أخرى، ثم يستأنفان لعب الشطرنج في انسجام تام، وتبددت كالدخان المشاحنات التي نشبت بينهما كالعاصفة الرعدية توا والتي قاطعتها، ثم يعودان إلى ألاعيبهما القديمة، ويسألني: «أنت تعرف الشطرنج الذي نلعبه؟».

أقول في نفس واحد: «الشطرنج الصيني، شطرنج ويتشي، الشطرنج الخماسي».

يقولان: «خطأ، نحن نلعب لعبة الداما الصينية⁽¹⁾».

ينخرطان في نوبة ضحكات عالية مرة أخرى، وأنظر إليهما مرة أخرى، وأجدهما يقومان بالحركات نفسها حيث يمسك كل

(1) رقعة شطرنج من حجر الداما. [المترجم]

منهما بطنه بيده بقوة، ويضع كل منهما يده الأخرى بجوار كتف زميله، ويهتز الهيكلان العظميان بإيقاع منتظم.

وانخرط في الضحك أيضاً، ومنذ عشر سنوات خلت، حضرا إلى هنا وتفصل بينهما نصف سنة، والعداوة بينهما لا تتجاوز الخط الفاصل بين الحياة والموت، إنها العداوة التي تعرضت للإعاقة في عالم هذه الدنيا.

* * *

أدور في حلقة مفرغة من جهودي الرامية إلى البحث عن والدي، ويشبه ذلك عقارب الساعة التي تدور دورة تلو الأخرى ولا تتجاوز نطاق الساعة البتة. وأنا أيضاً لا أعثر على والدي أبداً. قابلت ثللاً من البشر من ذوي الهياكل العظمية مرات عديدة، وهناك العشرات الذين لا يشبهون الهياكل العظمية، يجتمعون ويتكلمون حيناً، ويتفرقون ويتبعثرون أحياناً أخرى، ويمشون في دائرة مستديرة في نهاية المطاف. وذلك مثل الماء فوق سطح القمر، وأياً كانت حركة المد والجزر بين الأمواج، فإن القمر - دائماً وأبداً - يتهادى وكروي الشكل.

تسمرت أقدامي عندما قابلتهم في المرة الرابعة، كما تسمرت أقدامهم أيضاً، وتبادل النظرات الفاحصة المتأملّة، وتعانق أياديهم وتلاحم أجسادهم، ويتجمعون سوياً مثل شجرة ضخمة ناضرة، وفروعها متباينة تتفاوت في الارتفاع والانخفاض. وأدرك أنه يوجد بينهم رجال ونساء، وعجائز وأطفال، وأبتسم في وجوههم، وأخاطبهم قائلاً:

«أهلاً بكم!»

«أهلاً بك!»

سمعتهم يجيبون بصوت واحد، وهناك أصوات للرجال والنساء، وأصوات هرمة، وأصوات غضة، كما شاهدت بوادر الضحك تنبثق من داخل تجويف عيونهم.

وسألتهم: «كم عددكم؟».

ما زالوا يجيبون بصوت واحد: «ثمانية وثلاثون فرداً».

وأواصل أسئلتي: «لماذا أنتم مترافقون معاً دائماً؟».

يجيب صوت رجل: «حضرنا هنا معاً».

صوت نسوي يكمل الكلام: «نحن أسرة واحدة».

ينبثق من بينهم صوت طفل، ويقول: «لماذا أنت بمفردك هنا؟».

أحني رأسي وأرنبو إلى الشريط القماشي الأسود على ذراعي، وأقول: «لست وحيداً هنا، أنا أبحث عن والدي الذي يرتدي البزة النظامية للسكة الحديدية».

كما ينبثق صوت من بين جماعة من الهياكل العظمية أمامي، ويقول: «لم نر رجلاً يرتدي البزة النظامية للسكة الحديدية».

أقول: «ربما بدل ملابسه وجاء إلى هنا».

كما يدوي صوت عذب لطفلة، وتقول: «بابا، هل هو حضر حديثاً؟».

تقول أصوات الرجال: «نعم».

تستمر الطفلة في التساؤل، وتقول: «ماما، هل هو حضر حديثاً؟».

تقول أصوات النساء: «أجل».

أسأل الطفلة: «هل هم جميعاً آباء وأمهات؟».

تجيب الطفلة: «نعم، في الماضي كان عندي أب وأم، والآن عندي الكثير من الآباء، والعديد من الأمهات».

وسألني الطفل توا: «لماذا حضرت إلى هنا؟».

أجيب: «بسبب كارثة حريق».

يسأل الطفل الهياكل العظمية بجواره: «لماذا لم تحرقه النار؟».

أشعر بأنهم يحملون في صمت تام، وأقدم شرحاً لذلك،

وأقول: «عندما رأيت اندلاع النار، وسمعت صوت الانفجار

يدوي، يبدو أن المباني السكنية انهارت».

تسأل الطفلة: «أأنت لقيت حتفك تحت الأنقاض؟».

«ربما».

يقول طفل: «وجهك تحرك من مكانه».

«أجل».

تسألني الطفلة: «هل نحن جميلون؟».

أشعر بالارتباك وأحرق في الهياكل العظمية الواقفة أمامي

وعندها ثمانية وثلاثون هيكلاً عظمية، ولا أعرف كيفية الإجابة

على سؤال الطفلة الواضح.

تقول الطفلة: «يقول البشر هنا إننا نزداد جمالاً أكثر فأكثر».

يقول الطفل: «نعم نزداد جمالاً هكذا، ويقولون إن البشر

الذين يأتون هنا يزدادون قبحاً يوماً بعد يوم، غير أننا نزداد

جمالاً أكثر فأكثر».

أتردد هنيهة، وأستطيع فقط أن أقول: «لا أعرف».

صوت عجوز يدوي بين صفوفهم، ويقول: «لقد احترقت

أجسادنا في كارثة الحريق، والذين جاؤوا هنا يشبهون ثمانية

وثلاثين عموداً من الفحم، ثم تساقطوا قطعة قطعة بعد حرقهم،

وبدوا للعيان في منظرهم الحالي. ولذا البشر هنا يتقوهون بمثل

تلك الكلمات».

يشرح ذلك العجوز لي معاناتهم، ويسمع السبعة والثلاثون الآخرون إلى حديثه في صمت مطبق. وأنا أعرف أصلهم وفصلهم، وفي ذاك اليوم الذي انصرف فيه والذي بلا استئذان، اندلعت النيران بصورة فجائية في متجر ضخم يقع على بعد أقل من كيلو متر من الحانوت الصغير الذي كنت أملكه، وتحول لون ذلك المتجر من اللون الفضي الرمادي إلى اللون الأسود الفاحم مثل الفحم النباتي. وذكرت الإدارة البلدية أن ضحايا الحريق سبعة أشخاص، والجرحى بلغ عددهم واحداً وعشرين مصاباً، من بينهم اثنان إصابتهما بالغة. ويذكر أناس على شبكة الإنترنت أن عدد الضحايا تجاوز الخمسين، بينما يرى آخرون أن العدد تجاوز المئة. أرنو إلى الهياكل العظمية الواقعة أمامي وعددهم ثمانية وثلاثون، وقد حسمو من أعداد الضحايا، ولكن أين أقاربهم؟ أقول: «لماذا اختفى أقرباؤكم أيضاً؟».

يجيب الرجل العجوز: «تعرضوا للتهديد، وحصلوا على أموال مقابل تكميم أفواههم، ولقد رحلوا عن الدنيا، ولم يبق هناك إلا الأقارب الأحياء يستطيعون أن يعيشوا حياة هادئة ومطمئنة، ولذا نشعر بالرضا».

«أين الأطفال؟ وآباؤهم وأمهاتهم...».

يقاطع العجوز كلامي ويقول: «الآن نحن آباء وأمهات لهؤلاء الأطفال».

وبعد ذلك يمرون أمامي في صمت مطبق، وأجسامهم متلاصقة ومتلاحمة، وأيديهم يسحب بعضها بعضاً، ويسيرون في دائرة مستديرة، ولا تستطيع ريح عاتية أن تفرق شملهم.

* * *

أشاهد شخصين جسداهما في حالة سليمة، ويخرجان من غابة أشجار التوت ذات الأغصان المتشابكة والظلال الوارفة في ذاك الجانب. إنهما رجل وامرأة في لباسيهما ومداسيهما البسيط، ولا شيء يستحق الذكر على جسديهما سوى قطعة قماش ليست بملابس، بل هي غطاء للجسد. وعندما يقتربان أرى بجلاء امرأة ترتدي سروالاً نسوياً تحتانياً قصيراً أسود، وصدارة، أما الرجل فيرتدي بنطالاً قصيراً أزرق. ترتسم على وجه المرأة أمارات الرعب والخوف، وتجمع شتات قوتها وتمشي، وتضع يديها على فخذيها كغطاء لهما. والرجل يحني ظهره ويسحبها على طول الطريق ويقوم على حمايتها.

يمشيان ويصلان أمامي، ويتفرسان معالم وجهي وكأن نظراتهما تبحث عن معالم مألوفة في ذاكرتهما. ورأيت علائم اليأس تعلو وجهيهما رويدا رويدا، ويؤكدان أنهما لا يعرفانني. يسألني الرجل: «أأنت حضرت حديثاً؟».

أومئ برأسي وأسألهما: «هل أنتما حضرتما حديثاً، وهل أنتما زوجان؟».

يطأطئان رأسيهما في آن واحد، وتصدر المرأة صوتاً يثير الشفقة والعطف، وتقول: «هل شاهدت ابنتنا في ذاك الجانب؟». أهز رأسي، وأقول: «هناك أمواج من البشر، ولا أعرف ابنتكما».

المرأة تنكس رأسها في حزن وألم، والرجل يربت على كتفها ويواسيها قائلاً: «لا يزال هناك أناس حضروا حديثاً».

المرأة تكرر ما ذكرته توأ: «ولكن هناك أمواج من البشر في ذاك الجانب».

يردف الرجل قائلاً: «دائماً يكون هناك من حضر حديثاً ورأى ابنتك شياو ميبى».

«شياو ميبى؟» أشعر بأنني سمعت هذا الاسم من قبل. وأسألهما: «متى حضرتما إلى هنا؟».

رهبة خوف رفت على وجهيهما، وبعد ذلك بمثابة ظللها تسلل إلى هنا بعد أن اجتاز عالم هذه الدنيا. وعيونهما تتحاشى نظراتي، وربما الدموع تخفي نظراتي.

بعد ذلك، يشرح الرجل قصة تلك المعاناة المخيفة، ويقول إنهما يقطنان في طريق (شينغ فه)، وتعتزم الإدارة البلدية إزالة تلك المباني السكنية الثلاثة، ويرفض قاطنوها قرار الإزالة والانتقال إلى مسكن آخر، ويتحدون الإزالة والانتقال لمدة ثلاثة شهور وأكثر، وفي ذاك الصباح المخيف شهد حملة التنفيذ القسري لقرار الإزالة. وهما زوجان (زوج وزوجة) بعد أن انتهاء من الدوام الليلي، يعودان أدراجهما إلى بيتهما في الصباح الباكر، ويوقظان ابنتهما، ويجهزان لها طعام الإفطار، وتحمل الحقيبة المدرسية وتغشى المدرسة، وهما يغطان في نوم عميق. وسمعا في نومهما صوتاً تحذيراً من مكبر الصوت في الخارج، وهما يشعران بالإرهاق والتعب، وظلا في نومهما العميق، وقبل ذلك، كانا سمعا صوتاً تحذيراً من مكبر الصوت، وشاهدا وضعية الجرافة على أتم الاستعداد، وعلى كل حال، بعد أن حدثت مجابهة مع قاطني المباني، يتراجع صوت المكبر وتتصرف الجرافة، ومن ثم دار بخلد هما أن مكبر الصوت والجرافة يهدفان تخويفهما، ويواصلان انهماكهما في النوم العميق. واستمرت هذه الحال، حتى دوى صوت عنيف من جراء

اهتزاز المباني السكنية، واستيقظا من نومهما مذعورين، وهما يقطنان في الطابق الأول، ويقفز الزوج من الفراش ويجر زوجته ويتجهان نحو الباب ويهربان، الزوج يفتح باب الغرفة، والزوجة تدير جسمها فجأة وتهوّل إلى الأريكة وتأخذ ملابسها، والزوج يعود مسرعاً إليها ويجرها إلى الخارج، وتحدث المباني السكنية هديراً وتهار.

الزوج الذي يسرد القصة صوته يتوقف بصورة فجائية عند هذا الحد، ويدوي صوت انتحاب وبكاء الزوجة.
«أسفاً ومعدرة، أنا آسفة...».

«لا تنفوهي بمثل تلك الكلمات».

«يجب عليّ ألا آخذ ملابسي...».

«فات الأوان، لا تأخذي ملابسك، فالوقت لا يتسع أيضاً».

«إذا لم آخذ ملابسني فأنت لا تعود إليّ مهرولاً، وتستطيع الفرار إلى الخارج».

«ألوذ بأذيال الفرار في الخارج، وماذا أنت تفعلين؟».

«أنت تلوذ بالفرار إلى الخارج، فإن والد شياو مبي ما زال على قيد الحياة».

عرفت من ابنتهما، إنها الطفلة التي ترتدي معطفاً أحمر محشواً بريش الطير وتجلس في ركام خرابة الخرسانة المسلحة، وتؤدي واجباتها المدرسية في الرياح الباردة، وتنتظر عودة أبويها. وأخبر الزوج والزوجة قائلاً: «لقد رأيت ابنتكما، واسمها جينغ شياو مبي».

يصيحان في آن واحد، ويقولان: «نعم، اسمها جينغ شياو مبي».

أقول: «وهي تدرس في الفرقة الرابعة بالمدرسة الابتدائية». يقولان: «أجل»، ثم يسألان في عجالة: «كيف عرفتها؟». أخطب الزوج قائلاً: «كانت بيننا مكالمات هاتفية، وأنا المعلم الذي كان يقوم بالتدريس المنزلي لابنتك». «أنت المعلم يانغ؟».

«نعم، أنا يانغ فيي». الزوج يخاطب زوجته: «إنه المعلم يانغ، وقلت له إن دخلنا ليس كثيراً، وهو وافق في الحال أن يقوم بالتدريس مقابل ثلاثين يواناً فقط لكل ساعة». تقول الزوجة: «أشكر».

أسمع هنا صوت الامتحان والشكر وأضحك ضحكة صفراء. يسألني الزوج: «وأنت كيف حضرت إلى هنا أيضاً؟». أجيب: «كنت جالسا في مطعم، وحدث انفجار بعد اندلاع النيران في المطبخ، وأنا وأنتما جئنا هنا في نفس اليوم، وكنت متأخرا عنكما ببضع ساعات. واتصلت بهاتفك الخليوي وأنا في المطعم، وأنت لم تستقبل المكالمات». «لم أسمع رنين الهاتف الخليوي». «أنت كنت تحت الأنقاض آنذاك».

الزوج يحدق في وجه زوجته، ويقول: «نعم، ربما تحطم الهاتف الخليوي أيضاً».

تسأل الزوجة في عجالة: «كيف حال ابنتي شياو مي؟». «اتفقنا على أن أذهب إلى بيتكما في الساعة الرابعة بعد الظهر، وعندما وصلت وقتئذ، لم أر أثراً للمباني السكنية الثلاثة...».

وبعد ترديدي، لم أخبرهما بإخفاء حقيقة الضحايا في حادث الإزالة القسرية للمباني في طريق (تشينغ فو) حيث كانا يقيمان هناك، وفكرت أنه تمت فبركة قصة أنهما الزوج والزوجة اللذان ماتا في آن واحد من أجل الواجب والصالح العام، وأن ابنتهما تحصل على علبة وفاتهما المعبأة ببركाम عظام آخرين، ثم تنمو وتشب عن الطوق وسط أكذوبة جميلة.

تسأل الزوجة مرة أخرى: «كيف حال شياو مبي؟». أجيب: «في حالة جيدة جداً، إنها أذكى طفلة رأيته، وأنتما تستطيعان الشعور بالطمأنينة، وهي قادرة على القيام برعاية نفسها بصورة جيدة».

تقول الزوجة وقلبها يعتصر حزناً: «عمرها أحد عشر عاماً فقط، وكل مرة تغشى المدرسة، تتسمر أقدامها عند عتبة الباب، وتتأدى بابا.. ماما، وتنتظر حتى نرد عليها، ثم تقول: أذهب إلى المدرسة، وتنتظر مرة أخرى حتى نسمح لها بالخروج، آنذاك تستطيع أن تدلف إلى المدرسة».

يسأل الزوج: «ماذا دار بينك وبين ابنتي من أحاديث؟». تذكرت أنني سألتها إذا كانت تشعر بالبرد أم لا في خضم الرياح الباردة، وقالت إنها تشعر بقساوة البرد جداً، وطلبت منها أن تذهب إلى مطعم كنتاكي في مكان ليس بعيداً وتؤدي واجباتها المدرسية حيث تشعر بالدفع داخله، وتهز رأسها وتقول عندما يعود بابا وماما لا يستطيعان العثور عليّ، وهي لا تعرف أن أبويها تحت ركام أنقاض المباني.

وبعد ترديدي مرة أخرى، أخبرتهما بذلك كله، وقلت أخيراً: «إنها تجلس فوق أشلائكما».

وشاهدت دموعهما تتدحرج في صمت مطبق على وجهيهما، وأدركت أنها دموع لا تعرف الجفاف. كما تحجرت الدموع في عيوني، وأستدير بجسمي بسرعة وأنصرف، وبعد أن قطعت شوطاً قصيراً من الطريق، وكان صوت البكاء خلف ظهري مثل تدفق مياه البحيرة يحاول اللحاق بي بسرعة، وأسمع صوت بكائهما كأن ثلة من الأفراد تبكي. ويبدو أنني شاهدت مياه البحيرة تدفع تلك الطفلة التي ترتدي معطفاً أحمر محشواً بريش الطير إلى شاطئ رملي، وبعد تراجع مياه البحيرة، وصلت هذه الطفلة بمفردها إلى طريق مسدود هناك في هذه الدنيا.

وشاهدت في عالم الآخرة مأدبة ضخمة. وعلى قطعة أرض من الأعشاب العطرية تنمو أشجار الفواكه المثمرة اليانعة، والخضار في ازدهار مطرد، ومياه النهر تخر خريراً مثل جدول يترنم. ويجلس الموتى كل واحد على انفراد في شكل دائرة مستديرة فوق تلك الأعشاب كأنهم يجلسون في حلقة حول طاولات وليمة، وحركاتهم متعددة الألوان والأطياف، بعضهم يدفن رأسه ويلتهم الطعام، وبعضهم يتذوق الطعام ببطء، وبعضهم ينهمك في تجاذب أطراف الحديث، وبعضهم يدخن السيجار ويحتسي الخمر، وبعضهم يرفع الكأس عالياً ويتبادل الأنخاب، وبعضهم يتحسس بطنه بعد تناول الطعام.. كما شاهدت كوكبة من ذوي الأجسام السليمة، فضلاً عن ثلة من ذوي الهياكل العظمية يقومون بحركات مكوكية بين هؤلاء الموتى، ويدلفون إلى الخارج وهم يحملون الأطباق على راحت أياديهم، ويصبون الخمر، وأدركت أنهم الندل يقومون على خدمة الموتى.

أدلف إلى المأدبة، ويستقبلني إنسان لم يبق منه سوى الهيكل العظمي، ويخاطبني قائلاً: «نرحب بحضوركم في مطعم تان جيا جين».

أصابتي الحيرة والدهشة عندما سمعت هذا الصوت الذي يشبه صوت الفتاة ويقول أطباق مطعم تان جيا جين، ثم سمعت صوتاً غريباً ينادي اسمي: «يانغ فيي».

تساير نظراتي امتداد الصوت، وأرى صاحب المطعم (تان جيا جين) يخرج مسرعاً بخطوات عرجاء، وتضطلع يده اليمنى بحركة كأنه يحمل طبقاً على راحة اليد، وشاهدت علائم السرور والبهجة على وجهه؛ إنها تعابير الفرحة والغبطة التي لم أشاهدها في عالم الممات ذلك، وعندما قابلني يضحك في وجهي ضحكة صفراء. يمشي ويتقدم أمامي، ويقول في فرح وسرور: «يانغ فيي، في أي يوم حضرت إلى هنا؟».

أجيب: «أمس».

«حضرنا منذ أربعة أيام خلت».

وعندما يتحدث (تان جيا جين) تكون يده اليمنى في وضعية حمل طبق على راحة اليد.

ويدير رأسه وينادي زوجته وابنته وصهره، ينادي أسماءهم بصوت عال، وينقل إليهم فرحته وغبطته، ويقول: «حضر يانغ فيي».

شاهدت زوجة تان جيا جين وابنته وصهره يقبلون نحوي، وحركات أيديهم في وضعية حمل الأطباق وزجاجات الخمر. ويخاطبهم تان جيا جين قائلاً:

«أطباق تان جيا تبدأ البيعة الأولى اليوم، لقد حضر يانغ فيني اليوم».

يمشون حتى يصلوا أمامي، ويرمقونني بنظرات فاحصة من رأسي إلى أخمص قدمي، ووجوههم ضاحكة، وتقول زوجة تان جيا جين: «يبدو أنك أصبحت نحيفاً بعض الشيء».

يقول تان جيا جين مغتبطاً: «ونحن نحفاء أيضاً، الذين حضروا هنا تصيبهم النحافة يوماً بعد يوم، فالناس هنا قوامهم ممشوق».

وتسألني ابنة تان جيا جين: «لماذا حضرت إلى هنا أيضاً؟».

أجيب: «ليس عندي قبر، وأنتم؟».

ترف على وجه تان جيا جين بادرة من الحزن والألم، ويقول: «أقاربنا في مقاطعة شانغدونغ، وربما ما زالوا لا يعرفون ما آل إليه مصيرنا».

تقول زوجة تان جيا جين: «نحن أسرة واحدة نقيم هنا معاً».

علائم السرور والبهجة تعود إلى وجه تان جيان جين مرة أخرى، ويقول: «حقاً، نحن أسرة واحدة، وأفراد أسرتنا يقيمون معاً».

أسأل تان جيا جين: «هل بترت ساقك؟».

يقول ويدوي صوت قهقهة في الأفاق: «أمشي بسرعة أكبر بعد قطع ساقِي».

في هذه الأثناء يدوي صوت مناداة: «أطباقنا، وخمرتنا...».

يستدير تان جيا جين بجسمه، وينادي نحو ذاك الجانب قائلاً: «تعالوا».

ما زال تان جيا جين في وضعية اليد اليمنى تحمل طبقاً،

ويذهب إليهم مسرعاً بخطوات عرجاء. وزوجته وابنته وصهره في وضعية حمل الأطباق في راحات أياديهم وزجاجات الخمر، ويذهبون إلى ذاك الجانب مسرعين.

تان جيا جين عندما يتقدم نحوهم، يلف رأسه ويسألني: «ماذا تأكل؟».

«ما زالت أحب سلطانية الشعيرية».
«حسنًا».

عثرت على مقعد، وأجلس على أرض عشبية، وشعرت بأنني أجلس على الكرسي تماماً. ويجلس أمامي هيكل عظمي، ولا تصدر عنه ثمة حركة سوى صب الخمر، وليس في وضعية التقاط الخضار بعيدان الطعام، ويحرق في الشريط القماشي الأسود على ذراعي من تجويف العينين.

وشعرت بأن ملابسه غريبة؛ حيث يرتدي ملابس سوداء فضفاضة ولا يوجد لها أكمام، وتظهر أذرع ومناكب الهياكل العظمي، ولونها قاتم بعد أن تعرضت للريح ولوحتها الشمس سنة بعد سنة، والملابس السوداء لم يتبق منها سوى شرائط على جانبي المنكبين، ويبدو أن الكمين قد تعرضا للتمزيق أيضاً.

نتبادل النظرات، ويبادرني بالكلام: «في أي يوم حضرت؟».
أقول: «في اليوم الخامس، وحضرت هنا أمس».
يرفع كأس الخمر ويحتسيه حتى آخره، ويعد أن يضع الكأس، يتخذ وضعية صب الخمر. ويتهد قائلاً: «أنت وحيد هنا».
أنكس رأسي وأحلق في الشريط القماش الأسود على ذراعي.

ويقول: «ونعرف أنك تضع شريطاً قماشياً على ذراعك، جاء إلى هنا بعض المتهورين المنعزلين، ولم يضعوا شرائط قماشية سوداء على أذرعهم، وأبدوا إعجابهم عندما رأوا الآخرين يضعون مثل تلك الشرائط على أذرعهم، ومن ثم جاؤوا يلفون ويدورون حولي، ويطلبون مني أن أمزق قطعة من كمي وأعطيهم إياها ويجعلونها شريطاً قماشياً أسود تعبيراً عن الحداد».

ويفتر ثغري عن ابتسامة خفيفة عندما أشاهد أذرع ومناكب ذلك الهيكل العظمي بارزة للعيان في الخارج، ويتخذ وضعية رفع كأس الخمر واحتسائه حتى آخره، ثم ينزل الكأس.

يشير بيده ويقول: «أكمامي كانت طويلة جداً أصلاً وتتجاوز أصابعي، والآن أنظر إلى منكبي عاريين تماماً».

أسأله: «وأنت، أنت لا تحتاج إلى شريط قماشي أسود؟»
يقول: «أقاربي في ذاك الجانب، ربما أصبحت في دائرة النسيان لديهم».

يضطلع بوضعية تناول زجاجة الخمر ويصب الخمر في الكأس، وتدل حركاته على أنه آخر كأس، كما يضطلع مرة أخرى بوضعية احتساء الخمر حتى آخر نقطة.

يقول: «خمر لذيذ جداً».

أسأله: «ما نوع الخمر التي تشربها؟».

يجيب: «خمر الرز الأصفر».

«ما الماركة التجارية لخمر الرز الأصفر؟».

«لا أدري».

أبتسم، وأسأله: «كم مضى من الوقت على قدومك هنا؟».

«نسيت».

«إذا نسيت، إذن، أنت حضرت منذ ربح طويل».

«فترة طويلة جداً».

أقول فكرة جالت في خاطري ومشاعري بصورة فجائية: «أنت هنا يجب أن تكون مجرباً وخبيراً، وواسع المعرفة، وأطلب الاستشارة منك في مشكلة ما، كيف أشعر بأن الخلود يكون بعد الموت».

يحملق في وجهي بتجويف العينين، ولم يفه بحرف.

أقول: «لماذا نغشى أرض الراحة الأبدية بعد الموت؟».

يبدو أنه يبتسم، ويقول: «لا أدري».

أقول: «أنا لا أفهم لماذا أحرق جسدي حتى يصبح علبة رفات صغيرة؟».

يقول: «هذا قانون».

وأسأله: «أحصل على الراحة الأبدية إذا كان لدي قبر، وأعيش الحياة الأبدية إذا أفترق إلى قبر، ما رأيك أيهما أفضل؟».

يجيب: «لا أدري».

ثم يلتفت التفاتة، وينادي: «أيها النادل، أحضر فاتورة الدفن».

تأتي نادلة من ذوات الهيكل العظمي وتقول: «خمسون يواناً».

يضطلع بوضعية وضع خمسين يواناً على الطاولة، وبعد أن

يومئ برأسه نحوي، ينهض واقفاً، وحينما ينصرف، يخاطبني

قائلاً:

«أيها الغلام، لا تقدر زناد ذهنك كثيراً في مناقشة تلك

الموضوعات».

لم أتمالك نفسي عن أن أتذكر خنفساء عندما شاهدت

الملابس السوداء الفضفاضة ومنكبيه العظميين الرقيقين جداً.

وينأى شبحة رويدا رويدا، ويتلاشى وسط الهياكل العظمية الأخرى. ويأتي صهر (تان جيا جين)، ويداه في وضعية حمل السلطانية على راحة اليد، ويدي اليمنى في وضعية تناول عيدان الطعام، ثم وضعية الانتهاء من تناول رشفة من الشعيرية، وأخيراً وضعية تذوق طعم الشعيرية وأشعر بأن طعمها يناظر مثيله في العالم الذي رحلنا عنه.

أدركت أن كافة الأصقاع تغص بأصوات البهجة والسرور والضحك، ويتناولون أطايب الطعام والشراب في بهجة وسرور، وفي الوقت نفسه يعددون بسرور المثال تلو الآخر في عالم الممات ذلك من الأرز المسموم، واللبن المسموم، وخبز المانتو المسموم، والبيض المغشوش، واللبن المصنوع من بروتين الحيوانات⁽¹⁾، والمعكرونة المصنوعة من الجبس، والمواد الكيماوية في طبق الإحماء⁽²⁾، وجبن فول الصويا من البراز، والصبغة الكيماوية الحمراء⁽³⁾، وزيت الأحواض المنعزلة⁽⁴⁾.

(1) إشارة إلى الفضيحة العارمة التي اجتاحت كافة أرجاء الصين في عام 2011 والتي أطلق عليها: «أزمة الثقة في اللبن الصيني» بعد كشف النقاب عن عدد من شركات الأغذية تقوم بنزع البروتين من جلود الحيوانات، وتصنيف تلك البروتينات المنحلة بالماء إلى لبن الأطفال المغشوش أصلاً بتعويض نسبة البروتين المتدنية، مما أدى إلى تسرب السموم إلى ألبان الأطفال الذين لقي عدد كبير منهم حتفهم من جراء ذلك. [المترجم]

(2) طبق الإحماء: جهاز مؤلف من طبق معدني تحته مصباح أو مسخن. [المترجم]

(3) يشير إلى عنصر صباغ ملون كيماوي يسمى (Tonyred) تستخدمه المطاعم الكبرى في الصين، ناهيك عن المطاعم الأجنبية مثل كنتاكي، كمادة إضافية للأغذية وإضفاء اللون الأحمر الفاتح على مكونات بعض الأغذية. وتم اكتشاف استخدام هذا العنصر المميت في صلصلة الفلفل لأول مرة في الصين عام 2005. [المترجم]

(4) إشارة إلى جميع الأنواع الرديئة من الزيت في الحياة مثل إعادة استخدام زيت القلي. والمصدر الرئيسي للحصول على هذا الزيت هو أحواض الزيت المنعزلة في مواسير الصرف الصحي لدى المطاعم الكبرى في المدن الصينية، واستخدامه لمدة طويلة يسبب مرض السرطان. [المترجم]

ويمتدحون الطعام والشراب هنا وسط أصوات الضحكات المشرقة، وسمعت تتدفقا من أفواههم تباعاً مثل تلك الكلمات: طازج، طعام شهى، صحي.

صوت يقول: «في الصين كلها يوجد فقط مكانان المواد الغذائية فيهما آمنة وصالحة».

«ما هما؟»

«أحدهما هنا».

«وأين المكان الآخر؟».

«المكان الآخر هو المأدبة الحكومية في ذاك الجانب».

يقول أحدهم: «كلامك صائب، نحن هنا نستمتع بالمعاملة الحسنة من الأكل والشراب في المأدبة الحكومية».

وعندما ابتسم، تكتشف نفسي أنني لست في وضعية تناول الشعيرية، وأدركت أنني انتهيت فعلاً من تناولها، واسمع وقتئذ شخصاً بجواري يصيح وينادي:

«كشف حساب الدفن».

يأتي النادل ذو الهيكل العظمي، ويخاطبه قائلاً: «سبعة وثمانون يواناً».

يخاطب النادل قائلاً: «أعطيك ورقة مالية فئة مئة يوان».

يقول النادل: «أرد إليك ثلاثة عشر يواناً».

يقول: «أشكرك».

وعملية الحساب كلها عبارة عن حوارات، ولا توجد ثمة أفعال البتة، وفي هذه الأثناء، يتقدم نحوي تان جيا جين بخطواته العرجاء ويده في وضعية حمل الطبق، وأدركت أنه يهدي إلي طبق الفواكه، ومن ثم تهيأت في وضعية تلقي الطبق. ويجلس أمامي، ويخاطبني قائلاً:

«فواكه طازجة تم قطفها توأ».

بدأت التهيؤ لوضعية أكل الفواكه، وشعرت بأنها حلوة وطازجة ولذيذة وعطرة، وأقول: «مطعم تان جيا جين يبدأ البيع مرة أخرى بسرعة».

يقول: «لا توجد هنا إدارات: الأمن العام، والحماية من الحريق، والصحة، والصناعة، والتجارة، والضرائب، وأسست مطعماً في ذلك الجانب، وجمعية الحماية من الحرائق تماطل في إنهاء إجراءات التأسيس منذ عام أو عامين وتزعم أن مطعمي يداهم خطر كامن من اندلاع كارثة حريق، أما جمعية الشؤون الصحية فتسوف التشغيل لمدة عام أو عامين أيضاً وتدعي أن الظروف الصحية ليست على المستوى المطلوب. ونضطر إلى أن نرسل إليهما المال والهدايا حتى يسمحوا لنا بتشغيل المطعم».

ويسألني باضطراب في التو: «هل تكرهنا؟».

«لماذا أكرهكم؟».

«لقد قمنا باحتجازك في الغرفة».

تذكرت المشهد الأخير في ذلك العالم، وعيون تان جيا جين تحمق في وجهي وسط تصاعد أعمدة الدخان، وينادي ويصرخ من أجلي.

أقول: «يبدو أنك ما زلت تصرخ وتناديني».

يرسل زفرة ويقول: «كنت أطلب منك أن تهرب بسرعة، لم نعترض طريق أحد وإعاقته سواك».

أطأطأ رأسي، وأقول: «أنتم لم تعيقوني عن الهرب أو حبستموني، بل أنا لم أنصرف من المطعم».

لم أخبره شيئاً عن تلك الصحيفة فوق الطاولة والأخبار التي نشرتها حول انتحار زوجتي لي تشينغ، لأن الحديث في هذا الموضوع يحتاج وقتاً طويلاً.

وربما سأخبره بذلك بلا كلل أو ملل في لحظة ما في المستقبل. ما زال تان جيا جين يعض أنامل الندم، ولا يستطيع أن يجد الراحة لنفسه، ويشرح لي أسباب اندلاع الحريق في المطبخ، واعتراضهم سبيل خروج الزبائن من الباب إلا بعد دفع حساب المأكولات، وأضاف أن الدخل من تشغيل مطعمه أقل من المصروف لمدة ثلاث سنوات ونيف. يقول: «لقد أصابني الدوار، ألحقت أضراراً بنفسي وبأسرتي، كما سببت لك ضيراً أيضاً».

أقول: «لا بأس من حضورك هنا، والذي هنا أيضاً».

يصيح تان جيا جين قائلاً: «هل والدك هنا، لماذا لم يحضر معك؟».

أجيب: «لم أجده بعد، ولكن أشعر بأنه موجود هنا».

يقول تان جيا جين: «بعد أن تعثر على والدك، تصحبه وتأتي لزيارتنا بالتأكيد».

أقول: «أقوم بمرافقته ونأتي هنا».

تان جيا جين يجلس أمامي فترة قصيرة، ولم يعد عابس الوجه، بل يغص وجهه بالابتسامات. وينهض استعداداً للانصراف، ويكرر على مسامعي مرة أخرى: «بعد أن تجد والدك ترافقه وتأتي هنا بالتأكيد وتتذوق طعامنا».

ثم أدفع الحساب، وأسمع صوت امرأة ذات هيكل عظمي، وأعتقد أنها النادل الذي حصل النقود تَوّاً في مطعم تان جيا جين، وتخاطبني قائلة:

«سلطانية الشعيرية ثمنها أحد عشر يوانا، وطبق الفواكه هدية منا».

أقول: «أعطيك ورقة مالية فئة عشرين يواناً».

تقول: «أرد إليك تسعة يوانات».

ما يحدث بيننا عبارة عن حوارات ولا توجد أفعال وعندما كنت أهم بالانصراف سمعت تلك المرأة تقول بحرارة خلف ظهري: «شكراً على حضوركم! مرحباً بكم في المرة القادمة!».

* * *

يوجد هيكل عظمي يضع على كفه شريطاً قماشياً أسود ويمشي أمامنا قبالة غابة من البامبو الأخضر الوافر، ولفتت انتباهي فتحة مستديرة جداً على جبينه، وقد رأيت من قبل وسألته عن مكان والدي، أبتسم في وجهه، وهو يبتسم في وجهي أيضاً، وابتسامته لا تعرب عن القلق، بل تشبه نسيماً خفيفاً يهب من تجويف عينيه، وتجويف فمه.

يقول: «هناك نار المخيم، بالتأكيد هناك».

أنظر على امتداد إصبعه في مكان ناء في الأفق، والأرض العشبية النائية تتمدد امتداداً عظيماً، وفي نهايتها توجد علامات متألئة ومشعشة تشبه شريطاً حريراً، وشعرت بأن ذلك يكون نهراً، كما توجد هناك نار خضراء تبدو صغيرة كأن القداحة قدحتها، وشاهدت بعض البشر من ذوي الهياكل العظمية تنزل من سفح الجبل، وتنطلق من الغابة، وتواصل السير إلى هناك.

يقول: «تعال واجلس فترة قصيرة».

أسأله: «ماذا يوجد هناك؟».

يقول: «ضفة النهر، يوجد كوم من النار».

«أنتم تذهبون هناك دائماً؟».

«ليس دائماً، نذهب مرة واحدة على فترات متباعدة».

«هل جميع الناس هنا يذهبون هناك؟».

يقول: «بلى»، وينظر إلى الشريط القماش الأسود على كمي، كما يشير إلى نظيره على كمه، ثم يقول: «إنهم بشر مثلنا».

فهمت أن المكان هناك يحتشد فيه الذين ينعون أنفسهم إلى أنفسهم. وأطأ طئ رأسي، وأتبعه في سيره نحو النهر الذي يشبه الشريط الحريري، وكوم النار الصغير. وتمتد خطواتنا وتجتاز الأعشاب الكثيفة الملتفة، ويدوي صوت حفيف الأعشاب الخضراء.

أحملق في الشريط القماش الأسود على كمه، وأسأله: «متى حضرت هنا؟».

يقول: «منذ تسع سنوات تقريباً».

يلوح في نبرة صوته استعراض الماضي، ويقول: «في ذلك الحين قد مر عام وأكثر على زواجي، وزوجتي تعاني من مرض عقلي، وقبل الزواج لا أعرف أنها مريضة، ورأيته ثلاث مرات فقط، وأشعر عندما تضحك أن أمارات غريبة تملو وجهها، ويشعر قلبي بعدم الطمأنينة، بينما أبواي لا يعتريهما القلق ما دامت الأوضاع المالية لأسرة الزوجة ميسرة جداً، وجهاز العروسة كثير جداً، كما يحتوي على دفتر توفير بمبلغ عشرين ألف يوان. وقربتنا في ذاك الجانب تعيش في فقر مدقع، ويقرر الأبوان هناك البحث عن فتاة للزواج، ويمكن أن تبني بيتاً من طابقين بعشرين ألف يوان، وقرر أبواي هذا الزواج، وعرفت أنها تعاني من مرض عقلي منذ زواجنا. مازالت في حالة طيبة،

لا تهاجم الآخرين ولا تحدث جلبة، غير أنها لا تكف عن الضحك طوال النهار حتى الليل، ولا تقوم بأي عمل. ويشعر أبواي بالندم، كما يشعران بوخز الضمير، ولكنهما رفضا أن أطلقها، ويقولان نبني البيت بأموالها وجهازها، ولا يمكن تهديم الجسر بعد العبور وأنا لا يخطر على بالي الطلاق، وأرغب في العيش على هذا المنوال، بالإضافة إلى أنها تعتبر لطيفة وهادئة مقارنة بسائر المرضى المصابين بالتخلف العقلي، وفي المساء ننام مثل الناس العاديين تماماً. وفي صيف ذاك العام، تركت البيت ولا ندري أين تقودها قدمائها، وخرجت أبحث عنها، وحذى حذوي الوالدان وزوجة أخي الكبير، وعرجنا على العديد من الأمكنة، وتسمنا أخبارها في كل صقع، ولكن لم نسمع شيئاً. استمر البحث عنها ثلاثة أيام ولم نعثر عليها، ومن ثم أخبرنا أهل بيتها الذين انتابتهم الشكوك من أنني سببت لها ضرراً ورحلت عن دنيانا، ولذلك ذهبوا إلى مكتب الأمن العام في المحافظة وأبلغوا البوليس عن حادث اختفائها. وفي اليوم الخامس لمغادرتها البيت، طفت جثة امرأة في بركة في مكان بعيد عن قريتنا بكيلومترين، وعندما تم العثور على الجثة كانت مهترئة وعفنة من جراء الصيف الصائف، ولا يمكن التعرف على شكلها، وطلب البوليس مني ومن أهل بيتها أن نتفحص شكلها وملامحها، بيد أننا لم نتعرف عليها، لكننا شعرنا بأن قامة الجثة تضاهي قامتها تقريباً. وذكر البوليس أن اليوم الذي شهد موت الجثة غرقاً يتزامن مع اليوم الذي غادرت فيه بيتها، وشعرت أنها زوجتي، كما شعر أهلها كذلك. ودار بخليدي أنها ربما لم تأخذ حذرهما وقادتها قدماءها إلى داخل البركة، ولم تدرك أن السقوط في البركة يؤدي بحياة

المراء غرقاً لأنها تعاني من مرض عقلي. وما زال قلبي يئن من وطأة الحزن فقد جمعنا الرباط المقدس لمدة أكثر من عامين بغض النظر عن حالتها الصحية. ويستجوبني البوليس بعد مرور يومين، ويسألني ماذا كنت أعمل عندما انصرفت من البيت؟ سافرت إلى المدينة في ذاك اليوم، واكتشفت أنها تركت البيت عندما رجعت في المساء. ويسألني البوليس هل لدي شاهد على سفري إلى المدينة، فكرت لحظة وقلت لا يوجد، البوليس يدون اعترافاتي وينصرف، وأهلها يؤكدون أنني قتلتها، كما يعتقد البوليس أنني القاتل، ولذا يلقي القبض عليّ. بدايةً أبواي وزوجة أخي الكبير لا يصدقون أنني القاتل، وبعد ذلك اعترفت أنني قتلتها، ولذا صدقوا أنني القاتل. ويشعرون بحزن شديد، كما يكرهونني بشدة أيضاً، فقد جعلتهم وهم الشرفاء لا يستطيعون رفع رؤوسهم، فقد جرى العرف بذلك في قريتنا حيث إن البيت الذي ينبت فيه مجرم قاتل، فإن أهل البيت لا يجروون على رؤية الناس. وعندما أصدرت المحكمة حكماً بإعدامي، لم يحضر أحد منهم، بينما حضر أهل بيت القتيلة، وأنا لا ألقى باللائمة عليهم، فقد حاولوا رؤيتي بعد اعتقالتي، ولكن رفض البوليس، وكلهم من الخلاء ولا يعرفون أنني مظلوم. وليس أمامي مفر سوى الاعتراف بالقتل، والبوليس يعلقني ويشبيني ضرباً ويجبرني على الاعتراف بالجريمة، وينز البول والبراز من جراء الضرب المبرح، كما يقيد البوليس يدي ويعلقهما لمدة يومين، ويحتقن الدم في أصابعي الأربعة، وقالوا إنها تلفت تماماً. وبعد ذلك، يعلقني البوليس بالمقلوب ويعذبني، قدمي معلقة في أعلى، ورأسي في أسفل، يعلقني بالمقلوب ويضربني، ويكون الأكثر ألماً

ليس جسدي، بل عيوني، ويتصبب العرق المالح الذي يتدفق إلى عيوني ويصيبني بألم شديد كأنهما وُخِزتا بالإبرة، وفكرت جيداً أن الموت أفضل، ومن ثم اعترفت بالجريمة».

يتوقف عن الكلام برهة، ويسألني: «لماذا ينمو الحاجب فوق العين؟».

«لماذا؟».

«حتى يقي العين من العرق».

«من أجل حماية العين من العرق».

سمعته يضحك بصوت هادئ كأنه يبتسم بمفرده.

يشير إلى الدماغ المؤخر لديه، كما يشير إلى فتحة مستديرة صغيرة في جبهته، ويقول: «اخترقت الرصاصة دماغي المؤخر، وخرجت من هنا».

يحني رأسه ويحدق في الشريط القماشي الأسود المعلق على كفه، ويردف قائلاً: «حضرت إلى هنا، ورأيت أناسا يعلقون شرائط قماشية سوداء على أكمامهم، وفكرت أيضاً أن أضع شريطاً قماشياً أسود على كمي، وشعرت بأنه لا يوجد أحد في ذلك الجانب يفعل ذلك من أجلي، ولا يجرؤ أبواي وزوجة أخي الكبير على أن يعلقوا مثل تلك الشرائط القماشية على أكمامهم لأنني مجرم قاتل. ورأيت شخصاً يرتدي ملابس سوداء فضفاضة جداً، وأكمامها طويلة جداً أيضاً، وسألته إذا كان يستطيع أن يمزق كفه ويعطيني قطعة، ولا يدري لماذا أريد هذه القطعة القماشية، ثم يمزق كفه ويعطيني قطعة منه، وبعد أن علقت على ذراعي الشريط القماشي الأسود، شعرت بالاطمئنان والراحة. وهناك شخص يعرف قصتي بين هؤلاء البشر الذين

أتوا من خلف ظهري، وأخبرني بأنه بعد مرور نصف عام من إعدامي رمياً بالرصاص، عادت زوجتي المصابة بمرض عقلي إلى البيت بصورة فجائية، وملابسها قدرة وبالية، كما أن وجهها قذر لدرجة لم يتعرف عليها أحد، ووقفت أمام مدخل البيت تضحك: هيه، هيه بلا انقطاع، وقفت مدة طويلة جداً، وهناك من تعرّف على ملامحها في القرية. ويعرف الناس هناك أنني تعرضت للظلم، وببكي أبواي وزوجة أخي الكبير لمدة يومين، ويشعرون بالشفقة والعطف نحوي، وتدفع الحكومة تعويضاً لهم بأكثر من خمسين ألف يوان، واشتروا لي قبراً رائعاً جداً...».

وسألتها: «هل عندك قبر؟، ولماذا حضرت إلى هنا أيضاً؟».

ويقول: «في هذه الأثناء، نزعت شريط القماش الأسود من كمي ورميته فوق شجرة وأستعد للانصراف، وبعد أن مشيت أكثر من عشر خطوات، يعز عليّ أن أتخلّى عن ذلك الشريط الأسود وأعود وألتقطه، وأضعه على ذراعي، ولم أنصرف».

وأسأل: «ألا ترغب في الذهاب إلى أرض الراحة الأبدية؟».

يجيب: «أريد أن أذهب إلى هناك حقاً، وأفكر آنذاك أنني عندي قبر. وعلى كل حال، لا داعي للاستعجال، وأذهب هناك في الميقات الذي يحلو لي».

«متى حضرت إلى عالم الممات؟».

«منذ ثماني سنوات».

«هل القبر ما زال موجوداً؟».

«موجود، موجود دائماً وأبداً».

«متى تتوي الذهاب إلى القبر؟».

«فيما بعد».

نخرج على المكان الذي يحتشد فيه الذين ينعون أنفسهم بأنفسهم. وعلى مرمى البصر، نهر واسع وعريض، ومنظره المشرق المتلألئ عريض ومترامي الأطراف أيضاً. يتوقد كوم من نار المخيم الخضراء على جانب النهر، ويتطاير الشرر بلا انقطاع كأنه الحباحب الطائر⁽¹⁾.

تجلس قلة قليلة من الهياكل العظمية ذات الأشرطة السوداء على مقربة من نار المخيم، وأمشي معه وندلف إلى الداخل، ونبحث عن مقعد يمكن أن نجلس عليه، ورأيت بعض الهياكل العظمية الجالسة في حالة حراك وتتحرك مقاعدها وتفسح المكان، وتخلي المقاعد الواحد تلو الآخر، وأقف هناك حائراً ومتردداً، لا أدري يجب أن أسير في أي اتجاه وأجلس على المقعد. ورأيت يمشي ويجلس على مقعد قريب، وأنا أيضاً أحذو حذوه. وأرفع رأسي، وأشاهد أن هناك ما زالت هياكل عظمية تمشي، بعضها يسير على درب امتداد الأعشاب، وبعضها يمشي على امتداد ضفة النهر، ويتهادون في مشيتهم على هذا النحو حتى يتجمعوا سوياً.

سمعت صوتاً مدوياً ينبثق من هيكل عظمي بجواري، يقول: «أهلاً بك».

وقوله «أهلاً بك» يشكل صوتاً خفيفاً ينطلق من هنا حيث أجلس، ويدور حول نار المخيم، وبعد أن يعود إلي يرتطم بالأرض. وسألته بصوت خافت: «هل الهياكل العظمية تقدم لي التحية؟».

يقول: «نعم، وأنت حضرت إلى هنا حديثاً».

(1) الحباحب (سراج ليل): اليراع، وهو ذباب يطير بالليل يضيء ذنبه. [المترجم]

وشعرت بأنني مثل شجرة عادت إلى الغابة، ونقطة ماء عادت إلى النهر، وذرة غبار عادت إلى التربة.

الهيكل العظمي ذات الشرائط السوداء تجلس واحداً وراء الآخر مثل أصوات تتهاوى وسط الهدوء والسكون تبعاً، نجلس في دائرة بالقرب من نار المخيم، وتتبع في السر ألف كلمة وكلمة في أجواء الصمت الرهيب المترامية الأطراف، وبعد ذلك بمثابة السرد الذاتي للكثير والعديد في حياتي الحقيبة الوضيعة، وكل امرئ في عالم الممات هذا يرغب عن إلقاء نظرة على أحواله الحزينة المؤلمة، وكل واحد هناك يعيش وحيداً بائساً بلا معين، والذين ينعون أنفسهم إلى أنفسهم قد اجتمعوا سوياً، وعلى كل حال، عندما نجلس حول النار الخضراء في الجهات الأربع، لا نشعر بأننا بلا أنيس ولا جليس مرة أخرى.

لا يوجد هناك التفوه بالكلمات ولا الاضطلاع بالأفعال، بل إننا في صمت ينظر كل منا إلى الآخر ويضحك. ونجلس في الهدوء التام ليس من أجل شيء آخر سوى الشعور بالجماعة لا بالعزلة.

أجلس في دائرة وسط الهدوء التام، وأسمع صوت النار وهو الرقص، وأسمع صوت الماء وهو قرع الطبول، وأسمع صوت الحشائش وهو صوت الترنج، وأسمع صوت الشجر وهو الهاتف والنداء، وأسمع صوت الريح وهو الحفيف والوشوشة، وأسمع صوت السحب وهو الطفو.

ويبدو أن تلك الأصوات تتكلم معي بلا تحفظ، وقد تعرض مصيرها لكثير من الصدمات والنكسات في حياتي، وترغب عن الالتفات إلى ذكريات الماضي. وبعد ذلك، سمعت صوت العندليب

يصدح، يتراعى إلى مسامعي تارة، ويتوقف تارة أخرى، ثم يملأ
الآفاق مرة أخرى..

* * *

سمعت صوتاً كالوشوشة يقول: «أنت حضرت هنا».
أسير نحو ذاك الصوت الغريب الذي يشبه صوت تقطر مياه
الأمطار من إفريز الغرفة إلى حافة النافذة ويتجلى بالوضوح
والخفوت. وخمنت أنه صوت امرأة، وبعد أن ذقت مرارة الدنيا
يزخر صوتها بالعتمة في وقت الفسق، ولكن نبراته ما زالت جلية
مثل إنسان يقرع الباب: دقة، دقتان، ثلاث دقات.
«أنت حضرت هنا».

تنتابني مشاعر التردد والارتباك، هل هذا الصوت يخاطبني؟
وعلى كل حال، يتجلى هذا الصوت بالود البعيد، إنه ذلك الود في
أعماق ذاكرته، وجعلني أشعر أنه يخاطبني فعلاً. وتكلم المرة تلو
الأخرى، ثم ما لبثت أن سمعت صوت العندليب يصدح بالغناء،
ويعلو وينخفض مثل الموج، ويتراعى إلى مسامعي الصوت القائل:
«أنت حضرت» مثل صوت غناء العندليب.

تتقدم خطوات نحو صوت غناء العندليب، وكذلك نحو الصوت
القائل: «أنت حضرت».

عرجت على غابة وشعرت بأن صوت غناء العندليب ينساب
من أعلى شجرة في الأمام. ومشيت إلى هناك ولفت انتباهي
أن أوراق الشجر عريضة أكثر فأكثر، ثم شاهدت أطفالاً رضعاً
من ذوي الهياكل العظمية في معية أوراق الشجر العريضة التي
تتمايل يمنة ويسرة، وهؤلاء الأطفال يشرقون ويتلألؤون في مهد
أوراق الشجر، ويصدحون بالغناء الذي يؤثر في النفس تأثيراً

بالفأ، أمد إصبعي وبعد أن أحصيت عددهم سبعة وعشرين طفلاً، أنزل يدي. وهذا الرقم يهز قلبي هزاً عنيفاً، وتمرق ذاكرتي في طرفة عين داخل أروقة عالم الممات ذلك، وتذكرت الأطفال الموتى الذين أطلق عليهم النفايات الطبية والبالغ عددهم سبعة وعشرين طفلاً، والذين كانت أجسادهم تطفو فوق صفحة مياه النهر، وتخلى عنهم ذووهم على ضفة النهر.

«أنت حضرت».

وأشاهد امرأة ذات هيكل عظمي ترتدي ملابس بيضاء فضفاضة تجلس بين الأشجار والكتل العشبية العطرية، وتقف طويلاً، وتنتهد وتخطبني:

«يا ابني، كيف حضرت هنا بسرعة؟».

عرفت من هي، وأنادي بصوت خافت: «ماما».

تمشي (لي يوي جين) حتى تصل أمامي وتحقق في وجهي بنظرات تتبعث من تجويف العينين، وصوتها كريشة في مهب الريح، وتقول: «يبدو أنك تجاوزت الخمسين، وعلى كل حال، أنت تبلغ من العمر أربعين عاماً».

أقول: «ما زلت تتذكريني».

تقول: «سنة يناهز ابنتي جينغ شيا».

في هذه اللحظة تعيش جينغ شيا وأبوها جينغ تشيانغ شينغ في عالم أمريكا، أما أنا وأمها لي يون جين فنعيش هنا في ذاك العالم، وودعت جينغ شيا ووالدها في المطار عند سفرهما إلى الخارج، وبعد وصولهما إلى شانغهاي، استقلا الطائرة المتجهة إلى أمريكا. وطلبت من جينغ تشيانغ أن يجعلني أحمل علبه رفات أمي (لي يون جين) التي تتوسد قلبي وأودعها إلى مثواها الأخير.

تومئ لي يوي جين برأسها وتقول: «شاهدتكما في المطار، ورأيتك تحمل علبة الرفات، وأنت حملت رفات الآخرين وليس الهيكل العظمي».

تذكرت أن الهياكل العظمية لأناس آخرين استغلوا اسمها وتم دفنهم في أمريكا، وأخبرتها بأن «جينغ ذكرت أنها وفرت لك أرض الراحة الأبدية، وأضافت أن والدها سيكون هناك أيضاً في المستقبل».

أكف عن الكلام، ونظراً لأنني تذكرت أنه عندما غيَّب جينغ تشيانغ شينغ في مثواه الأخير بعد مرور بضع سنوات، أدركت أن لي يوي جين لا تتعم معه بالراحة الأبدية بصورة مشتركة، وأنه سيعيش مع غريب أو مع نفر من الغريباء أجسادهم ناقصة في ركن من الأركان.

تنثال دموع (لي يوي جين) من تجويف العينين كلما تذكرت ذلك. وتتدفق الدموع على خديها اللذين يشبهان الحجر، وتتقطر على بضعة أعواد من العشب. ثم تظهر ملامح ابتسامة من تجويف العينين وترفع رأسها وتجيل بصرها في كافة الأنحاء، وترقب باهتمام الأطفال الذين يغنون مثل الغندليب، وتقول:

«يوجد عندي هنا سبعة وعشرون طفلاً، والآن أنت حضرت، إذن، أصبحنا ثمانية وعشرين فرداً».

لم يتبق منها سوى يدها ذات الهيكل العظمي، والتي تتحسس بها الشريط القماشي الأسود على ذراعي الأيسر، وتعرف أنني أنعى نفسي إلى نفسي، وتقول:

«ابني المسكين».

تتقافز ألسنة اللهب المحرقة من قلبي قارس البرودة. وهناك طفل لم يأخذه حذره، ويتدحرج من فوق الشجرة ويسقط على الأرض، ويتفرز ويبكي، ويحبو إلى أمام لي يوي جين التي تضمه إلى أحضانها وتهدهه فترة قصيرة، وتعيده فوق أوراق الشجر العريضة، وعلى الفور يدس هذا الطفل نفسه بسرعة في زمرة الأطفال الذين يغنون على غرار العندليب.

تسألني لي يوي جين: «كيف حضرت إلى هنا؟».

أخبرتها بالمشهد الأخير في حياتي في ذاك الجانب، كما أخبرتها أن زوجتي (لي تشينغ) ودعتني من مكان بعيد جدا. ترسل زفرة طويلة بعد أن سمعت كلامي، وتقول: «لا يجوز أن نترك لي تشينغ».

أفكر في أعماق نفسي أنه ربما لا يجوز أن تتركني. وإذا كانت في البداية لم تتخل عني، يجب علينا أن ننعم بحياة هادئة في ذاك العالم. ويتعين على طفلنا الالتحاق بالمدرسة الابتدائية، وربما كان أحد طلاب المدرسة الإعدادية في الوقت الحاضر.

وتذكرت فقدان المروع لكل من لي يوي جين وسبعة وعشرين طفلا رضيعا، وذكرت مؤسسة الخدمات الجنائية أنها أحرق جثثهم، بينما أحد مستخدمي الإنترنت يقول إن رماد عظامهم قد حسمت من علب رفات الآخرين.

تقول: «عرفت ذلك، وأخبرني بذلك شخص يأتي من عالم آخر».

أرفع رأسي وأحلق في الأطفال الرضع الذين يتمددون على أوراق الشجرة العريضة ويصدرون أصوات غناء تشبه العندليب، وأقول: «أأنت حملت هؤلاء الأطفال إلى هنا؟».

تجيب قائلة: «لم أحملهم»، وتردف: «كنت أسير في الأمام، وهم يحبون في الخلف».

وقالت لي يوي جين إنها في بهيم الليل في ذاك اليوم، لم تسمع صوت دوي الانفجار، ولكنها استيقظت من نومها. وقبل ذلك كانت تنهمك في نوم عميق وشاهدت رؤى ثلاثاً، ففي الرؤيا الأولى شاهدت الفوضى الأزلية المترامية الأطراف وأصبحت السماء والأرض وحدة واحدة، وتلوح في الأفق الأضواء الساطعة، ثم تتدفق مياه البحيرة الساطعة اللامعة، وانفصلت السماء عن الأرض، كما انفصل البكور عن الليل، وفي الرؤيا الثانية شاهدت الهواء يطير بسرعة ويقوم بحركة مكوكية، أما الرؤيا الثالثة، فقد كانت انفجار الماء من الأرض وتدفقه أكثر فأكثر مثل البحر العظيم.

وبعد ذلك، تنهض من سباتها، ويبدو جسمها يسقط من جرف شاهق، وسرعة الانحدار تجعلها تقف شامخة، وتنزع قطعة القماش البيضاء تلك على مهل مثل كسح الثلج المتراكم أمام الباب، وتبدأ أقدامها في الحراك، وتخرج من مستودع الجثث أسفل حفرة سماوية تغص بضوء القمر الشاحب الباهت، وتتعثّر أقدامها في أعمدة الحفرة المتداخلة تداخل أنياب الكلب، وتخرج من تلك الحفرة في وضعية جسدها المستقلي على الأرض.

تدلف إلى المدينة التي تسطع فيها الأضواء اللامعة، وتخرج بحركة الذهاب والإياب الصاخبة من المشاة والركاب، والمشاهد والمناظر كما هي، وعلى كل حال، كانت تمشي خارج نطاق عالم تلك الموجودات.

يبدو أنها تعود أدراجها إلى بيتها بشكل عادي، وتمشي إلى أمام المبنى الذي تقيم فيه، ولكن لا تستطيع أن تدخل بيتها،

ومهما تحركت ومشيت تعجز عن الاقتراب من البناية السكنية، وكان ذلك في الليلة الثالثة من توديعها هذه الحياة. وشاهدت شبح ابنتها يشرق من نافذة في الدور السادس، ويخفق قلبها؛ إنها (جينغ شيا)، لقد عادت ابنتها.

تواصل المشي نهاراً وليلاً، ولم تكف خطواتها عن التقدم إلى الأمام وتناهى بعيداً كلما مشيت، ولم يظهر في تلك النافذة زوجها (جينغ تشيانغ تشينغ) أبداً، وكذلك أنا لم أظهر في النافذة، ولكن ظهرت فقط ابنتها (جينغ شيا). ورأت أناساً ينقلون تباعاً الطاولات والمقاعد والدواليب، كما ينقلون طاولات الشاي الصغيرة والأرائك والأسرة، ويخرجون من تلك البناية، وتذكرت أن ذلك أثار بيتها الذي كان لا يفارقها ليلاً نهاراً منذ عشرات السنين، وباعته، وكذلك تلك الشقة التي باعته، وذلك عندما كان زوجها وابنتها على وشك السفر إلى أمريكا.

وفي فترة ما بعد الظهر، رأيتا بأم عينها أخيراً، شاهدت زوجها جينغ تشيانغ يحمل علبة الرفات ويخرج من المبنى السكني متكئاً على ابنته جينغ شيا التي تحمل في يدها اليمنى حقيبة السفر الكبيرة، وأنا أحمل صندوقي شحن كبيرين، وأسير خلفهما، ونقف نحن الثلاثة على جانب الطريق، وتقف سيارة تاكسي، وأحمل أنا والسائق تينك الصندوقين وحقيبة السفر ونضعها في حقيبة السيارة الخلفية. كما شاهدتني وأنا أتحدث مع زوجها الذي يسلمني علبة الرفات وأحملها في يدي، وتجلس جينغ شيا ووالدها في مقعد السيارة الخلفي، وأنا أجلس في المقعد الأمامي، وتتطلق بنا سيارة التاكسي.

تدرك أنها لحظة الوداع الأبدي، ويستعد جينغ تشيانغ شينغ، وجينغ شيا للسفر إلى البلد القاصي أمريكا، وتتساب دموعها على الخدين، وتركض وتهول، ولكن ركضها لا يزال يجعلها تشاهدنا من مكان بعيد، وتتسمر أقدامها، وترى سيارة التاكسي تتلاشى وسط تدفق المركبات الأخرى.

تتفجر في نوبة بكاء، وتبكي بكاء طويلاً، وبعد ذلك سمعت أصواتاً مختلطة خلفها، يبدو أنها أصوات ذرف الدموع أيضاً، وتدير رأسها إلى الخلف وترى سبعة وعشرين طفلاً رضيعاً اصطفوا وينبطحون على الأرض، ويبدو أنهم يشعرون بالحزن والألم مثلها، وحينما توقفت عن البكاء، توقفت أصوات بكائهم أيضاً، ولا تدري أنهم يقتفون أثرها خلفها، ويحبون حتى خرجوا من الحفرة السماوية، ويستمررون في تتبعها حتى وصلت إلى هنا، وتلوح المدينة أمام مرمى بصرها، والتي تتأى رويداً رويداً، وتلفّ رأسها إلى الخلف، وترى هؤلاء الأطفال الرضع، وتدرك آنذاك ماذا خسرت؟ وتدرك أيضاً ماذا كسبت؟

تخاطب هؤلاء الأطفال برفق، وتقول: «انصرفوا».

لي يوي جين، التي ترتدي البنطال الأبيض، تمشي الهوينى إلى الأمام، ويحبو خلفها الأطفال الذين يصطفون، وعددهم سبعة وعشرون طفلاً رضيعاً. أشعة الشمس صفراء وعتيقة ويجتازون المدينة التي تعج بالجلبة والضوضاء، ويدلفون إلى منطقة الهدوء والسكون وتتعمق أقدامهم داخل المنطقة كلما مشوا، ويستقبلون ضوء القمر الفضي.

وبعد أن تجتاز الخط الفاصل بين الحياة والموت، تطلّ أقدام (لي يوي جين) أرض عشب عطرية، والأعشاب الخضراء الناضرة

تطاول أعناق هؤلاء الأطفال الذين يمشون خلفها، وشعورهم بالحكة يجعلهم يصدرون أصوات الضحكات، ويوجد نهر يتألاً ويشرق في نهاية أرض العشب العطرية، وتنزل لي يوي جين إلى النهر وتمشي فيه، فيرتفع منسوب المياه إلى صدرها، كما ينخفض ذلك المنسوب إلى أقدامها، وتصل إلى الضفة المقابلة، ويحبو هؤلاء الأطفال فوق صفحة المياه، ويتناولون جرعة كبيرة من الماء فيغصّون بها، ويسعلون دائماً حتى وصلوا إلى الضفة المقابلة، ويعبرون النهر ويدخلون الغابة، ولي يوي جين لا تدري وتدندن بلحن داخل الغابة، وفي الخلف يحذو هؤلاء الأطفال حذوها أيضاً، وتتوقف لي يوي جين عن الدندنة، ولكن هؤلاء الأطفال يواصلون الدندنة، ويدوي صوتهم بالغناء، الذي يشبه العندليب، دائماً إلى الآن!

تقول لي يوي جين: «حضر أبوك يانغ جين بياو».

أحملق في وجهها بدهشة، وتردق قائلة: «جاء هنا من مكان بعيد، ويشعر بالتعب الشديد، واستراح هنا عدة أيام، وهو يتحدث عنك دائماً».

«لقد انصرف بلا استئذان، وأين ذهب؟».

«ركب القطار وسافر إلى المكان الذي تركك فيه في ذاك العام».

وما زالت ذكريات آخر حوار استمر ليلة بيني وبين والدي محفورة في صدري. ونتزاحم فوق الفراش الضيق في الحانوت. وأضواء مصابيح الشارع خارج النافذة تلح عليها الرغبة في النوم، وريح الليل تلامس نافذتنا. وكانت المرة الأولى التي يبكي فيها والدي أمامي عندما سرّدت قصته وأنا في الرابعة عندما تخطى

عني فوق حجر في تلك المدينة الغريبة من أجل فتاة، ووصف ضخامة وقوة ذاك الحجر الأخضر، وسطحه الأملس، ووضعني فوق ذلك السطح الأملس. ويعنف نفسه تعنيفاً شديداً من جراء ذلك مرة تلو الأخرى. ولكن والدي ينصرف بلا استئذان ولم يخطر ببالي أن يفعل ذلك، وبحث في العديد من الأمكنة، ولم يدر بخلدي أنه استقل القطار وسافر إلى هناك.

يرتدي والدي البزة الجديدة النظامية للسكة الحديدية، وهي البزة الأكثر جدة لديه، ويعز عليه دائماً أن يرتديها، واستمرت هذه الحال حتى جاء ميقات مغادرته ولبسها، ويستقل القطار وصحته واهية بصورة مستمرة، وعثر على مقعده بصعوبة بالغة، وما لبث أن وضع جسده واستقر به المقام فوق المقعد حتى انطلق القطار، ويرى رصيف المحطة يتقهقر إلى الخلف ببطء شديد، ويشعر بصورة فجائية أن الوقت الباقي لديه لا يسعفه ولا يدري في مغادرته على هذا النحو أيمن أن يراني مرة أخرى أم لا؟

والدي يخبر لي يوي جين بأنه لم يذق طعم النوم في تلك الليلة. ويسمع دائماً صوت تنفسي المنتظم وصوت شخيري من حين لآخر، ولم يصدر مني ثمة صوت لفترة قصيرة في تلك الأثناء، ويشعر بالقلق، ويمد يده، ويتحسس وجهي ورقبتي، وأستيقظ من نومي، وينتصب جسدي وأحلق فيه، وأجده يغلق عينيه ويتظاهر بأنه نائم، ويقول إنني تحسست جسمه في الظلام، وأخذت ذراعه بحذر شديد وحشرته داخل اللحاف.

أومئ برأسي، وأخبر لي يوي جين قائلاً: «لا أعرف ذلك». تشير لي يوي جين إلى أعشاب كثيفة تحت شجرة أمامها، وتقول: «مدد جسمه هنا، وظل يتفوه بالكلام على طول».

يعثر والدي على ذاك المكان، ولكن لم يعثر على ذلك الحجر الأخضر وتلك الغابة، بالاضافة إلى ذلك الجسر الحجري، والنهير الذي يفتقر إلى المياه، ويتذكر أنه يجب أن تكون هناك بناية سكنية قبالة الجسر الحجري، ويجب أن ينبعث صوت الأطفال الذين يغنون من داخل تلك البناية ولم يعثر عليها، ولم يسمع صوت غناء هؤلاء الأطفال. والدي يخبر لي يوي جين بأن كل شيء قد تغير؛ حتى القطار شهد تغيراً. وفي تلك الأيام، أستقل أنا ووالدي القطار في الفجر ونفادر رصيف المحطة ونصل إلى تلك المدينة الصغيرة في الظهرية، وبعد ذلك يركب بمفرده القطار الذي ما زال ينطلق في الفجر أيضاً، وعلى كل حال، يصل إلى هناك بعد أكثر من ساعة.

وتسأله لي يوي جين: «هل ما زلت تتذكر اسم ذاك المكان؟». يجيب: «أتذكر، اسمه شارع خه بان (شارع ضفة النهر)».

يفادر محطة القطار في تلك المدينة وسط ضوء شمس الصباح الباكر، ويحمل على ظهره حقيبة السفر ويجر صندوقاً شحناً ويدلف إلى الفندق بخطوات سريعة كأنني أنقض عليه. ويدخل الفضاء المترامي الأطراف بخطوات وثيدة وبطيئة، حيث لا توجد حقيبة سفر ولا صندوق شحناً أيضاً، وعلى كل حال، جسده أثقل من تلك الحقيبة والصندوقين. ويتوجه نحو المدخل على مهل، وغير قادر أن يسبل اليدين، ويبدو أنهما لا تتحركان. يقف في الميدان أمام محطة القطار، ويسأل بصوت واهن الذين يمرون بجواره في عجالة ويتمتعون بالصحة والعافية إذا كانوا من أهالي البلد أم لا؟ وسأل عشرين شخصاً ونيفاً، كان من بينهم أربعة قالوا إنهم من أهل البلد، وسألهم عن كيفية الوصول

إلى مشارف شارع (خه بان)، وذكر الشبان الثلاثة الأولون أنهم لا يعرفون مكان هذا الشارع، أما الشخص الرابع فكان عجوزاً، وأخبره بأنه يحتاج أن يركب ويغير حافلة النقل العام ثلاث مرات حتى يستطيع الوصول إلى هناك. ويستقل حافلة من جهاز النقل ويلفظ أنفاسه الأخيرة. وفي المدينة التي لا يجد فيها من يلوذ به يبحث عن ذاك المكان الغريب الذي تركني فيه.

وتسأله لي يوي جين: «لماذا ذهبت إلى هناك؟».

يجيب: «أرغب في الجلوس على ذلك الحجر فترة قصيرة». وعثر على ذاك المكان، وكان ذلك بعد الظهر. والتدافع والتزاحم في حافلة النقل العام جعله منهوك القوى، وبعد أن ينزل من الحافلة يحتاج لأن يجلس على جانب الشارع فترة طويلة جداً حتى يستجمع قوته. ويستعد لأن يستقل حافلة أخرى. ويغير ثلاث حافلات وينزل في محطة تبعد عن شارع (خه بان) أكثر من ثلاثمئة متر. وهذه المسافة الباقية وطولها ثلاثمئة - بالنسبة له - أطول بكثير من ثلاثة آلاف متر، ويمضي قدماً إلى الأمام بصعوبة بالغة، وخطواته ثقيلة، وقدماه مثل حجرين يعجز عن رفعهما ويستطيع فقط الحراك فوق الرصيف ببطء شديد، وبعد أن قطع مسافة خمسة أو ستة أمتار، يسند جسمه على شجرة ويأخذ قسطاً من الراحة ويلمح على جانب الشارع مطعماً صغيراً، ويشعر بأنه جوعان، ثم ما لبث أن جلس على مقعد فوق الرصيف خارج المطعم، ويسند جسده على الطاولة، ويطلب سلطانية كريات لحم بعجين. وبعد أن أكل ثلاث كريات بدأ بالتقيؤ، ويتقيأ في كيس بلاستيك أحضره معه. ويضطر الجلساء على مقربة منه والذين يتناولون طعامهم ويحملون

سلطانياتهم لأن يركضوا إلى داخل المطعم، ويقدم لهم اعتذاره وأسفه بصوت خفيض، ثم يستمر في الأكل، ويستمر في تقيؤ ما أكله. وبعد أن فرغ من طعامه، وقاء ما أكله، يشعر بأن ما أكله أكثر مما تقيأه، ويشعر بأن جسمه أصبح قويا بعض الشيء، وينهض واقفاً وهو يترنح، يمشي صوب شارع (خه بان) ويتمايل جسمه يمنة ويسرة.

يخبر لي يوي جين بأن: «ذلك المكان كله عبارة عن بنايات سامقة ويقطنها أناس كثر».

كان لا يوجد نهير في هذا المكان في الماضي، ولا يوجد جسر حجري أيضاً. وترامى إلى أسماعه صوت أطفال، لكنه ليس صوت غناء الأطفال في الأيام الماضية، بل صوت لعب ومرح أطفال اليوم؛ حيث يهتفون ويصيحون بصوت عال وهم يجلسون على زلاقة الأولاد في منطقة لعب ومرح رياض الأطفال، ويتجاذب أجدادهم وجداتهم أطراف الحديث تارة، ويقومون على رعاية أحفادهم تارة أخرى. وأصبح المكان هنا من الأحياء السكنية الصغيرة، ويوجد أسفل المباني العالية طريق صغير يشبه الفراغ الضيق تسير داخله المركبات والمشاة ذهاباً وإياباً. ويسأل عن مكان النهير، وعن مكان الجسر الحجري، والقاطنون في هذا المكان جاؤوا من أماكن أخرى، وقالوا لا يوجد نهير، ولا يوجد جسر حجري، وليس لهما أثر منذ زمن بعيد. ويسأل: أليس هذا المكان يطلق عليه شارع (خه بان)؟ ويجيبون: نعم. ويسأل أيضاً: أليس هذا المكان كان يطلق عليه شارع (خه بان) في الماضي؟ ويقولون: يبدو أنه كان يطلق عليه شارع (خه بان) فيما مضى.

تسأل لي يوي جين: «لا يوجد نهير، فكيف يطلق عليه شارع خه بان (شارع ضفة النهر)؟».

يقول: «لم يتغير اسم المكان، ولكن تغيرت سائر الأشياء الأخرى».

ويواصل تساؤلاته بصوت خفيض عن مكان الغابة الصغيرة هنا، وفي داخل الغابة توجد أعشاب كثيفة وملتقة يجب أن تشتمل على حجر أخضر، ويخبره شخص ما لا توجد غابة صغيرة، ولكن توجد الأعشاب الكثيفة الملتقة، وتوجد حديقة على جانب الحي السكني الصغير، كما يوجد حجر داخل تلك الأعشاب، وسأل إذا كانت الحديقة بعيدة، ويجب ذلك الشخص أنها قريبة جداً، المسافة إلى هناك تبلغ مئتي متر فقط، ولكن هذه المسافة ما زالت بالنسبة إليه تمثل صعوبة ومشقة مثل تسلق الجبال وعبور النهر.

ويصل إلى تلك الحديقة في وقت الغسق، وذؤابات أشعة الشمس الغاربة تسطع على أرض معشبة، وتتناثر على الأرض المعشبة بضعة أحجار ذات نتوءات بارزة وتتسلط عليها أشعة الشمس الدافئة الغاربة، ويبحث بين تلك الأحجار عن ذاك الحجر في دروب ذاكرته، ويشعر بأنه يوجد بينها عدد من الأحجار ذات اللون الأخضر وتشبه ذاك الحجر الذي جلس عليه في الماضي، ويمشي بخطوات وثيدة إلى جوار ذلك الحجر، ويريد الجلوس فوقه، ولكن جسده لا يطاوع رغائبه وزلت قدماه. ويستطيع أن يستند على الحجر فقط، ويجلس على الأرض النجيلية، ويشعر - في تلك اللحظة - بأنه خائر القوى تماماً، ولا يستطيع النهوض مرة أخرى، وتميل رأسه على الحجر،

ويحملق بنظرات واهية في متشرد يرتدي أسمالاً بالية زرقاء في مكان قريب ويبحث عن طعام في برميل الزبالة. يعثر المتشرد على زجاجة كوكاكولا في الزبالة، وينزع غطاءها ويصبها في فمه، ولم يتبق سوى بضع قطرات، يرفع المتشرد يده ويحركها عدة مرات فوق فمه المفتوح، ثم يرمي هذه الزجاجة في برميل الزبالة، ثم يدير جسمه ويحدق فيه. عيون المتشرد تشبه عيون الصقر، ويسمر نظراته فيه، ويسبل عينيه، وبعد فترة وجيزة، يرفع عينيه، ويرى المتشرد جالساً على كرسي على مقربة من برميل الزبالة، ومازالت نظراته تحملق فيه، ويشعر بأن تلك النظرات تتركز على البزة النظامية الجديدة للسكة الحديدية التي يرتديها.

ويخاطب لي يوي جين قائلاً: «رأيت يانغ فيي يجلس فوق ذلك الحجر».

إنه يعالج سكرات الموت، وغاصت أقدامه في الظلام كأنه غرق في مياه بئر، ويعم الهدوء والسكون كافة الأصقاع. وتتطفئ أنوار البنايات السكنية الباسقة، وتتطفئ مصابيح السماء، ويختفي ضوء القمر، ويظهر في التوكتلة من الأنوار الساطعة اللامعة، ويعد ذلك بمثابة إعادة ظهور تلك الأنوار في المشهد الذي تركني فيه في البداية، ويراني أنا الجالس فوق حجر وأنا في سن الرابعة، وأنا أرتدي زي القوات البحرية حيث اللون الأزرق فيه يتعاقب مع الأبيض، إنه الزي الذي اشتراه لي عندما قرر أن يتخلى عني. طفل يرتدي زي القوات البحرية، ويجلس فوق حجر أخضر، ويهز قدميه بسرور، ويخاطبني بحزن وألم، ويقول: اذهب لشراء بعض الطعام. وأقول بسرور: بابا، اشتر

طعاما كثيراً.

ولكن هذه الكتلة من الأنوار الساطعة تلاشت في طرفة عين،
وبيديه الغليظتين يخلع بالقوة بزته النظامية للسكة الحديدية،
ويستعيد النداء الذي أطلقه مؤقتاً عندما وصل إلى حافة الموت.
ويشعر بأن جسمه مخدر، وإدراكه الباقي جعله يعرف ماذا يفعل
ذاك المتشرد، يخلع المتشرد أسماله البالية الزرقاء، ويرتدي البزة
النظامية، ويقول بصوت ضعيف: أتوسل إليك، أتوسل إليك.
المتشرد يسمع صوته ويحني جسمه، ويقول: مثناً يوان. المتشرد
يتحسس جيب قميصه ويستل منه مثتي يوان ويضعها في جيب
البزة النظامية للسكة الحديدية التي أصبحت ملكاً له توأ. ويقول
بصوت واهن مرة أخرى: أتوسل إليك، أتوسل إليك. المتشرد
يسمع توسله وتضرعه مرة أخرى، ويقف هناك ويحملك فيه فترة
قصيرة، ويجلس القرفصاء ويلبسه الأسمال البالية الزرقاء.
يسمع المتشرد صوته في الرمق الأخير: «شكراً».

الظلام مترامي الأطراف وبلا حدود، ويغوص وسط الكائنات
الحية المندثرة، كما تتلاشى ذاته أيضاً، وبعد ذلك، يبدو أنه سمع
شخصاً ما ينادي: «يانغ فيي»، وينهض واقفاً، ويكتشف وقتئذ
أنه يمشي في سهل فسيح خلاء وحيد مستوحش، وينادي «يانغ
فيي» هو في الواقع ينادي نفسه. يواصل المشي ويستمر في
النداء: يانغ فيي، يانغ فيي، يانغ فيي، يانغ فيي، يانغ فيي، يانغ
فيي، يانغ فيي... وينخفض صوته أكثر فأكثر. ويمشي على درب
طويل جداً في ذلك السهل. ولا يدري إذا كان مشى يوماً أو أياماً
قليلة، ويواصل الهاتف باسمي، ويطلب منه العودة إلى مدينته.
وصوت هتافه «يانغ فيي» يشبه علامة طريق على هذا النحو

ترشده إلى أن يأتي إلى حانوتنا الصغير، وظل واقفاً وقتاً طويلاً قبالة الشارع أمام ذلك الحانوت، ولا يدري بضعة أيام أو أكثر من عشرة أيام، والханوت موصل الباب والنافذة دائماً، وأنا لم أظهر أبداً.

ظل واقفاً وقتاً طويلاً هناك، والمشهد المألوف في كافة البقاع بدا غريباً رويداً رويداً، كما بدأ المشاة والمركبات التي تذرع المكان ذهاباً وإياباً مبهمه، وغير واضحة، ويشعر شعوراً خافياً بأن المكان الذي ظل واقفاً فيه قد أصبح مجرد خيال، وعلى كل حال، الحانوت واضح وبارز للعيان دائماً، وهو ما زال يقف هناك على الدوام، ويتطلع إلى فتح باب الحانوت ونافذته، وأخرج من داخل الحانوت، وأخيراً، يتم فتح باب الحانوت ونافذته، ورأيت امرأة تخرج من الداخل أيضاً، وتدير جسمها وتتحدث مع رجل في داخل الحانوت. ويرى بجلاء أن الرجل داخل الحانوت ليس أنا، ويحني رأسه كأنه فقد شيئاً، ويدير جسمه وينصرف.

وتخبره لي يوي جين بأن: «يانغ فيي باع الحانوت، تذهب وتبحث عن نفسك».

يومئ برأسه قائلاً: «عرفت أن يانغ فيي باع الحانوت عندما رأيت أناساً آخرين يخرجون من هناك».

وبعد ذلك، يمشي دائماً، ويضل الطريق باستمرار، وإصراره على أن يضل الطريق بصورة مستمرة جعله يسمع غناء يشبه العندليب، ويمشي صوب صوت الغناء ويرى العديد من البشر من ذوي الهياكل العظمية يذرعون المكان جيئةً وذهاباً، ويقوم بحركة مكوكية بينهم، وصوت الغناء الذي يشبه العندليب يقوده إلى داخل الغابة، أوراق أشجارها كبيرة وعريضة. وفوق بعض

تلك الأوراق يتمدد أطفال رضع وتتراقص أجسادهم، وينبعث من هنا صوت ذاك الغناء. امرأة ترتدي ملابس بيضاء تخرج من بين الأشجار والأعشاب الكثيفة ويتعرف عليها ابنها (لي يوي جين) التي بدورها تتعرف عليه أيضاً، وفي هذه الأثناء، كان جسدها في حالة سليمة وجيدة، ويقفان وسط هؤلاء الأطفال الذين يصدر عنهم صوت غناء يشبه العندليب، ويسرد كل منهما لحظته الأخيرة في عالم هذه الدنيا. ويتقصى أخباري من لي يوي جين التي لا تتذكر سوى المشهد الأخير، وهو سفري إلى قريتها، ولا تعرف ما جرى بعد ذلك.

يشعر بالإعياء الشديد، ويمدد جسمه لبضعة أيام وسط سبعة وعشرين طفلاً رضيعاً يصدحون بالغناء مثل العندليب، يطرح جسمه على الأعشاب الكثيفة والملتفة تحت أوراق الأشجار. وبعد ذلك، ينهض واقفاً، ويخبر لي يوي جين بأنه يشاق إليها، ويشاق إلى رؤيتي أيضاً، حتى لو استطاع أن يلقي نظرة من بعيد، فذلك يجعله يشعر بالرضا الذاتي. يسير على درب طويل مرة أخرى ويتجشم مصاعب المشي مثل تسلق الجبال وعبور النهر، ويضل الطريق باستمرار في دوامة فقدانه وضياح الطريق منه بصورة مستمرة، وعلى كل حال، لا يستطيع الاقتراب من المدينة لأنه قد غادر هذا العالم منذ رح طوليل ويمشي نهاراً وليلاً، وأخيراً يصل إلى مؤسسة الخدمات الجنائزية التي تعتبر بمثابة نقطة التقاء بين عالم المحيا وعالم الممات.

يدلف إلى الردهة الكبيرة لحرق الجثث في مؤسسة الخدمات الجنائزية كما دخلتها أنا للمرة الأولى، وسمعت الذين ينتظرون حرق أجسادهم يناقشون أكفانهم، وعلب رفاتهم، وقبورهم،

ورأيتهم يدخلون غرفة المحرقة الواحد تلو الآخر. ولم يجلس، بل ظل واقفاً هنا على الدوام، وبعد ذلك يشعر بأنه يجب أن يكون هناك عامل في ردهة حرق الجثث، وهو عامل يعشق عمله. وعندما يدخل منتظر حرق جثته جاء متأخراً لم يتمالك نفسه عن الترحيب به، وسحب له رقماً من الماكينة، كما أرشده إلى المقعد ليجلس، وبعد ذلك، يشعر بأنه يشبه العامل الذي يعمل هنا تماماً، ويذرع الممر في المنتصف جيئة وذهاباً. وذات يوم، يمد يده بغير قصد وتدخل جيب الأسمال البالية الزرقاء التي قام المتشرد بتلبسها إياه، ويتحسس في داخلها القفازات المهترئة البيضاء، وبعد أن يرتديها يشعر بأنه مثل العامل الرسمي في تلك الردهة. ومع كر الأيام، أصبح أمام منتظري حرق جثثهم العامل المؤدب الذي يضطلع بواجباته، ومع كر الأيام أصبح مفعماً بالتطلعات الجميلة، ويدرك أنه يريد أن يقوم بالخدمة والرعاية في هذا المكان لمدة ثلاثين عاماً، أو أربعين عاماً، خمسين عاماً.. حتى يستطيع رؤيتي.

يتوقف صوت لي يون جين عند هذا الحد بصورة مؤقتة. وأعرف مكان والدي، إنه ذاك الشخص الذي يرتدي الأسمال الزرقاء والقفازات البيضاء في ردهة حرق الجثث في مؤسسة الخدمات الجنائزية، ووجهه عبارة عن هيكل عظمي وخال تاماً من اللحم، إنه الرجل صاحب الصوت المنهوك، الحزين المهموم، إنه والدي.

صوت لي يون جين يدوي مرة أخرى، وقالت إن والدي حضر هنا قادماً من مؤسسة الخدمات الجنائزية، وواصل السير حتى وصل إليها، وسرد لها كيفية دخوله لردهة حرق الجثث في تلك

المؤسسة، وكيفية جعل نفسه يحصل هناك على وظيفة، وبعد أن فرغ من كلامه، يدير جسمه وينصرف، وتقول لي يوي جين إنه كان في عجالة من أمره، ربما بسبب أنه لا يجوز أن يترك عمله هناك.

صوت لي يوي جين يشبه صوت قطرات الماء، وكل كلمة تتطرق بها مثل قطرة ماء ترتطم بأديم الأرض.

اليوم السادس

يأتي ضال إلى هنا مترجلا، ويثن من وطأة التردد والحيرة، ويحمل في جعبته أخبارا يقدمها للفتاة شومبي بشأن صديقها الذي يعيش في عالم آخر.

ويمشي هذا الشاب بيننا، وينظر في حيرة إلى العشب الأخضر المنتشر على أديم الأرض والأشجار المورقة، كما يحملق بارتباك في المترجلين هنا، وفي العديد من ذوي الهياكل العظمية، وفي كوكبة من ذوي الأجسام السليمة، ويحدث نفسه: «كيف حضرت إلى هنا؟».

ويردف قائلا: «يبدو أنني كنت دائما في حركة ذهاب وإياب طوال خمسة أيام، ولم يدر بخلدي أن تقودني قدمي إلى هنا». هناك صوت بجواري يخبرني قائلا: «هناك إنسان يموت ويأتي إلى هنا في غضون يوم واحد، وهناك إنسان يموت ولا يحضر هنا إلا بعد بضعة أيام».

ويسأل في ارتياب شديد: «هل أنا ميت؟».

ويسأل هذا الصوت: «هل ذهبت إلى مؤسسة الخدمات الجنائزية؟».

ويسأل أيضا: «أين مؤسسة الخدمات الجنائزية؟، لماذا يجب أن أذهب إلى هناك؟».

«الإنسان الذي يموت يجب أن يذهب إلى تلك المؤسسة لحرق

جسده».

يجيل بصره نحونا في ارتياب، ويسأل: «أنتم حرقتم أجسادكم؟، يبدو أنكم لا تشبهون رماد العظام المعبأ في علب».

«لم تحرق أجسادنا بعد».

«وأنتم لم تذهبوا إلى مؤسسة الخدمات الجنائزية، أليس كذلك؟».

«لقد ذهبنا إلى تلك المؤسسة».

«ذهبتم إلى هناك، فلماذا لم تحرقوا أجسادكم؟».

«نفتقر إلى قبور».

يدمدم قائلاً: «وأنا ليس عندي قبر أيضاً، ولماذا أموت؟».

يقول صوت آخر: «سيأتي شخص من الخلف ويخبرك بذلك».

ويهز رأسه قائلاً: «قابلت رجلاً للتو، وذكر أنه حضر في الحال، ولا يعرفني، وهو لا يعرف كيف حضرت أنا إلى هنا، كما أنه لا يعرف أيضاً كيف جاء إلى هنا».

أستعد للتوجه إلى الردهة الكبيرة لمنتظري حرق أجسادهم في مؤسسة الخدمات الجنائزية من أجل رؤية والدي، والآن يطلب مني ذاك الشاب أن تتسمر قدمي مكانهما. ويبدو جسمه مفلطحاً بعض الشيء، وهناك آثار غريبة على ملابسه الأمامية، وبعد أن فحصتها بدقة، شعرت بأنها بقايا آثار تركتها عجلة سيارة.

وأسأله: «أستطيع أن تتذكر المشهد الأخير؟».

ويسألني: «أي مشهد؟».

أقول: «فكر وحاول أن تتذكر جيداً، ماذا حدث في نهاية

المطاف؟».

تظهر على وجهه علائم استرجاع الماضي بجهد جهيد، ويقول بعد فترة قصيرة: «أتذكر فقط الضباب الكثيف جداً، وأقف في الشارع انتظاراً لقدوم حافلة النقل العام، ولم أتذكر ثمة شيئاً آخر».

وجال بخاطري مشهد اليوم الأول الذي غادرت فيه غرفتي المستأجرة وترجلت وسط الضباب الكثيف، وعندما كنت أجتاز محطة الحافلات العامة، دوى صوت اصطدام العديد من السيارات دويًا شديدًا، كما تمر مركبة كبيرة وسط الضباب الكثيف وتتطلق إلى الخارج، وتحدث - في التو- هديرًا من الصراخ والألم مثل الماء المغلي.

ويسألني: «هل كنت واقفا بجوار تلك اللافتة؟».

وبعد أن فكرت قليلاً، أقول: «بلى، كنت واقفا هناك».

«هل كانت اللافتة تشتمل على رقم الحافلة (203)؟».

يهز رأسه، ويقول: «يوجد رقم الحافلة (203)، وكنت أنتظر هذه الحافلة».

وأخبره: «إنهم أرسلوك إلى هنا من جراء حادثة سير، وملابسك ملطخة بأثار إطار العجلة». ينكس رأسه، ويحدق في ملابسه الأمامية، ويبدو أنه أدرك شيئاً ما، ويقول: «لقد عاجلتني المنية في حادثة سير، أليس كذلك؟، يبدو أن شيئاً ما صدمني وطرحني أرضاً، كما دهس جسمي».

يحملق في وجهي، كما يفتحص بدقة الهياكل العظمية بجواره، ويخاطبني قائلاً: «أنت لست مثلهم».

أقول: «حضرت توا، أنتم حضرتم منذ ربح طويل».

يقول هيكل عظمي: «أنتم ستكونون مثلنا بسرعة جداً».

أخاطبه قائلاً: «بعد انتهاء فصل الربيع، وانقضاء فصل الصيف مرة أخرى، نحن سنكون مثلهم تماماً».

تبدو تعابير عدم الاطمئنان على وجهه، ويسأل ذاك الهيكل العظمي: «هل نشعر بألم شديد حتى نكون مثلكم؟».

يجيب الهيكل العظمي: «ليس مؤلماً، وذلك يشبه أوراق الأشجار التي تتساقط الواحدة تلو الأخرى وسط ريح الخريف».

يقول: «ولكن أوراق الأشجار تنمو من جديد وتكبر».

يقول الهيكل العظمي: «ونحن لا ننمو مرة أخرى، ولا نكبر أيضاً».

يبدو غارقاً في التفكير، ويطأطئ رأسه ويقول: «أعرف ذلك». في هذه الأثناء، يترامى إلى مسامعنا صوت امرأة يقول: «شياو تشينغ».

يقول: «يبدو هناك شخص ما لا يزال يناديك».

يدوي صوت المرأة مرة أخرى، ويقول: «شياو تشينغ».

يجيل بصره في كافة الأصقاع، ويغص وجهه بالشك والارتباب،

ويقول: «غريب حقاً، يوجد هنا أناس أيضاً يعرفونني».

«يا شياو تشينغ، أنا هنا».

الفتاة شومي في حالة حراك وسير الآن، وترتدي بنطالا

رجاليا فضفاضاً، وتدوس على أرجل البنطال وهي تمشي. وذلك

الشاب الذي يدعى (شياو تشينغ) يحملق مصعوقاً في وجه الفتاة

شومي التي تترجل وصوتها يسبقها في الأمام.

«يا شياو تشينغ، أنا شومي».

«أنت تسمع هذا الصوت لا يشبه صوتي، ولكن أنا شومي

عندما تراني».

«أنا شومبي حقا».

«هل أنت شومبي حقا؟».

«أجل، أنا شومبي حقا».

تمشي شومبي وتتقدم إلى أمامي، وتسأل شياو تشينغ: «كيف حضرت هنا أيضا؟».

شياو تشينغ يشير إلى صدره، ويقول: «بسبب حادثة سير».
تنظر شومبي إلى آثار إطار العجلة على ملابس شياو تشينغ،
وتسأله: «ما هذا؟».

يجيب شياو تشينغ: «مشت السيارة فوقى ودهستي».

تسأل شومبي: «هل شعرت بالألم؟».

يفكر شياو تشينغ برهة، ويقول: «لا أتذكر، يبدو أنني صرخت
صرخة».

تطأ طئ شومبي رأسها، وتسأله: «هل رأيت الشاب
(وو تشاو)؟».

يجيب شياو تشينغ: «نعم رأيته».

«متى رأيته؟».

«لقد رأيته قبل حضوري هنا اليوم».

تدير شومبي جسمها وتخبرنا بأنه في ذاك الجانب يوجد
العالم الذي يقيم فيه شياو تشينغ مع زمرة الجردان في ملجأ
ضد الغارات الجوية تحت الأرض، وهي وصديقتها (ووتشاو)
يعرفانه منذ قبل سنة وأكثر، وكانوا جيرانا يعيشون تحت الأرض
معا. شومبي تسأل شياو تشينغ: «هل يعرف (ووتشاو) قصتي؟».
يجيب شياو تشينغ: «يعرف قصتك، وقد اشترى قبراً من
أجلك».

«هل اشترى قبراً من أجلي؟».

«بلى، وأعطاني النقود وطلب مني أن أشتري لك قبراً».

«من أين حصل على النقود التي أعطاكها لتشتري قبراً لي؟».

* * *

عندما هوت شومبي من أعلى بناية القصر، ولقيت حتفها، كان (ووتشاو) في بيت الأهل يقوم على خدمة والده الذي أصبح مطية المرض. وانتظر حتى استقرت أحواله الصحية، وبعد ذلك رجع بسرعة إلى مسكنه تحت الأرض في المدينة، وكان ذلك في منتصف الليل، ولم ير شومبي، وينادي عدة مرات بصوت خافت، ولم يستجب أحد. زمرة الجرذان في ملجأ ضد الغارات الجوية يحلمون بمسقط رأسهم، وهو يمشي على امتداد الممر الضيق، ويبحث عن أناس يتكلمون، ويشعر بأن شومبي ربما تتجاذب أطراف الحديث مع أناس خلف ستارة. ولم يسمع صوت أناس يتحدثون، وسمع فقط شخير الرجال وهذيان النساء، فضلاً عن صوت بكاء الأطفال الرضع. كما شعر أيضاً بأن شومبي ربما تجلس في قاعة الكومبيوتر، وتحدث مع أناس على الشبكة العنكبوتية، ويتخذ وجهته إزاء مخرج ذلك الملجأ، ويرى الشاب شياو تشينغ يعود أدراجه بعد انتهاء الدوام الليلي ويخبره بأن شومبي ليست موجودة في هذه الدنيا، لقد رحلت عن عالمنا، وماتت قبل ثلاثة أيام.

ويقول شياو تشينغ إن (وو شاو) لم يتبدل ولم يتغير بعد أن سمع أن شومبي انتحرت بعد أن قفزت من أعلى بناية قصر (بينغ فيي)، وبعد فترة قصيرة يرتعد جسمه كله، وبهز رأسه باستمرار ويقول: مستحيل، مستحيل، ثم يهرول إلى مخرج ذلك الملجأ.

يهول (ووتشاو) إلى أقرب قاعة كومبيوتر من مسكنه تحت الأرض، ويجلس أمام الكومبيوتر ويقرأ السجل اليومي الذي كتبه شومي في الفضاء الافتراضي على الفيسبوك الصيني «كيوكيو» (QQ)، كما قرأ تقريراً حول انتحار شومي. وفي تلك الأثناء يصدق بصورة كاملة أن شومي قد فارقت هذه الدنيا، وقد فارقت إلى الأبد أيضاً.

يجلس (وو تشاو) أمام شاشة الكومبيوتر المضئية كأنه غائب عن وعيه حتى تعتم الشاشة بصورة فجائية وتصبح سوداء، وينهض واقفاً ويغادر قاعة الكومبيوتر، ويرى غريباً يترجل في هدأة وسكون الليل البهيم، ويأتي من مكان ناء، ويخاطب ذاك الغريب بصوت مرتعش قائلاً: إن شومي قد ودعت هذه الدنيا.

ينتفض ذلك الغريب ذعراً، ويعتقد أنه صادف مصاباً بمرض عقلي، ويخطو إلى الشارع المقابل بخطوات واسعة، وعندما يمشي يلف رأسه إلى الخلف بحذر وخوف وتتسمر نظراته في وجهه.

وو تشاو يشبه الشبح الذي يتجول ويطوف في قساوة برودة الريح التي تهب على المدينة. ويمشي الهوينى بلا هدف في المدينة التي يلفها ظلام الليل الدامس، ولا يدري كم مضى من الوقت في تجواله، ولا يدري الأماكن التي طاف بها، وحتى عندما مر بجوار قصر بناية (بينغ فيي) لم يرفع رأسه، ولم يلق نظرة عابرة عليه. ومضى قدماً في تجواله حتى انبلاج النهار، وما زالت نفسه أسيرة الحيرة والتشوش الذهني، وفي الصباح الباكر تتزاحم الجماهير وتضج في ذهابها إلى الدوام، ولا يكف لسانه عن الكلام، ويقول باستمرار إن شومي يوارىها الثرى.

أمارات التجاهل وعدم اللامبالاه تملو وجوه الذين يقابلهم (وو تشاو) في الشارع، غير أن أحد المشاة يمشي بجواره جنباً إلى جنب، ويرى دموعه تنهمر بلا انقطاع، ويتكلم بصورة مستمرة، ويسأله في فضول: من هي الفتاة شومبي؟ يفكر مشدوها ذاهلاً فترة قصيرة، ويجيب: إنها الفتاة (ليومي). يومئ ذاك الرجل برأسه ويقول لا أعرفها، وينعطف انعطافة وينصرف إلى غايته، ويرى (وو تشاو) طيفه وهو ينصرف، ويقول بصوت خفيض: إنها صديقتي.

وعندما أسدل الليل سدوله، يعود (وو تشاو) أدراجه إلى مسكنه بسرعة تحت الأرض، ويمدد جسمه على السرير الذي كان يتقاسمه مع شومبي، وتعلو وجهه ملامح اللهب الشارد، وفي منتصف الفراش يغط في نوم عميق مرات عديدة، كما في حلمه يستيقظ على صوت بكاء مرات عديدة أيضاً.

وفي اليوم التالي، يستلقي على الفراش، ولم تتثقل دموعه، ولم يبك أبداً، ولم يتناول الطعام ولا الشراب، ويسمع مذهولاً صوت اضطلاع الجيران تحت الأرض بالطبخ، كما يسمع أصوات أحاديثهم، ناهيك عن أصوات ركض وصياح الأطفال في ملجأ ضد الغارات الجوية، ولا يدري ماذا يفعلون، وماذا يقولون، وكل ما يدركه أن هناك أصواتاً تتماوج، تعلو حيناً، وتخفض حيناً آخر.

يسقط في هاوية ذكريات الماضي، وترتسم علامات البهجة والفرحة على وجه شومبي من حين لآخر، بالإضافة إلى أمارات الحزن والهم حيناً بعد حين، ووجهها يشرق ويتلألأ فترة من الوقت، ويظلم ويعتم فترة أخرى. وبعد انقضاء فترة طويلة من

الزمن، يدرك أن الخطوة التالية التي يجب أن يقوم بها هي أن يبحث - على جناح السرعة- عن أرض الراحة الأبدية من أجل شومبي. وكانت شومبي مفعمة بالآمال والتطلعات في حياتها، ويبدو أنه لم يجعلها تحقق شيئاً من ذلك، وتجأر بالشكوى المرة تلو الأخرى، ثم بعد ذلك تتسلى تدمرها بالشكوى مرة بعد مرة، وتبدأ تحدوها تطلعات جديدة. الآن يشعر بأن امتلاك قبر يجب أن يكون آخر تطلعاتها، ولكن ما زالت تفتقر إلى المقدرة على تحقيق ذلك.

في هذه الأثناء، ينبثق صوت رجل وسط جلبة وضوضاء تلك الأصوات المختلطة ك رأس النصل يشق الجعبة، ويجعله يسمع بجلاء القصة التي يسردها ذاك الرجل الآن من أن شخصاً كسب أكثر من ثلاثين ألف يوان بعد أن باع كليته. يجلس على السرير ويفكر جيداً أن يبيع كليته ويحصل على أموال تمكنه من شراء قبر من أجل شومبي.

يخرج من ملجأ ضد الفارات الجوية، ويدلف إلى قاعة الكمبيوتر. ويتذكر أنه قرأ أخباراً عن بيع الكلية عندما كان يتصفح أخبار الإنترنت، ويسجل رقم الهاتف في بطن الراحة، وينصرف من قاعة الكمبيوتر، ويعرج على كشك التلفون العمومي ويتصل بذاك الرقم. متلقي المكاملة الهاتفية يسأله بالتفصيل ويتأكد تماماً أنه يبيع كليته، ويحدد موعداً لمقابلته أمام بناية قصر (بينغ فيي)، ويرتعد قلبه خوفاً عندما سمع اسم ذاك القصر فقد سقطت هناك شومبي من أعلاه.

يصل نهاية قصر (بينغ فيي)، وحركة المركبات والمشاة ذهاباً وإياباً تحدث ضجيجاً وعجيجاً، ويقف هو وظله حيناً إلى حين،

والحافلات العامة تدخل وتخرج الواحدة تلو الأخرى من الكراج تحت الأرض المجاورة له، ويرفع رأسه مرات عديدة، ويحدق في أشعة الشمس المتلألئة على زجاج القصر والتي توجع العين، ولا يعرف المكان الذي وقفت فيه شومبي عندما انتحرت.

يمشي رجل يرتدي معطفا أسود محشوا بالريش، ويقف أمامه ويسأل بصوت خافت: «أأنت وو تشاو؟».

وو تشاو يهز رأسه، ويقول ذاك الرجل بصوت خفيض: «امش معي».

وو تشاو وذاك الرجل يزاحمان ويستقلان حافلة الركاب، وينزلان من الحافلة بعد عدة محطات، ثم يركبان حافلة أخرى. وبعد أن يركبا ويغيرا الحافلات ست مرات، يبدو أنهما وصلا إلى ضاحية قريبة، وو تشاو يسير وراء ذاك الرجل ويصلا إلى مدخل حي سكني صغير، ويطلب ذاك الرجل من وو تشاو أن يمشي إلى الداخل على طول، بينما هو يقف عند مدخل الحي السكني ويتصل هاتفيا. يدخل وو تشاو هذا الحي السكني الصغير الذي يسوده الهدوء والسكون، ويرى في مكان ليس بعيدا بناية سكنية يظهر أمامها رجل يدخن سيجارة، ويقرب منه وو تشاو، يرمي هذا المدخن عقب السيجارة على الأرض ويدهسه بقدمه، ويسأله: «هل أنت تبيع الكلى؟».

يومئ وو تشاو برأسه، ويلوح ذاك الرجل بيده، ويطلب من وو تشاو أن يقتفي أثره، ويدلف إلى بناية سكنية، ويمشي على امتداد السلم الإسمنتي المرقش، ويصل إلى غرفة تحت الأرض، وبعد أن يفتح ذاك الرجل باب تلك الغرفة، يخرج الهواء الملوث والمشبّع بالروائح الكريهة من التدخين، وفي ظل ضوء المصباح

الخافت، يرى وو تشاو سبعة أشخاص في الداخل يدخلون السيجار، ويجلسون على الفراش ويتجاذبون أطراف الحديث، وهناك سرير خال ويمشي إليه وو تشاو.

يسلم وو تشاو بطاقة هويته، ويوقع على اتفاق بيع الكلية، وبعد سحب دمه وتحليله ينتظر تطابق فصيلة الدم، وبدأ يعيش حياة أخرى تحت الأرض، وينام داخل لحاف ملطخ بالزيت الأمس، وذاك اللحاف لم يغسل أبداً، ولا يدري عدد الأشخاص الذين تغطوا به في نومهم، وتفوح الروائح العفنة من الأجساد والأقدام والعرق. وذاك الرجل الذي أخذه إلى غرفة تحت الأرض، يدخل ويخرج مرتين كل يوم، ويشترى لهم علب السجائر الرخيصة، ويرسل الطعام مرتين، يأكلون الملفوف الصيني والبطاطس في الظهر، ويتناولون البطاطس والملفوف الصيني في المساء. ولا توجد طاوولات ولا كراسٍ تحت الأرض، ويجلسون على الأسرة ويتناولون الطعام، وهناك شخصان يجلسان القرفصاء دائماً ويتناولان الطعام. وتفوح نكهة الطعام اللذيذ من تحت الأرض لفترة من الزمن، بيد أن دخان سجائر هؤلاء الأشخاص السبعة الذين يتناولون التدخين يمكن أن تخدم النكهة الذكية، وعندما يغطون في النوم، يستيقظ وو تشاو في خضم دخان السجائر الكثيف، ويشعر بالاختناق في صدره ويتألم كثيراً.

هؤلاء الأشخاص السبعة من الشباب، ويعيشون عيشة البطالة من التدخين والدردشة، يرددشون حول أحوال مواقع البناء والتشييد، والمصانع، والشركات، ويبدو أنهم اشتغلوا في العديد من الأعمال. ويبيعون كلاهم من أجل الكسب السريع للمال، ويقولون الاشتغال عتال لبضع سنوات لا يكسبك نقوداً

تعاذل بيع كلية واحدة. ويتطلعون إلى حياة ما بعد بيع الكلى، حيث يستطيعون شراء الملابس الأنيقة، وشراء الهواتف الخليوية Iphade، كما يستطيعون الإقامة في الفنادق الفاخرة بضع ليال، ويتناولون عدة وجبات في المطاعم الفخمة، وبعد التثبيت بتلك التطلعات يقعون فريسة للشعور بالقلق والهم، وينتظر هؤلاء الأفراد السبعة هنا لأكثر من شهر، وما زالت الأخبار عن تطابق فصيلة الدم بنجاح غير متوفرة. ومن بينهم شاب غشي أوكار بيع الكلى في خمس مدن، ومكث في كل وكر أقل من شهرين، ثم أجبر على الانصراف، وذكر أنه لا يوجد أحد يريد كليته، وتجار الكلى أعطوا له فقط مصارييف الطريق بما يتراوح بين أربعين وخمسين يوانا، واعتمد على هذا المبلغ في شراء تذكرة قطار، ويذهب إلى وكر آخر لبيع الكلى في مدينة أخرى. وقال إنه لا يمتلك فلسا واحدا، ويستطيع فقط أن يعيش عيشة المتسول في أوكار بيع الكلى تباعا.

ويبدو أن ذاك الشاب خبير ومجرب عركته الحياة، ويتذمر البعض من أن الطعام هنا رديء جدا، ويقول ليس الملفوف الصيني والبطاطس، بل نقول البطاطس والملفوف الصيني، وأضاف أن الطعام هنا لا يعتبر سيئا، ونستطيع كل أسبوع أن نأكل جبن فول الصويا مرة واحدة، ونحتسي شوربة الدجاجة منزوعة اللحم مرة واحدة أيضا، وذكر أنه غشي وكرا لبيع الكلى، ومكث هناك شهرين ويأكل الخضراوات العفنة كل يوم. وهناك شاب آخر يخشى على سلامة حياته إذا أجرى عملية استئصال الكلية، وتدل نبذة صوته على أنه خبير في هذا الشأن، ويذكر أن كلامنا هنا ليس صائبا، ويعتمد ذلك على الحظ بصورة كاملة. وأردف

أن تجار الكلى من عديمي الضمير، وأصحاب الضمائر الحية لا يتجرون في الكلى، ومن أجل كسب المال لا يستعين هؤلاء التجار بالطبيب النظامي لأن أجره غال جدا، ومن ثم يستعينون بالطبيب البيطري في عملية استئصال الكلى.

وقد قيل إن الطبيب البيطري يستأصل كلية ذاك الشاب، فيشعر «نفر من الشباب الآخرين بالغضب والغيظ، ويقولون إن تجار الكلى الأوغاد يكسبون أموالا طائلة، وأخلاقهم منحطة إلى هذا الحد».

ومع ذلك، يقابل ذاك الشباب المخيف بلا خوف، ويقول: هل تضاعل عدد البشر من ذوي الأخلاق المنحطة، والأحوال المزرية السقيمة في تلك السنوات؟ وفضلا عن ذلك الطبيب البيطري هو طبيب بشري، وهؤلاء الأطباء البيطريون متخصصون في استئصال كلية الإنسان، واكتسبوا المهارة بالتجربة بفضل إجراء الكثير من عمليات استئصال الكلى، وربما فن الطب أكثر براعة وحكمة من الطبيب الجراح في المستشفى النظامي.

وتنتاب ذاك الشاب سيرة من الغضب لأنه لم يتوقع أنه لا يوجد أحد يشتري كليته. ويقول إنه من منكودي الطالع، وتطابق فصيلة الدم لم تتجح أبدا. ويقول تشهد كافة أرجاء البلاد مليون مريض بالكلى كل سنة، ويعتمدون على الاستفراز⁽¹⁾ للبقاء على قيد الحياة، وإن العمليات الخاصة بزراعة الكلى بصورة شرعية تبلغ حوالي أربعة آلاف عملية فقط. ولماذا لا يوجد أحد يريد كليته؟ وبعد ذلك نسبة واحد في المليون. ومن المؤكد أن هؤلاء

(1) الاستفراز: عملية إفراز المواد المتبلورة (أو المنحلة) من رسوب متعلق في محلول بفعل قدرة الجزيئات على التخلل في غشاء قابل للتخلل فيه وتكون هذه العملية في استفراز الشوائب من الدم عند عجز الكلية عن الإفراز (أو تصفية الدم). [الترجم]

المسؤولين عن تطابق فصيلة الدم سواء من الرجال الأوغاد أو النسوة القبيحات لا يضطلعون بعملهم بصورة دقيقة، وأرجؤوا عملية كليته النابضة بالحياة حوالي سنة تقريباً. وقال إذا أجبر على المغادرة مرة أخرى، فإنه يغشى المعبد - أولاً - ويحرق البخور ويتضرع لبوذا بأن يغمده بالرعاية والحماية، ويجعله يبيع كليته في أسرع وقت ممكن، ثم يشتري تذكرة القطار ويقفز داخله ويدلف إلى وكر بيع الكلى.

وو تشاو لم يفه بحرف بعد أن حضر إلى الغرفة تحت الأرض، ويسمع بعدم اكتراث ثرثرتهم، وما زال يلتزم الصمت حتى عندما سمع أن الطبيب البيطري سيجري عملية استئصال الكلية، بيد أنه شعر بالحزن الشديد في فترات زمنية طويلة عندما يتذكر صديقه شومبي. كما يتوسل إلى بوذا أن يمكنه من تحقيق نجاح تطابق فصيلة الدم بأسرع ما يمكن، وبعد أن يبيع كليته يستطيع في التو أن يشتري قبراً من أجل شومبي. وعلى كل حال، هؤلاء الشبان السبعة الذين يقطنون في غرفة تحت الأرض انتظروا وقتاً طويلاً جداً، ومن بينهم شاب ما زال تطابق فصيلة دمه لم ينجح منذ حوالي سنة، مما جعله فريسة للهموم والأحزان وعدم الاطمئنان، ويهاجمه الأرق ويقض مضجعه، ويتقلب في فراشه ولم يذق طعم النوم فوق سرير ملطخ بالأوساخ ويكتظ بالروائح الكريهة.

وفي اليوم السادس لمجيئه إلى الغرفة تحت الأرض، كان ذلك بمثابة ميقات خروجهم من الغرف لتسلم الطعام، ولا يظهرون في أي وقت من الأوقات الأخرى، ويفتح ذلك الشاب الباب وينادي: «وو تشاو».

لا يزال وو تشاو قابعا داخل اللحاف المملطخ بالزيت الأملس، ولم يستجب للنداء، كما أن الشباب السبعة الآخرين في الغرفة تحت الأرض يتبادلون النظرات مراراً وتكراراً، ويدركون أن الشاب المنادى عليه ليس من بينهم، بل إنه الشاب الذي بعد أن دخل غرفته لم ينطق بكلمة، وينادون في ذهول ودهشة: «اخرج بسرعة».

الواقف أمام الباب يقول: «وو تشاو، لقد نجح تطابق فصيلة الدم».

يرفع وو تشاو اللحاف المملطخ بالزيت، ويحظى بالإعجاب من قبل الشباب السبعة الآخرين، ويرتدي ملابس وحذاءه، وعندما يترجل نحو الباب يخاطبه ذاك الرجل الذي ذهب إلى أوكار بيع الكلى في خمس مدن، قائلاً:

«أنت أصابك الثراء الفاحش في هدوء وبلا ضجة».

يتبع وو تشاو خطوات ذلك الرجل ويسيران على امتداد السلم الإسمنتي المرقش، ويصعدان إلى الطابق الرابع، ويترقان على الباب، وبعد أن يفتح الباب، يرى وو تشاو رجلاً متوسط العمر يجلس على الأريكة، ويطلب منه بصورة حميمة أن يجلس، ثم يشرح له أن جسم الإنسان يحتاج إلى كلية واحدة فقط في الواقع، وأن الكلية الأخرى زائدة مثل الزائدة الدودية يمكن أن تبقى داخل جسم الإنسان، كما يمكن استئصالها أيضاً.

وو تشاو لا يعير ذلك اهتماماً، ويسأل ذلك الرجل متوسط العمر: «ما ثمن شراء الكلية الواحدة؟».

الرجل متوسط العمر يجيب: «خمس وثلاثون ألف يوان

صيني».

وو تشاو يومئ برأسه بعد أن يشعر بأن هذا المبلغ يكفي لشراء قبر.

يقول الرجل متوسط العمر: «نشترى الكلية هنا بأعلى سعر، بينما في الأماكن الأخرى يدفعون ثلاثين ألفا فقط».

الرجل المتوسط يخبر وو تشاو بأنه لا داعي للخوف من إجراء العملية الجراحية، وأنهم يطلبون أطباء من كبريات المستشفيات، وأن هؤلاء الأطباء يجرون تلك العملية مقابل الحصول على دخل زائد.

يقول وو تشاو: «إنهم يقولون إن الطبيب البيطري يجري العملية».

الرجل متوسط العمر غير مسرور جدا، ويقول: «الأطباء الذين نستعين بهم جميعهم من الأطباء الجراحين النظاميين ويتقاضون خمسة آلاف يوان مقابل استئصال الكلية الواحدة».

يقطن وو تشاو في غرفة بالطابق الخامس، ويوجد داخلها أربعة أسرة، وهناك شخص واحد فقط يرقد في الغرفة، إنه خضع لعملية استئصال الكلية، وعندما يرى وو تشاو يدخل الغرفة، يبتسم بصورة حميمة، ويبادلته وو تشاو الابتسامة أيضا. وقد نجحت عملية استئصال كلية ذلك الشخص نجاحا كبيرا، حيث يتمكن من أن يسند جسمه، وينهض واقفا متكئا على رأس السرير، ويتحدث مع وو تشاو. ويقول إنه لم يعد يشعر بالحمى مرة أخرى، ويستطيع مغادرة المستشفى في غضون بضعة أيام. ويسأل وو تشاو: لماذا تريد أن تبيع كليتك؟ ينكس وو تشاو رأسه ويفكر قليلا، ويخاطبه قائلا:

«من أجل صديقتي».

يقول ذلك الشخص: «مثلي تماما».

ذلك الشخص يخبر وو تشاو بأنه تعرّف إلى صديقه منذ ثلاث سنوات في مسقط رأسه بالريف، وبأنه يرغب في زواجها، ولكن أهل بيتها يشترطون بناء بيت في المقام الأول حتى يستطيع زواجها. ومن ثم خرجت للعمل وكسبت منه مالا ضئيلا يثير الشفقة من جانب الآخرين، ويتعين عليّ أن أعمل فترة تتراوح بين ثماني سنواتن وعشر حتى أستطيع كسب المال اللازم لبناء البيت. وفي تلك الأثناء تتزوج صديقتي من شخص آخر في وقت مبكر. وأنا في حاجة ماسة إلى المال لبناء البيت، ولذلك جئت هنا لأبيع كليتي، وأردف قائلا: «كسب المال يكون سريعا هنا».

يفتر ثغره عن ابتسامة وهو يتكلم، ويقول إنهم مثله تماما، لا يفكرون في الزواج ما داموا يفتقرون إلى بيت. ويسأل وو تشاو: أتوجد مثل هذه العادة في قريتك أيضا؟

بطأطيء وو تشاو رأسه، والدموع تخضب عينيه بصورة فجائية، ويتذكر صديقه شومي ويذكر الفقر المدقع الذي يطارده دائما وجعله كسير الفؤاد، وينكس رأسه حتى يوارى دموعه عن ذلك الشخص.

يرفع رأسه ويسأل بعد فترة وجيزة: «لماذا لا تخرج صديقتك للعمل؟».

يقول ذلك الشخص: «ترغب في الخروج والعمل، ولكنّ أباهما مصاب بالشلل، وأمها مريضة أيضا، وهي الابنة الوحيدة لديهما، وليس عندهما أولاد، ولذلك لا يمكن أن تترك البيت وتعمل».

يتذكر وو تشاو مصير شومي، ويقول جملة بلا تفكير: «من الأفضل ألا تعمل».

وتختلف الحياة في الطابق الخامس اختلافا كبيرا عن نظيرتها في غرفة تحت الأرض حيث لا يوجد هواء ملوث وفاسد، واللحاف نظيف، وهناك أشعة الشمس في النهار، وضوء القمر في الليل. وتستطيع في البكور أن تأكل بيضة وفطيرة البخار، وتحسسي سلطانية مرقة الرز، وتأكل علبة طعام في الظهر والمساء، ويوجد داخلها لحم حينا، وسماك حينا آخر.

وو تشاو يستيقظ من نومه ويغمره ضوء الشمس، ويغط في النوم وسط نور القمر. وفي هذه المدينة لم يستمتع بمثل تلك الحياة منذ فترة طويلة جدا، وقد عاش أكثر من سنة تقريبا يستيقظ من نومه وينام في غرفة تحت الأرض لا تعرف نور الشمس، ولا نور القمر أيضا. والآن يشعر بجمال وروعة نور الشمس والقمر، ويغمض عينيه حتى يستطيع التأثر بنورهما وإشراقهما. وتوجد شجرة جفت واصفرت في الشتاء خارج نافذته، وعلى الرغم من جفافها واصفرارها، بيد أن الطيور ما زالت تحوم حولها وتقف على أغصانها، وفي بعض الأحيان ترقق بصوتها صوب نافذتهم، ثم تصفق بجناحيها وتحلق عاليا فوق سقوف الحجرات الواحدة تلو الأخرى، ويجول بخاطره صورة صديقه شومبي التي شاركته الحياة أكثر من عام ولم تستمتع فيها بضوء القمر في نومها، ولم تستمتع بضوء الشمس في استيقاظها، ولا يتمالك نفسه ويشعر بالألم يعتصر قلبه.

وبعد انقضاء ثلاثة أيام، وو تشاو يقتفي خطوات ذلك الرجل في منتصف العمر ودخل غرفة تخلو من النافذة، ويطلب منه شخص يضع على عينيه نظارة على غرار الطبيب تماما، أن يمدد جسمه فوق طاولة الجراحة ذات التجهيزات البسيطة، وتتسلط

عليه الأضواء الساطعة القوية، وبعد أن يغمض عينه ما زال يشعر بألم شديد في عينيه، ويفقد وعيه بعد التخدير. وعندما يعود إلى رشده، يجد نفسه طريح فراشه في تلك الغرفة الزاخرة بالهدوء والسكون التام، وقد غادر ذلك الشخص الغرفة نفسها وبقي هو بمفرده يقيم هنا ويرى بجوار الوسادة كيس مضادات حيوية، وزجاجة مياه معدنية، ويحركها قليلا ويشعر بألم ممض في جانبه الأيسر لفترة طويلة، ويدرك أنه تم استئصال الكلية من الجانب الأيسر.

يأتي الرجل في منتصف العمر لزيارته مرتين كل يوم، ويسدي النصح إليه بتناول مضادات حيوية في الوقت المحدد، وأخبره بأنه سيتعافى في غضون أسبوع، وو تشاو يقيم بمفرده في غرفة بالطابق الخامس، وتأتي الطيور لزيارته كل يوم بعضها يحلق ويطير أمام النافذة، وبعضها يمكث مؤقتا على أغصان الشجر، وزقزقة تلك الطيور تشبه الدردشة والثرثرة في عيشة البطالة. وبعد انقضاء أسبوع، الرجل في منتصف العمر يعطي وو تشاو خمسة وثلاثين ألف يوان، ويطلب سيارة تاكسي، ويرسل شخصين يحملانه في قبضة أيديهما، ويقومان بإعادته إلى مسكنه في ملجأ ضد الغارات الجوية.

يعود وو تشاو أدراجه، ويرى الجيران في ذلك الملجأ شخصين غريبين يرفعانه ويدخلانه غرفته، ويضعانه على فراشه، ويعرفون آنذاك أنه باع كليته من أجل أن يشتري قبرا لصديقه شومي. وو تشاو طريح الفراش، وتتدف المضادات الحيوية بعد بضعة أيام، ولا تزال الحمى لا تبرح جسده، وسقط في الغيبوبة مرات عديدة، وبعد أن عاد إليه وعيه، يشعر بأن جسده يبدو

أنه ينفصل عنه، ويأتي هؤلاء الجيران تحت الأرض لزيارته، ويقدمون له الأطعمة، بيد أنه يستطيع فقط أن يشرب النزر اليسير من الحساء. يقول نقر من الجيران: يجب إرساله إلى المستشفى، وهو يهز رأسه بصعوبة بالغة، ويدرك أنه بمجرد دخوله المستشفى، سوف يفقد جميع النقود التي حصل عليها مقابل بيع كليته. ويثق في نفسه بأنه يستطيع أن يشفى ويسترد عافيته، ولكن هذه الثقة تتضاءل كل يوم، وتزداد مرات سقوطه في الغيبوبة عن ذي قبل، ويدرك بنفسه أنه يعجز عن اختيار قبر شومي، وتسح دموع الحزن والألم من عينيه من جراء ذلك.

وذات مرة يعود وو تشاو إلى وعيه بعد غيبوبة، ويسأل بصوت خافت كوكبة من الجيران الذين يصطحبونه قائلا: «هل حلقت الطيور هنا؟».

يواصل وو تشاو كلامه مبتسما، ويردف: «سمعت زقزقة الطيور».

يقول جار من بينهم: «وأنا في طريقي إلى هنا توا رأيت خفاشا».

يقول وو تشاو: «ليس خفاشا، بل طائر».

يقول شياو تشينغ في زيارته الأخيرة لـ وو تشاو، كان -آنذاك- يفتح عينيه بصعوبة بالغة، وطلب منه المساعدة، وأخبره بأنه يضع تحت الوسادة خمسة وثلاثين ألف يوان، وطلب منه أن يأخذ ثلاثة وثلاثين ألفا، ويشترى قبرا من أجل شومي، كما يشترى شاهدة القبر من النوع الجيد إلى حد ما، ناهيك عن علبة رفات العظام. وقال إنه يدخر ألفي

يوان لنفسه حيث يحتاجهما ليعيش عيشة مريحة ويزور قبر شومبي عند حلول عيد الصفاء والنقاء⁽¹⁾ كل عام. وبعد أن يفرغ من كلامه يئن أنينا، ويلف جسمه على جنبه، ويطلب من شياو تشينغ أن يأخذ النقود من تحت الوسادة، ويوصيه بأن يحضر على شاهدة القبر العبارة التالية: «قبر الفتاة شومبي التي يعشقها وو تشاو»، كما طلب منه أن ينقش اسمه على تلك الشاهدة.

وعندما يأخذ شياو تشينغ ثلاثة وثلاثين ألف يوان، ويهم بالانصراف، يناديه وو تشاو بصوت خافت ويطلب منه العودة إليه ويخبره بأن يغير اسم «شومبي» على شاهدة القبر إلى اسمها الحقيقي «ليومبي».

* * *

تبكي شومبي بحرقة، وصوت بكائها شبيه بصوت طقطقة المطر، ويغمر كافة الوجوه والأجساد هنا مثل صوت هطول الأمطار على أشجار موز اليابان، وينبثق صوت بكاء شومبي من بين صوت غناء سبعة وعشرين طفلا رضيعا، ويبدو مثيرا للشعور ويخدش السمع.

وهناك كثرة كاثرة من ذوي الهياكل العظمية تصغي بكل جوارحها، وتتساءل فيما بينها: من تصدح بالغناء؟ وصوت غنائها الحزين يؤلم النفس، ويقول قائل إن ذلك ليس غناء، بل هو صوت بكاء، إنه بكاء تلك الفتاة الجميلة التي حضرت حديثا، إنه بكاء

(1) ميقاته في اليوم الخامس من شهر أبريل حيث إن السماء صافية والهواء نقي، ويعني ذلك أن جميع الكائنات الحية، تنمو وتزدهر أثناء تلك الأيام حيث الصفاء والنقاء والنظافة والإشراق [المترجم]

تلك الفتاة الجميلة التي ترتدي البنطال الرجالي الطويل، وذاك البنطال فضفاض وطويل، وتلك الفتاة الحسناء تدوس بأقدامها على أرجل البنطال وهي تمشي كل يوم، والآن لم تعد تذرع المكان جيئة وذهابا، وتجلس على الأرض وتتخرط في البكاء.

تجلس شوميبي بين الأعشاب الملتفة الكثيفة تحت أوراق الأشجار على ضفة النهر، وتسند جسمها على الشجرة، ويغطي العشب النضير والزهور البرية، التي تتفتق بين ذلك العشب، ساقها، ومياه النهر بجوارها تخر خريرا مثل جدول يترنم. والدموع تغمر وجهها مثل ندى البكور الذي يغطي أوراق الأشجار، وتدمدم بصوت الغناء والبكاء في آن واحد، وتعديل يديها البنطال الرجالي الطويل وتحوله إلى تتورة نسوية طويلة. يقف شياو تشينغ بجوار شوميبي مثل شارة الطريق، ويحملك في البشر من ذوي الهياكل العظمية التي تأتي من كل فج عميق ناهيك عن أكثر من عشرة أشخاص أجسامهم سليمة يمشون في جماعة بعد أن كانوا متفرقين، يمشون ويتقدمون إلى الأمام، ويصفون باهتمام إلى كلمات شياو تشينغ الذي ترسم على وجهه تعابير تدل على أنه في رحلة نسيان. وفي سرده لحالته يتكلم تارة في الشرق وتارة في الغرب كأنه يسرد مشهدا متقطعا في حلمه بلا بداية أو نهاية.

يأتي الناس جميعهم المقيمون هنا، ويعرفون أن شوميبي سوف تتوجه إلى أرض الراحة الأبدية، ويقولون بهدوء وبصوت ناعم إن الذين حضروا هنا لم يغادر منهم أحد، وشوميبي هي أول من يرحل عن هذا المكان، وإن جسمها في حالة سليمة، وجمالها في حالة جيدة.

الجماهير هنا غفيرة ومتراصة، ويتطلعون إلى إلقاء نظرة على شومبي الجالسة بين الأعشاب الملتفة الكثيفة تحت أوراق الأشجار، وتبكي بحرقة، وتخطط تنورة طويلة، ثم يمشون إليها ويشكلون دائرة مستديرة حولها في كافة الجهات، وعندما يتقدمون إليها يدخلون بانتظام وتنسيق من الأمام والخلف، بعضهم في الأمام، وبعضهم في الخلف، وهذا المشهد شبيه بالأمواج القوية، التي تعلو الواحدة تلو الأخرى صفحة الماء، وكل واحد منهم يهتئ بنظراته الصامتة الفتاة الجميلة شومبي التي سوف ترحل إلى أرض الراحة الأبدية.

ينبثق صوت عجوز ويحوم حول الجماهير الملتفة حول شومبي التي تنكس رأسها على الدوام، وتبكي بحرقة، وتخطط تنورة طويلة، ويخاطبها ذاك العجوز قائلاً:
«أيتها الطفلة يتعين عليك تطهير جسدك».

ترفع شومبي وجهها الذي يغص بالدموع، وتحملق مشدوهة في الهيكل العظمي الذي يصدر منه ذلك الصوت، وتكف عن خياطة التنورة.

يقول العجوز: «عندما يحين وضعك في التابوت يجب تطهير الجسد».

تقول شومبي: «لم يتم الانتهاء من خياطة التنورة بعد».
ينبثق صوت ثلة من النسوة، ويقولن: «نحن نضطلع بالحياكة بالإنابة عنك».

عشرات من النساء ذوات الهياكل العظمية يتقدمن إلى شومبي، ويمددن نحوها العشرات من الأيادي ذات الهيكل العظمي. ترفع شومبي التنورة التي في يدها ولم تكمل

خياطتها ولا تعرف أن تسلمها في يدي أي امرأة، وتخاطبها امرأتان وتقولان:

«كنا نعمل في مصنع حياكة الملابس».

تعطي شومبي التتورة التي لم تكتمل خياطتها لتينك المرأتين، وترفع رأسها، وتتسمر نظراتها في الهيكل العظمي للعجوز الذي يقف أمامها، وتسأله في نبرة يشوبها بعض الحياء:

«هل يمكن ارتداء الملابس؟».

الهيكل العظمي للعجوز يهز رأسه، ويقول: «ارتداء الملابس لا يمكنك من تطهير الجسد».

تخفض شومبي رأسها، وتضطلع بحركة بطيئة وتجعل ملابسها الخارجية تنفض عن جسمها، كما تجعل ملابسها الداخلية كذلك، وعندما بدا للعيان ساقاها المندستان في العشب النضير وبين الأزهار البرية المتفتحة، ينفض جسمها سروالها التحتاني القصير. جسد شومبي الجميل يسجى على أديم الحشيش الأخضر والأزهار البرية، وبعد أن يندمج ساقاها وتتقاطع يداها على بطنها، وتغمض عينيها، تبدو كأنها تنعم بالطمأنينة والهدوء في الحلم. الأعشاب الخضراء والأزهار البرية بجوار شومبي تتمايل أعوادها وتتحنى على التوالي كأنها تحمق في جسد شومبي، ونظراتها المحدقة تغطي جسد شومبي، ومن ثم لم نعد نرى جسدها، بل نشاهد فقط جسمها ينمو وترعرع فوق العشب النضير، وتتعانق الأزهار البرية فوق جسمها.

يقول العجوز ذو الهيكل العظمي: «الناس في ذاك الجانب لديهم الأقارب الأقربون والأقارب الأبعدون، وهناك لا يوجد أحد

منهم يقوم بواجباته. والناس في ذاك الجانب عندما يوضعون في التابوت يقوم أهل البيت بتنظيف أجسادهم، وهنا نعتبر أنفسنا أهل بيت الفتاة شوممي، وكل واحد منا ينظف جسدها، والناس في ذاك الجانب يغرفون الماء بالسلطانية ويطهرون الأجساد، ونحن هنا نضم اليدين معا حتى يشكلنا سلطانية».

وبعد أن يفرغ الهيكل العظمي للعجوز من كلامه، ينزع ورقة شجر ويسد بها الشق بين اليدين ويتوجه إلى النهر، ورهط من الناس يحيطون شوممي، ويخرجون في فريق متناسق ومنظم وينتزع كل واحد منهم ورقة شجر يسد بها الشق بين اليدين، ويتشكل رتل طويل من سلطانيات ورق الأشجار، ويسيرون وراء الهيكل العظمي للعجوز على ضفة النهر، ويشكلون زاوية نصف قطرية تزداد طولاً كلما مشوا مثل خيط يسحب من كرة من الخيوط. كان ذلك العجوز أول من يجلس القرفصاء، وبعد أن يغرف ماء النهر بسلطانية من ورق الشجر في راحتي يديه، ينهض واقفا ويمشي، ويحذو حذوه الذين يتبعونه في الخلف. الهيكل العظمي للعجوز يمشي إلى أمام الفتاة شوممي التي تمدد جسمها هناك ويحمل مياه النهر الصافية النقية في ورقة الشجر براحتي يديه. وبعد أن يفك ضم اليدين يتأثر الماء من تلك السلطانية على جسد شوممي التي تترعرع فوق العشب النضير والأزهار المتفتحة، وبعد أن يرتوي هذا العشب وتلك الأزهار بمياه النهر، تهتز أوصالها وتروي جسد شوممي.

الهيكل العظمي للعجوز يحمل في يده اليسرى تلك ورقة الشجر المبللة بالماء، ويمسح عينيه بيده اليمنى كأنه يكفكف دموع وداع أهل بيته، والآخرين مثله تماماً يحذون حذوه من

التقدم إلى هناك حيث ترقد شومي، ويحملون مياه النهر في سلطانية مصنوعة من ورق الشجر براحتي اليدين، ويفكون ضم اليدين، ويتناثر الماء على جسد شومي ويظهره، ويسيرون وراء ذلك الهيكل العظمي إلى مكان ناء يشبه الدرب الضيق المتعرج إلى الأمام. ويحمل بعضهم أوراق الشجر في أياديهم اليمنى، والبعض الآخر في أياديهم اليسرى، وتتساقط من تلك الأوراق آخر قطرة ماء وسط هبوب النسائم.

وتشكل تلك الهياكل العظمية الثمانية والثلاثون، والتي دفنت من جراء كارثة طريق في السوق، دائما دائرة مستديرة وتذرع المكان جيئة وذهابا، والآن تفرقوا ويجلسون القرفصاء الواحد تلو الآخر، وبعد أن يغرفوا الماء بالسلطانيات المصنوعة من أوراق الأشجار في راحات أياديهم ينهضون ويقفون على التوالي، ويعرجون على الفتاة شومي بالتتابع، وينثرون الماء بالتسلسل من أياديهم على جسد شومي من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها، وهي تتمدد على الحشيش الأخضر والأزهار البرية. تبدأ تلك الطفلة تتشج، وبدأ ذلك الطفل ينشج أيضا، وبالإضافة إلى ذلك، تصدر تلك الهياكل العظمية، في الوقت نفسه، صوت النشيج في مشهد أثار الشجون.

وعلى الرغم من أن أجسادهم تم فصلها، بيد أن صوت نشيجهم ما زال يتكور في دائرة مستديرة.

أسرة صاحب المطعم تان جيا جين تصطف في رتل طويل، ويحملون مياه النهر في سلطانيات من ورق الشجر في راحات أياديهم، ويحذون حذو الآخرين وينكسون رؤوسهم، ويمشون ببطء شديد إلى شومي، وينثرون عليها الماء من أياديهم، كما يرشون

الماء مع دعواتهم بالخير للفتاة شومي التي تتوجه إلى أرض الراحة الأبدية حالا. وابنة تان جيا حين تكفكف دموعها بيديها، ويترنح جسمها قليلا، وأوراق الشجر التي في يدها تسقط على الأرض، ولا تدري أين ستكون أرض راحتها الأبدية، ويمد تان جيا حين يده ويمسك بإحكام ذراع ابنته، ويخاطبها قائلاً: «مادامت أسرتنا تقيم معا، لايهم أين تكون أرض الراحة الأبدية».

ومنذ عشر سنوات ونيف جاء إلى هنا كل من تشانغ غانغ، والرجل (لي) اللذين يجلسان على الأرض ويلعبان الشطرنج تارة، ويتشاجران بسبب محاولة التراجع عن لعبة في الشطرنج تارة أخرى، يحملان بورع مياه النهر في سلطانية من ورق الشجر، وينثران بخشوع الماء على جسد شومي المتشح بالحشيش الأخضر والأزهار البرية. وعندما رحلا عن هذه الدنيا، يدير (لي) رأسه إلى الخلف مرات عديدة ويحيل بصره في كافة الأنحاء، وتبرز للعيان تعايير تشانغ غانغ من تلهفه الشديد إلى الذهاب لأرض الراحة الأبدية، ويرت بيده ذات الهيكل العظمي على كتفه ذي الهيكل العظمي أيضا، ويخاطبه قائلاً: «لا تنتظرنني، اذهب أنت أولاً».

يطأ طأ (لي) رأسه ويقول: «لم نفرغ بعد من لعب الشطرنج». وشاهدت الناس ينصرفون بعد أن قاموا بتنظيف جسد شومي، ويتدفقون كأنهم دروب ضيقة وطويلة، كما أنه ما زال هنا رتل طويل جدا من الذين يحملون سلطانيات من ورق الأشجار في راحت أياديهم، ويبدو أن ذلك المشهد بدأ توا، كما حضر أبوا الابنة جينغ شياومي، لا تزال أمها

تبدو عليها أمارات الخجل والحياء، وجسمها مكور، وتضع يديها على فخذيها عندما تمشي، أما أبوها فيلصق جسمه بها، ويمسكها بيديه بقوة، ويعد جسمه ويداه بمثابة الملابس التي تغطي جسمها. وعندما يمدان أيديهما وينزعان ورقة الشجر، يفترقان ويمشيان صوب ضفة النهر، ويجلسان القرفصاء، ويفرقان ماء النهر، وعندما يمشيان ويحملان في أيديهما سلطانيات من ورق الشجر، الأب يمشي في الأمام والأم تنكس رأسها، وتتبعه في الخلف عن كثب، ويتحركان داخل رتل طويل جدا.

ينتشر في الآفاق صوت غناء يشبه العندليب. وكان صوت الغناء متقطعا. لي يوي جين ترتدي فستانا أبيض، وتأتي بخطوات وثيدة، وتشكل فريقا من الأطفال الرضع البالغ عددهم سبعة وعشرين رضيعا، والذين يقتفون أثرها في الخلف، ويصدحون بالغناء ويحبون، وربما يشعرون بحكة في رقابهم من جراء الحشيش الأخضر، وصوت ضحكات هؤلاء الرضع تقاطع بين الحين والآخر صوت الغناء الرائع. وقبل أن تحضر إلى هنا، تحمل لي يوي جين هؤلاء الأطفال الرضع الواحد تلو الآخر، وتضعهم على أوراق الأشجار الضخمة على ضفة النهر، ويتمدد هؤلاء الرضع فوق أوراق الأشجار التي تتمايل مع هبوب الريح، ولم يعد صوت الغناء متقطعا، بل تدفق مثل مياه النهر.

تسمع شومي، التي يكتسي جسدها بالعشب النضير والأزهار البرية، صوت غناء يشبه العندليب يحوم في كافة الأصقاع، وتتخرط دون أن تدري في الغناء مع هؤلاء الأطفال

الرضع. وأصبحت شومبي المغني الرائد. وتصيح بالغناء، ويردد الرضع وراءها الغناء جملة بعد جملة، وتقود الجوقة، ويبدأ الغناء الجماعي من حيث انتهى، كأنها قامت بالتجربة والتدريب جيداً، وصوت غناء شومبي والأطفال الرضع يعلو حيناً، وينخفض حيناً آخر.

كنت أعتزم أصلاً السير إلى مؤسسة الخدمات الجنائية، وأخطو خطوات البحث عن والدي، بيد أن أقدامى تعثرت هنا.

اليوم السابع

تقول شومي: « لم يعرف جسدي تلك النظافة على هذا النحو، ويبدو أنه بات شفافاً وجلياً. »
« قمنا جميعاً بتطهير جسدك. »
« أعرف ذلك، شاركت كثرة كاثرة في تطهير جسدي. »
« ليس أناساً كثيراً، بل شارك جميع الناس في تنظيف جسدك. »
« وأشعر كأن مياه النهر كلها تتدفق من جسمي. »
« اصطف جميع الناس هنا في رتل، وحملوا مياه النهر في كفوفهم ونثروها على جسدك. »
« أنتم جميعاً تحبونني حقاً. »
« نعامل أي إنسان هنا معاملة طيبة ونحبه. »
« كما ستقومون بتوديعي إلى أرض الراحة الأبدية. »
« أنت أول من يرحل من هنا ويتوجه إلى أرض الراحة الأبدية. »
نمشي على الطريق، وجموع غفيرة تحف بالفتاة شومي التي تتوجه إلى مؤسسة الخدمات الجنائزية استعداداً للرحيل إلى أرض الراحة الأبدية. وهذا الطريق عبارة عن أرض سهلية شاسعة مترامية الأطراف، ولا ترى العين نهاية طوله، كما لا ترى نهاية عرضه، ويبدو كأنه مثل تلك السماء المكشوفة الواسعة التي تعلق رؤوسنا.

تقول شومبي: «عندما كنت في ذاك الجانب، كان فصل الربيع الأكثر حبا في نفسي من بين فصول السنة، والشتاء الأكثر مقنا. وتتقلص أوصالي في الشتاء قارس البرد، وعندما يأتي الربيع تتفتق الأزهار، وجسمي يكون أكثر قوة وحيوية أيضا، ولكن عندما انتقلت إلى هذا الجانب، أصبحت أحب الشتاء، وأخشى الربيع لأن قدومه يجعل جسمي يتعفن رويداً رويداً. والآن أشعر بالارتياح، ولا داعي للخوف من الربيع».

ينبثق من بيننا شخص يقول: «الربيع يعتبر بمثابة مباراة بطولة في العدو في الألعاب الأولمبية في ذاك الجانب، ومع ذلك لا يستطيع اللحاق بك».

تتخرط شومبي في نوبة ضحك.

يقول شخص آخر: «أنت فتاة حسنة جداً».

تقول شومبي: «أأنت تتفوه بتلك الكلمات حتى تجعلني سعيدة؟».

يقول الكثيرون منا: «أنت فتاة جميلة جداً».

«عندما كنت في ذاك الجانب، كانوا يديرون رؤوسهم إلى الخلف، ويحدقون في وجهي، وعندما جئت هنا، أنتم تلتفون وتحملقون في معالم وجهي أيضا».

«ونطلق على ذلك أن الدوران للخلف والالتفات إليك بنسبة عالية جداً».

«أجل، في ذلك الجانب يسمون ذلك نسبة الالتفات إلى الخلف».

«وهنا يطلق عليه نفس التسمية».

تتخرط شومبي في نوبة ضحك مرة أخرى، وتقول: «يسمى ذلك نسبة الالتفات في ذلك الجانب، وهنا أيضاً».

نقول: «نسبة الالتفات إليك تقتضي أثرك حيثما ذهبت».
«كلامكم معسول حقاً».

نشاهد شومبي تترجل مرتدية التتورة التي كانت في الأصل ذلك البنطال الرجالي الطويل. التتورة طويلة جداً، وتحجب عن أنظارنا قدميها عندما تمشي، ونرى فقط أذيال التتورة تتجرجر على أديم الأرض.

وهناك شخص ما يخاطبها قائلاً: «كفئك يتجرجر على الأرض وكأنه فستان الزفاف».

تسأل شومبي: «حقاً، مثل فستان الزفاف، أليس كذلك؟».
تجيب عن سؤالها: «حسناً، أنتم تجعلونني أشعر بالسعادة؟».
«كلا، يشبه فستان الزفاف فعلاً».
«ولكن لا أذهب إلى بيت الزوجية».
«يبدو عليك أنك تذهبين للزواج».

«لم أتزين، والعروس يجب أن تتزين عندما تتزوج».
«لم تتزيني، ولكنك أكثر تألقاً وإشراقاً عن تزينك في ذاك الجانب».

تقول شومبي بصوت حزين ومؤلم: «لم أذهب للزواج من وو تشاو، بل أذهب إلى قبر الراحاة الأبدية».

تبدأ تتدفق دموع شومبي، ونحن لم ننطق بكلمة مرة أخرى.
وتقول: «أنا عنيدة جداً، ولا يجوز أن أتخلى عنه».
تمشي وقلبها مفعم بالأسى، وتقول في حزن شديد: «ماذا يفعل بمفرده في هذه الدنيا، لقد سببت له ضيراً».

بعد ذلك، سمعنا صوت بكاء شومبي يدوي في الجبال والأنهار والأودية على امتداد الطريق الطويل في الأرض السهلية.

«أسبب له الأضرار دائماً، ففي الكوافير كان عملنا هو غسل شعر الزبائن، ولكن كان لديه طموح أن يرتقي بمعيشته، يغسل شعر الزبائن تارة، ويتعلم من الأسطى قص الشعر وفن تصفيف الشعر، وتعلم بسرعة جداً، وامتدحه المدير، وذكر أنه يعتزم أن يجعله الأسطى الكبير. ويخاطبني بمنأى عن الأنظار أنه ينتظر حتى يصبح الأسطى الفني في تصفيف الشعر بصورة رسمية، ويزداد دخله، ويستقيل من العمل بعد أن يتقن مهارة فن الكوافير، ونحن الاثنان نستأجر واجهة منزل تصلح أن تكون دكاناً، وندير كوافير صغيراً من أجل تطوير حياتنا. وكانت هناك فتاة في الكوافير تحبه، وتدنو منه دائماً، وتتحدث بود وحنو، مما جعلني أشعر بالسخط الشديد، وأبحث دائماً عن فرصة للعراك معها، وذات مرة، وقعت بيننا مشاجرة، وأمسكت شعري بقوة، وأنا أيضاً حذوت حذوها، وهروول مسرعاً للفصل بيننا، وصرخت في وجهه وسألته إذا كان يحبها أم يحبني أنا، وجعلته يشعر بالحرج الشديد وأصرخ بصوت حاد، والزبائن في الكوافير يديرون أجسامهم، ويحملقون في وجهي، والمدير غاضب جداً، ويسبني ويطلب مني الانصراف في التو. وعندما كان المدير ما زال يلعنني، يتقدم صديقي ويمشي إلى أمامه ويبلغه أننا لا نعمل ونستقيل، كما يوجه سيلاً من السباب إلى المدير قائلاً: أنت الوغد الأحق الذي ينصرف من هنا، ويأتي إليّ ويمسك ذراعي بقوة ونغادر الكوافير، وأقول إننا لم نتقاض راتب نصف شهر، ويقول: الراتب الأحق لا نريده، ولا نريد المعلم الأبله. وفي هذه الأثناء، انفجرت في البكاء، ويقبض عليّ بيده ويجرني ونمشي وقتاً طويلاً، وأنا أبكي بلا انقطاع وأقول: أشعر بوخز

الضمير لأنني جعلته يفقد ماء الوجه، وحطمت مستقبله لأنه كان على وشك أن يكون الأسطى الفني في تصفيف الشعر في وقت قريب جداً. يجرجرني بيد، ويكفكف دموعه باليد الأخرى، وفمه لا يكف عن السباب، ويقول الأسطى الفني الأحمق، تبا لفقدان ماء الوجه، ومعلمنا لا يستحق الذكر. وفيما بعد، قلت له نبحت عن عمل في كوافير آخر، وهو أصبح ماهراً ولديه براعة المعلم الفني في قص الشعر، ولكنه يرغب عن ذلك. وتعهدت بعدم الوقوع في حبال الفيرة مرة أخرى، وإذا حدث أن كانت هناك فتاة تعشقه مرة أخرى، فأنا أظاھر باللامبالاة، ولكنه يقول إن المعلم لا يذهب إلى الكوافير، واضطررنا لأن نخرج على مطعم نعمل فيه، وذكر مدير المطعم أنني بهية الطلعة، وطلب مني أن أكون نادلة في الحجرات الخاصة بكبار الزوار في الطابق العلوي بالمطعم، أما هو فيعمل نادلاً في القاعة الكبيرة في الطابق الأسفل، ويحظى بالترحاب من جانب المدير لأنه دؤوب ومجدّ، وبارع ودقيق في العمل، وسيكون رئيساً للعمال في وقت قصير جداً. وفي أوقات فراغه، ينزل إلى الطابق السفلي ويتجاذب أطراف الحديث مع الطهاة، ويقتنص الفرصة من أجل تعلم إتقان فن الطهي. ويقول إنه يتحلى بالصبر، وبعد أن يتقن فن الطهي بصورة حقيقية، نستقيل ونؤسس مطعمًا صغيرًا.

أعمل نادلة في حجرة طعام كبار الضيوف، ويأتي هنا دائماً التجار والمسؤولون، وذات مرة، جاء رهط من الأفراد الذين شربوا حتى الثمالة، وانبثق من بينهم شخص احتضنني وداعب أثنائي، وفي الواقع تحملت وتجلدت وابتعدت عنه، ولكن انفجرت في البكاء ورحت أبحث عن صديقي، ولا يطاق ولا يحتمل أن أكون

فريسة للظلم من جانب الآخرين، واقتحم تلك الحجرة وتعارك معهم، وهم كثر طرحوه أرضاً، وأشبعوه ضرباً، وركلوه بالأقدام، وركلوا رأسه، وجثمت بجواره أبكي بحرقة، وأتوسل إليهم أن يكفوا عن ضربه. وتكف أياديهم وأقدامهم عن الضرب آنذاك ويحضر مدير المطعم، ويقدم لهم اعتذاره في ذلة وخضوع. ومن الجلي أنهم ظلمونا، ولكن المدير لا يساعدنا، بل يلعننا بشدة. ووجه صديقي يغص بالدم من جراء ضربه المبرح، وأحتضنه ونخرج من غرفة طعام كبار الزبائن، وبعد أن ننزل من السلم إلى الطابق السفلي، يدفعني بيده، ويبغي الصعود إلى الطابق العلوي ويخوض غمار مشاجرة معهم، وصعد عدة خطوات، وارتميت على رجليه وكبّلته بقوة، وأنخرط في البكاء وأتضرع إليه؛ وينزل من السلم، ويسندني بيديه، ويحضن كل منا الآخر ونفادر المطعم. الدم ينزف من أنفه بلا انقطاع، والمطر يهطل في الخارج، ونمشي إلى الطريق المقابل، ولا يرغب في السير، ويجلس على الرصيف، وأجلس بجواره، ويفمرنا مياه المطر وتبتل ملابسنا، وتمرق المركبات الواحدة تلو الأخرى، وتلطخ ملابسنا بالماء المتراكم الأسن في الشارع، ويقول مرارا وتكراراً إنه يريد أن يقتل المعلم، وأبكي بصورة مستمرة، وأطلب منه ألا يرتكب جريمة قتل.

الحقت به الضرر مرة أخرى؛ حيث لم يعمل طباًخاً، ونحن لا نستطيع أن نمتلك مطعماً صغيراً. ولم نعمل لمدة شهرين، ونقودنا تتضاءل أكثر فأكثر، ونتناول وجبة واحدة في اليوم، ونقودنا ستنفد في غضون شهرين. وأقول يجب أن نبحث عن عمل. ولكنه لا يرغب في ذلك. ويقول إنه يأبى أن يتعرض للظلم

والحيف من قبل الآخرين مرة أخرى. وأقول نفتقر إلى النقود لأننا ليس لدينا عمل، والافتقار إلى المال يعني أننا نستطيع الانتظار حتى نموت جوعاً. ويقول إنه يؤثر أن يتصور جوعاً ولا يتعرض للاعتساف والحيف. وبكيت، وبكيت بألم وحزن، وبكائي ليس بسبب أنني غضبي منه، ولكني أبكي هذا المجتمع الظالم. ويراني أنهمك في البكاء، ومن ثم يدلف إلى الخارج، ويعود أدراجه متأخراً جداً، ويحضر معه فطيرتين تنفثان بخاراً من أجلي، وأسأله من أين حصل على نقود واشترى فطيرتين؟ ويقول إنه جمع زجاجات المياه المعدنية الفارغة وعلب المعلبات الصفيح طوال اليوم، وباعها للذين يقومون باستصلاح النفايات، وحصل على نقود اشترى بها فطيرتين، وفي اليوم التالي، عندما انصرفت من البيت، خرجت معه أيضاً. ويسألني: لماذا تخرجين معي؟ وأجيب أذهب معك ونجمع سوياً زجاجات المياه المعدنية وعلب المعلبات الصفيح».

«يبدو أننا وصلنا».

«قطعنا شوطاً طويلاً من الطريق ووصلنا إلى مؤسسة الخدمات الجنائزية. وعندما جئنا مندفعين بأعداد كبيرة ودلفنا إلى الداخل، يدوي في الردهة صوت دهشة وذهول من قبل منتظري حرق أجسادهم الذين شاهدوا كوكبة من الهياكل العظمية تتدافع كالمذ الصاعد وتتقدم نحوهم، ويتساءلون فيما بينهم عن ماهية تلك الهياكل؟ ولماذا حضرت إلى هنا؟ ويقول شخص في هذا الجانب حيث تتراص المقاعد البلاستيكية: ربما تأخروا. ويقول شخص آخر: لقد تأخروا رداً طويلاً. وينبعث صوت عال في ذاك الجانب حيث توجد الأرائك ويقول: هؤلاء

الأوغاد تأخروا بضع سنوات. ينبثق صوت خافت من هيكل عظمي بيننا، ويقول: إننا خمرة «عرق» منذ عدة سنوات، أما أنتم فـ «بيرة طازجة». تصدر الهياكل العظمية الأخرى ضحكات وقهقهات منتظمة.

ويجلس على المقاعد البلاستيكية أكثر من عشرة من منتظري حرق أجسادهم في منتصف العمر في هذا الجانب، ويجلس ثلاثة فقط من هؤلاء المنتظرين على الأرائك في منطقة الوجهاء والأثرياء في ذاك الجانب. تسير بضعة هياكل عظمية نحو الأرائك في ذاك الجانب حيث يشعرون بأن المكان هناك واسع وفسيح. ويأتي مسؤول يرتدي أسماً زرقاء بالية وقفازات قديمة ومهترئة، ويقول بصوت مدكوك: «في ذاك الجانب توجد منطقة الوجهاء والأثرياء، من فضلكم انتقلوا إلى هذا الجانب».

ويحملك في وجهي بصورة فجائية من تجويف العينين، وفي داخله تعج مشاعر الفرح والخوف وتتماوج صعوداً وهبوطاً. وفي هذه المرة يتعرف عليّ لأن زوجتي (لي تشينغ) رمت بيدها معالم وجهي.

أريد أن أنادي بصوت خفيض وأقول: «بابا»، وأفتح ثغري، ولكن لا يجد صوتاً. وشعرت بأنه يريد أن يناديني أيضاً، بيد أنه يفتقر إلى الصوت أيضاً.

وبعد ذلك، لمحت في عينيه علائم الآلام والأحزان، ويسألني بصوت يرتعش: «أأنت؟».

أومئ برأسي، وأشير إلى شومي في جواربي: «إنها هي...». يبدو أنه يتنفس الصعداء طويلاً كأنه يتحرر مؤقتاً من آلامه وأحزانه. ويهز رأسه، ويمشي إلى ماكينة سحب الأرقام في

مدخل الباب، ويسحب قصاصة ورقية ويعود ويسلمها للفتاة شومبي، ورأيت الرقم (A53) مطبوعاً في أعلى تلك القصاصة. وعندما كان يغادر المكان هنا، تفحص بدقة في ملامحي مرة أخرى، وسمعت تنهدياته العميقة.

نجلس على المقاعد البلاستيكية هنا. وشومبي تحمل بكلتا يديها قصاصة ورق في ورع وتقوى، إنها رخصة الولوج إلى أرض الراحة الأبدية، وتخطبنا نحن الجالسين حولها في دائرة، وتقول:

«أذهب إلى هناك في نهاية المطاف».

ونشعر بأن ردهة منتظري حرق الجثث تغص بمشاعر رقيقة، وتجسد شومبي تلك المشاعر، وتقول: «لماذا يعز عليّ فراقكم؟». كما نشعر بأن هناك مشاعر حميمة أخرى، وتجسدها شومبي مرة أخرى، قائلة: «يجب أن أشعر بالسعادة».

نقول: «نعم، يجب أن تكوني مفتطبة».

لم ترسم ابتسامة على وجه شومبي، وتعترىها بعض مشاعر القلق، ومن ثم توصينا قائلة: «عندما أفارقكم لا أريد أن ينظر إليّ أحد، وأنتم عندما تفارقونني لا يلتفت أحد وينظر إليّ. وعلى هذا النحو أستطيع أن أنساكم، وأستطيع أن أتمتع بالراحة الأبدية حقاً».

نطأطئ رؤوسنا بانتظام على غرار شعورنا بالخوف من حفيف الأوراق في الريح.

يدوي صوت في ردهة منتظري حرق أجسادهم وينادي الرقم (A 43)، وينهض أحدهم واقفاً من المقاعد البلاستيكية أمامنا، ومرتبداً كفته وهو عبارة عن بذلة صينية قماشية، ويمضي

مترنّحا. ونجلس في هدوء وطمأنينة، ولا يزال هناك منتظر حرق جسده يدخل متأخرا، ويستقبله ذلك الرجل في أسماله الزرقاء البالية وقفازاته البيضاء المهترئة ويسحب له رقما، ثم يرشده إلى مقعده البلاستيكي الذي يجلس عليه في هذا الجانب.

الهدوء والسكون يسودان المقاعد البلاستيكية في هذا الجانب، بينما يدوي صوت تجاذب أحاديث لفترة من الوقت في ذاك الجانب حيث توجد الأرائك. والآن يناقش ثلاثة من الوجهاء الأثرياء منتظري حرق أجسادهم الكفن غالي الثمن والقبر الفاخر. وكان من بينهم أرستقراطي يرتدي كفنه من المعطف الفرو، أما الأرستقراطيان الآخران فيسألان في فضول لماذا يستخدم المعطف الفرو ويجعله كفنا؟ وكانت الإجابة على النحو التالي:

«أخشى البرد».

يقول أرستقراطي: «في الواقع إن ذاك المكان ليس باردا».
يقول أرستقراطي آخر: «صحيح، ذاك المكان دافئ في الشتاء، ودافئ في الصيف».

«من قال إن ذاك المكان ليس باردا؟».

«قال ذلك الذين يحددون موقع بناء القبر».

«كيف يعرفون ذلك، ولم يذهب أحد منهم إلى ذاك المكان؟».

«من الصعب أن نجزم بذلك، والذين لم يأكلوا لحم الخنزير

يشاهدون الخنزير يركض دائما».

«إن أكل لحم الخنزير ومشاهدته وهو يركض يعتبران شيئين

مختلفين تماما، وأنا لا أصدق دائما البيئة الروحية».

هذان الأرستقراطيان لم ينطقا بكلمة، ويردف الأرستقراطي

الذي يرتدي المعطف الفرو قائلًا: «بل الذين ذهبوا إلى هناك، لم يرجع أحد منهم، ولا أحد يعرف التقلبات الجوية هناك، وإذا حدث بالمصادفة أن الطقس بارد جدا والأرض تتجمد، فإن ذلك من قبيل الاستعداد يقضي على الأخطار».

هيكل عظمي يجلس بجواري يقول بصوت خفيض: «هو لا يفهم، معطف الفرو من جلد الحيوان، وهو يتمص ويتحول إلى حيوان بري».

ويسأل اثنان من الوجهاء الأثرياء هذا الأرستقراطي الذي يرتدي المعطف الفرو عن موقع قبره، ويقول الأخير إنه يقع فوق قمة الجبل، وتضاريس الجبل وعرة ومنحدرة، ويستطيع أن يتمتع برؤية مناظر العديد من الجبال الصغيرة من ارتفاع ثلاثمئة وستين متراً.

يومي الأرستقراطيان برأسيهما، ويقولان: «اختار موقع القبر رائع حقاً».

الهيكل العظمي بجواري يقول بصوت خافت مرة أخرى: «إنهما لا يفهمان، تضاريس الجبل يجب أن تتحلى برأسين بارزين، وليس متدليين. الرأسان البارزان يجعلان الأولاد والأحفاد من الأثرياء الأرستقراطيين، أما الرأسان المتدليان فيجعلان ذرية الأولاد والأحفاد يتسولون الطعام».

يدوي صوت النداء (V12) في درهة منتظري حرق الأجساد، وينهض واقفاً ذلك الأرستقراطي مرتديا المعطف الفرو وجسمه مائل على غرار الحركة المعتادة التي يقتحم بها الزحام داخل حافلة النقل العام، وبعد أن يومي برأسه إلى الأرستقراطيين الآخرين، يتقدم إلى غرفة المحرقة مزهوا بما حققه.

يترامى إلى مسامعنا صوت النداء على الرقم (A44)، وبعد أن يدوي ثلاث مرات ببطء، كان النداء على صاحب الرقم (A45) ويدوي ثلاث مرات ببطء أيضاً، وبعد ذلك كان النداء على الرقم (A46). وصوت النداء يشبه زئير الريح في مكان بعيد في خضم الليل شديد الحلكة، كما أنه طويل ويولد الشعور بالوحشة في النفس. وهذا الصوت المغري يجعل منتظري حرق الأجساد في الردهة يبدون كأنهم في فضاء واسع وفسيح، وبعيدين عن أرض الواقع. وبعد ثلاثة أرقام خاوية لم يحضر أصحابها، يقف صاحب الرقم (A41)، وكان شبح امرأة تتقدم إلى الأمام في حذر واحتراس.

نجلس في هدوء ونحيط شومبي من الجهات الأربع، ونتأثر تأثراً بالغاً باقتراب ميقات رحيل شومبي أكثر فأكثر. وبعد أن يرحل هذان الأرسستقراطيان وأرقامهما (V13)، و(V14)، كان النداء على صاحب الرقم (A52)، وعيوننا لم تتمالك عن الالتفات إلى شومبي التي تضم يديها وترفعهما أمام صدرها، وتحني رأسها وتتخرط في تفكير عميق.

وبعد النداء ثلاث مرات على الرقم (A52)، نسمع النداء على رقم شومبي وهو (A53)، وفي هذه اللحظة ننكس رؤوسنا جميعاً في آن واحد، ونشعر بمغادرة شومبي مقعدها البلاستيكي.

وعلى الرغم من أنني أحني رأسي، وما زلت أتخيل صورة شومبي؛ وهي تمشي وتجر تتورتها الطويلة التي تشبه فستان الزفاف، وتتقدم نحو أرض الراحة الأبدية، بيد أنني شاهدها فقط وهي تترجل، ولم أر غرفة المحرقة، ولم أر القبر، وكل ما رأيته كان سيرها نحو أرض تزخر بالأزهار من كافة الألوان والأشكال.

وبعد ذلك، سمعت صوتا خفيضا يدوي ويصدر من المقاعد البلاستيكية في الجهات الأربع، وعرفت أن الهياكل العظمية تهض واقفة وتستعد للمغادرة، كما عرفت أنها تتقهقر وتتصرف على غرار انحسار المد .

* * *

لم أنهض من مقعدي وأنصرف. وبقي هناك خمسة من منتظري حرق الأجساد يجلسون على المقاعد البلاستيكية الأمامية. يرتدي والدي الملابس الزرقاء المتهرئة والقفازات البيضاء البالية، ويحني رأسه، ويقف على الجانب الأيسر للطريق الذي يسرون عليه، وتدل ملامحه على أنه يستجيب لتحيتهم في كل وقت. وشعرت بأن شبحه المنتصب يشبه الواقف وقفة حداد. أحد منتظري حرق أجسادهم يلتفت ويتفوه ببعض الكلمات، ثم يتقدم إلى الأمام بخطوات سريعة ويجيب على أسئلة هؤلاء المنتظرين بصوت خفيض، ثم يتراجع ويعود إلى الطريق الذي يسير عليه، يحني رأسه باستمرار ويقف منتصبا. ووالدي يعمل بجهد وأمانة دائما ومخلص في عمله سواء كان في ذاك العالم وهو عالم الحيا، أم هنا في عالم الممات، فكلاهما عنده على قدم المساواة.

وبعد أن يدخل هؤلاء المنتظرون الخمسة الباقون غرفة المحرقة تباعا، تصبح ردهة منتظري حرق الأجسام خاوية على عروشها كأنها خالية من الهواء، ويوجد هناك ضوء شاحب يفصل ضوء مصباح الجدار الذي على شكل الشمعة في مكان ليس قريبا. أرى والدي خطواته ثقيلة عندما يمشي، وأهب واقفاً وأستقبله، وأمسك بإحكام أكمام والدي الخاوية حيث يوجد داخلها الهيكل

العظمي كأنه حبل دقيق وناعم. أسند والدي استعدادا للولوج إلى منطقة الوجهاء الأثرياء، حيث تنتظرنا أريكة مريحة في ذاك الجانب، ولكن والدي يمنعي، ويقول:

«هناك ليس المكان المخصص لجلوسنا».

نحن نجلس على المقاعد البلاستيكية، ويدي اليمنى تسند يد والدي اليسرى التي يرتدي فيها القفاز الأبيض وبه فتحة تجعلني أشعر بالهيكل العظمي لأصابع والدي، وأشعر أنها ضعيفة وهشة لدرجة أنها تتكسر إذا لمستها. ويحدق والدي في وجهي، ويحاول التعرف إلي بعيون خالية من النظرات، وجعلني أشعر بالود والحنان، ويصعب عليّ وصف ذلك، وأناذي قائلاً:

«بابا».

والدي يحني رأسه، ويقول بحزن: «أنت حضرت هنا بسرعة على هذا النحو».

أقول: «بابا، أنا أبحث عنك دائماً وأبداً».

والدي يرفع رأسه ويحدق في وجهي ويواصل التعرف عليّ بعيون خالية من النظرات، ويردف قائلاً في حزن وألم: «أنت حضرت هنا بسرعة على هذا النحو».

وأسأله: «يا بابا، أنت خشيت أن تثقل كاهلي؟ ومن ثم تركتنا وانصرفت».

يومئ برأسه، ويقول بصوت خافت: أريد فقط الذهاب إلى العالم الآخر بغرض الرؤية والمشاهدة، وأعرف أن مرضي من الصعب مداواته، ولذا فكرت في الذهاب إلى هناك.

«لماذا تذهب إلى هناك».

«أنا حزين، وعندما أتذكر أنتي تخليت عنك، أشعر بالحزن والألم».

أقول: «بابا، أنت لم تتخل عني أبداً».

كنت أود العثور على ذاك الحجر، وأجلس فوقه فترة قصيرة، أفكر دائماً في الذهاب إلى هناك، وعندما تظلم السماء، أريد أن أغشى المكان هناك، ولكن لا أذهب إلا بعد انبلاج النهار، وأراك، ويعز عليّ فراقك».

«بابا، لماذا لم تخبرني بذلك؟ وأنا اصطحبك ونذهب سوياً».

«فكرت أن أخبرك بذلك، فكرت مرات عديدة».

«ولماذا لم تقل؟».

«لا أدري».

«أتخشى أن تجعلني حزيناً؟».

أقول: «كلا، ولكن ما زلت أفكر أن أذهب هناك بمفردي».

«ولذلك، انصرفت بلا استئذان».

«بلى، كنت أود أن أركب قطار الليل وأرجع أدراجي».

«ولكنك لم ترجع».

«لقد رجعت»، رجع بعد وفاته، «ووقفت أياماً طويلة قبالة

الحانوت وشاهدت أناساً آخرين يخرجون من داخله».

«وذهبت أبحث عنك».

«ورأيت أناساً آخرين يديرون الحانوت، ومن ثم عرفت أنك

تبحث عني».

أقول: «أنا أبحث عنك دائماً، وذهبت إلى ذاك السوق الذي

شهد اندلاع النيران في اليوم الذي انصرفت فيه، وأشعر بالقلق

حيال وجودك في داخله».

«أي سوق؟».

«ذلك السوق الضخم المطلي باللون الفضي، وليس بعيدا عن الحانوت الذي كنا نملكه».

«لا أتذكر».

تذكرت أنه وقع في شرك آلام مرضه عندما فتح ذلك السوق أبوابه أمام الجمهور، وأقول: «أنت لم تذهب هناك».

يقول بحزن شديد مرة أخرى: «حضرت إلى هنا بسرعة على هذا النحو».

أقول: «بحثت عنك في كافة بقاع المدينة، كما عرجت على قريبك للهدف نفسه».

ويسألني: «هل رأيت الأعمام والعمات؟».

أجيب: «رأيتهم وشهد المكان هناك تغييرا أيضاً»، ولم أذكر أن المكان هناك تغير وبات بورا.

ويسأل: «وهل ييفضونني؟».

أجيب: «إنهم جميعا يشعرون بالحزن الشديد».

يقول: «يتعين علي زيارتهم منذ وقت مبكر».

أقول: «بحثت عنك في كل مكان، ولم يخطر ببالي أنك ركبت القطار وذهبت إلى هناك».

ويدمد: «ركبت القطار...».

في هذه الأثناء، أبتسم وأتذكر أن كلا منا يبحث عن الآخر في عالمين منفصلين.

ويدوي صوته الحزين المؤلم مرة أخرى، ويقول: «أنت حضرت هنا بسرعة على هذا النحو».

«بابا، لم يدر بخلدي أن أراك هنا».

«أنا هنا أود رؤيتك كل يوم، وعلى كل حال، لم يخطر على بالي أن أراك بسرعة هكذا».

«بابا، ونحن نقيم معا مرة أخرى».

لم يكن في الحسبان أن ألتقي والدي مرة أخرى بعد الفراق الأبدي بيننا، وعلى الرغم من أن أجسامنا تفتقر إلى الحرارة، وتفتقر إلى التنفس، ولكن أنا ووالدي نقيم معا مرة أخرى. ويدي اليمنى تتحرر من أصابعه ذات الهيكل العظمي الدقيق الناعم داخل القفاز الأبيض المتهالك الذي يرتديه، وأضعها بحرص شديد على ذراعه ذي الهيكل العظمي. وعندي رغبة شديدة أن أقول له: يا بابا، أمشي معك. ولكن أعرف أنه يعشق عمله، ويحب العمل حبا جما في ردهة منتظري حرق أجسادهم، ولذلك أقول: «يا بابا، سأحضر هنا دائما من أجل رؤيتك».

أشعر بأن ابتسامة ترتسم على وجهه ذي الهيكل العظمي. ويسألني: «هل يعرف والداك اللذان تتحدر من صلبهما ودمهما أنك هنا؟».

«ربما ما زالوا لا يعرفان».

يتهدد تهيدة، ويقول: «سوف يعرفان بالتأكيد».

لم أنطق بكلمة مرة أخرى، وهو لم يفه بحرف مرة ثانية أيضا، ويسود ردهة منتظري حرق الأجساد هدوء يشبه استعراض ذكريات الماضي، ونقدر اللحظة الغالية التي تجمعنا سويا، ويشعر كل منا بالآخر في خضم الصمت المطبق، وأشعر بأنه يركز نظراته على ندوب الجرح في وجهي، ورممت زوجتي (لي تشينغ) يدي اليسرى وأنفي وذقتي، ولم نتخلص من تلك الندوب الباقية هناك.

وتبدأ يدها اللتان داخل القفاز الأبيض المتهالك تتحسسان ذراعي وترتعش أصابعه ذات الهيكل العظمي، وأشعر بأن هذه الملامسة الأبدية بيننا هي التواصل من جديد أيضا.

وتتسلل أصابعه إلى الشريط الأسود على ذراعي، ثم تستقر فوق ذاك الشريط بعد ذلك. ويخفض رأسه بصورة عميقة ويفرق في الآلام والأحزان المزمنة. ويدرك أنه بعد أن فارقت دنيا المحيا، أعيش في ذلك العالم وحيدا معزولا. ولم يسألني كيف أعيش هنا، وذلك لأنه ربما لا يريد أن يجعلني كئيبا، كما لا يود أن يجعلني حزينا. وبعد فترة قصيرة، يقول بصوت خافت: أود أن أضع ذاك الشريط الأسود على ذراعي. وكانت ذلك رغبة والدي الحميمة، وسمعت ذلك بأذني. وأطأطئ رأسي، وأنزع الشريط الأسود من ذراعي وأعطيه إياه، ويخلع القفازات البيضاء وتتململ عشرة أصابع من الهيكل العظمي وتقترب من الشريط الأسود، كما تهز ذاك الشريط المعلق على كمي الأجوف.

وبعد أن يضع يديه في القفازات البيضاء المتهالكة، يرفع رأسه ويحملك في وجهي، ولمحت حبتين من الدموع تتهمران من تجويف عينيه. وعلى الرغم من أنه حضر هنا في وقت أبكر مني، بيد أنه ما زال يذرف الدموع حزنا وكمدا على الشباب الذين يودعهم العجائز.

* * *

«يخبرني شخص ما بأن السير في هذا الاتجاه يجعلني أستطيع رؤية صديقتي».

«من صديقتك؟»

«تلك الفتاة التي تعتبر أجمل فتاة هنا».

«ما اسمها؟».

«اسمها ليومي، كما تدعى شومي أيضا».

وفي طريق عودتي، يتقدم نحوي شخص يسير بخطوات سريعة، ويمسك بطنه بيده اليسرى دائما، وجسمه مائل قليلا، وشكله يدل على أنه يعاني من مرض خطير، وتعرفت على ذلك الشخص العجول صاحب الشعر الأشعث الأسود الذي يشبه قبعة من الفرو، وتذكرت تسريحة شعره زاهي الألوان، ومن المفترض أنه لم يصبغ شعره منذ فترة طويلة جدا، كما أنه لم يقص شعره أيضا. «أنت وو تشاو».

«كيف عرفت اسمي؟».

«أنا أعرفك».

«كيف تعرفت علي؟».

«أثناء تأجير غرفة».

انتباهي وتركيزي يبددان أمارات الحيرة على وجهه رويدا رويدا، ويحلق في وجهي قائلاً: «أشعر بأنتي فيما يبدو رأيتك في مكان ما».

أقول: «عندما كنت تستأجر غرفة».

يتذكر ذلك، ويفتر ثغره عن ابتسامة، ويقول: «نعم، حينما كنت أستأجر غرفة».

أراه ما زال يمسك بطنه بيده اليسرى، وأسأله: «ما زلت تشعر بالألم، أليس كذلك؟».

يقول: «لا أشعر بالألم».

يسبل يده اليسرى عن بطنه، ثم يعود إلي هنا مرة أخرى حسب عادته، ولا تزال يده تمسك بطنه.

أقول: «نعرف أنك بعت كلية من أجل أن تشتري قبراً لصديقتك شومي». .

يحدق بوجهي في حيرة وارتيباك، ويسأل: «من أنتم؟». .
تشير إصبعي إلى الاتجاه في الأمام، وأقول: «الناس هناك في ذلك الجانب». .

«من الناس الذين هناك في ذلك الجانب، من هم؟». .
«كل الذين يفتقرون إلى قبر يقيمون هناك». .
يطأطئ رأسه كأنه فهم كلامي. ويسألني مرة أخرى: «كيف عرفت ذلك؟». .

يقول: «شياو تشينغ حضر وأخبرنا بذلك». .
ويسأل: «أحضر شياو تشينغ أيضاً ومتى حضر؟». .
أقول: «من المفترض قبل ستة أيام، وكان يضل طريقه دائماً، وأمي حضرت إلينا هناك». .
«ولماذا حضر شياو تشينغ؟». .

«بسبب حادثة سير، حادثة سير وقعت في خضم الضباب الكثيف». .

يقول في حيرة وارتيباك: «لا أعرف الضباب الكثيف». .
ويؤكد أنه لا يعرف الضباب الكثيف، وتذكرت أن شياو تشينغ قال إنه ينام في ملجأ ضد الفارات الجوية تحت الأرض. .
أقول: «كنت في ذلك الملجأ آنذاك». .

يومئ برأسه، ثم يسألني: «كم مضى من الوقت على حضورك هنا؟». .

«سبعة أيام». .

«وأنت؟». .

«يبدو أنني حضرت توأ».

أتذكر أنه وشوممي قد حضرا جنبا إلى جنب، وأقول: «إذن، حضرت اليوم».

تعلو وجهه علائم الشوق واللهفة، ويقول: «أنت رأيت شوممي بالتأكيد».

أومئ برأسي، وأقول: «رأيتها».

يسأل: «أتشعر شوممي بالسعادة هناك؟».

أقول: «سعيدة جدا، وعندما عرفت أنك بعث كليتك من أجل أن تشتري لها قبرا انفجرت في البكاء، وبكت بحزن شديد جدا».

«هل ما زالت تبكي إلى الآن؟».

«لا تبكي الآن».

«أستطيع رؤيتها فورا».

ويشبهه تعبير العينين المفتطبتين ظل ورقة شجر يغمر وجهه على هذا النحو.

أتردد قليلا، وأقول: «أنت لا تراها، لقد رحلت إلى قبرها تنعم بالراحة الأبدية».

«هل ذهبت إلى قبرها حيث الراحة الأبدية؟».

ظل ورقة الشجر المبتهج يبتعد عن وجهه ويحل محله ظل ورقة الشجر الحزين.

ويسألني: «متى تذهب؟».

أجيب: «اليوم، ذهبت هناك عندما حضرت أنت هنا، لقد ضاعت منكم فرصة اللقاء».

يحنى رأسه، ويبكي في صمت ويمشي إلى الأمام. يسير فترة قصيرة ويكف عن البكاء، ويقول في ألم ممض: «كان من الأفضل

أن أحضر هنا مبكرا بيوم حتى أستطيع رؤيتها». أقول: «إذا حضرت مبكرا بيوم تستطيع رؤية الفتاة شومي المتألقة الجديرة بالاحترام».

يقول: «هي دائما متألفة وتحظى بالاحترام والتقدير». أقول: «حينما توجهت إلى أرض الراحة الأبدية كانت أكثر تألقا واحتراما وتقديرا، وترتدي تنورة طويلة تشبه فستان الزفاف، وتجرجر أذيال التنورة على أديم الأرض...». يقول: «ليس عندها تنورة طويلة هكذا، ولم أرها ترتدي تنورة طويلة على هذا النحو».

أقول: «تلك التنورة الطويلة كانت في الأصل بنطالا رجاليا طويلا».

يقول في حزن وأسى: «أعرف، وقد قرأت على صفحة الفيسبوك أن بنطالها قد تمزق إربا، وارتدت بنطال أناس آخرين».

أقول: «إنه رجل صالح قدم لها بنطالا لترتيده». نمشي في صمت مطبق إلى الأمام، والأرض السهلية الفسيحة الشاسعة ما زالت على حالها، وجعلتنا نشعر بأن خطواتنا كأنها تدوس على أرض بكر.

ويسألني: «أتشعر شومي بالسعادة؟، هل كانت مسرورة حينما ذهبت إلى قبرها وترتدي التنورة الطويلة؟».

أقول: «مسرورة جدا، تخشى فصل الربيع، تخاف أن جمالها يفسد ويتعفن، وكانت تشعر بسعادة غامرة لأنك اشتريت قبرا لها، وتستطيع أن تنعم بالراحة الأبدية، حيث إن فصل الربيع لم يأت بعد، وذهبت للراحة الأبدية وهي في كامل جمالها، وقلنا

إنها ليست مثل الذين يذهبون إلى القبر، بل إنها تشبه العروس في ليلة زفافها، والألم يعتصر في قلبها عندما سمعت ذلك، وتبكي في حزن وأسى».

يسأل: «لماذا تبكي؟».

أقول: «بكت لأنها تذكرت أنها تذهب إلى قبر الراحة الأبدية، ولا تذهب للزواج».

يشعر وو تشاو بحزن دفين، وعندما يمشي إلى الأمام يرفع يده اليمنى التي تتأرجح، كما يرفع يده اليسرى التي يمسك بها بطنه دائماً، وكفكف عينيه بيديه تارة، ويمشي تارة أخرى.

يقول: «لا يجوز خداعها حقاً»، ويردف: «لا يجوز خداعها من خلال شراء الهاتف الخليوي المغشوش iPhone، وهي تتطلع بشغف إلى اقتناء ذلك الهاتف الخليوي، ويلوك لسانها بهذه الرغبة، وهي تعلم أنني تعوزني النقود ولا أستطيع شراء iPhone الحقيقي، وهي لا تملك سوى التطلع وبشوق إلى الهاتف الخليوي وتحدث عنه دائماً وأبداً، ولا يتعين علي خداعها وأشتري لها بضاعة مغشوشة، وأعرف السبب وراء انتحارها، ولا يكمن في أنني اشتريت بضاعة مغشوشة، بل يكمن في خداعي لها».

يسبل يديه بعد أن كفكف عينيه، ويقول: «وإذا أخبرتها بأن الهاتف الخليوي ليس حقيقياً ويوجد في جعبتي النزر اليسير من النقود، ربما تشعر بالسعادة وتقفز في الهواء وتحتضنني، وهي تعرف أنني أبذل قصارى جهدي من أعماق قلبي. وهي تعاملني معاملة طيبة، وعاشت معي ثلاث سنوات، وعاشت أياماً مرة في تلك السنوات. ونشاجر دائماً لأننا فقراء، وأستشيط غضباً في أغلب الأحيان، وأسبها وأضربها، ولا أستطيع تحمل

ذلك كله عندما أتذكره، ولا يجوز أن يملكني الغضب، ولا يجوز أن ألعنها وأضربها، وثنن من وطأة الفقر مرة أخرى، ونتذوق مرارة العيش مرة أخرى، وهي لا تفارقني أبداً، وأضربها وأسبها، وهي تبكي بحزن ولا تفارقني أبداً، وأضربها وأسبها، وهي تبكي بحزن ولا تفارقني أبداً، وبعد البكاء ما زالت تعيش معي جنباً إلى جنب. ولديها شقيقة تعمل فتاة ليل في الملهى الليلي، وتصعد خشية المسرح مساء كل يوم وتؤدي بعض الأعمال الفنية، وتكسب عشرات الآلاف في الشهر الواحد، وتود أن تعمل فتاة ليل في الملهى الليلي أيضاً، وتقول إذا عملت هناك بضعة أعوام وكسبت المال الكافي، ترجع معي إلى مسقط رأسي، ونبني بيتاً ونتزوج، وتقول إن أقصى أمانيتها أن تتزوجني. وأنا لم أوافق. ومع ذلك، لا أتحمل أن يلمسها الرجال الآخرون، وقد ضربتها، وفي تلك المرة ضربتها حتى تورم وجهها، وهي تبكي وتصرخ وتريد أن تفارقني. وفي بكور اليوم التالي تحتضنني، وتخبرني بأنها تشعر بتأنيب الضمير نحوي، وتقول إنها لا تسمح للرجال الآخرين بأن يلمسوا جسدها إلى الأبد. وعندما تعاجلني المنية، فإنها لا تسمح لأي رجل أن يتحسس جسمها، وإنها تريد أن تكون أرملة. وأقول إننا لم نتزوج بعد، وحينما أرحل عن هذه الدنيا، لا يمكن أن تقول لي إنك أرملة، وتقول إنني أهذي بالكلام، وحينما أنت تموت أصبح أنا أرملة. وفي شتاء العام المنصرم، الذي كان أكثر برودة عن هذا الشتاء، انتقلنا إلى ملجأ ضد الغارات الجوية تحت الأرض توا، وجيوبنا خاوية من النقود، ولم نحصل على عمل بعد، ونستلقي فوق الفراش طوال اليوم، ونحتسي فقط بعضاً من الماء الساخن، وهي تطلب الماء الساخن من الجيران، وعندما يأتي

الماء نتضور جوعا وتتوتر أعصابنا، وتنزل من الفراش، وترتدي ملابسها، وتقول إنها تدلف إلى الخارج، وتستجدي بعضا من الطعام. وأقول كيف تستجدين الطعام من الآخرين؟ تقول إنها تقف وتستجدي المارة، وأنا أرفض ذلك، وأقول إن ذلك يعتبر تسولا. تقول: أنت لا ترغب في الاضطلاع بالاستجداء، إذن، ابق في مكانك على السرير، أما أنا فأستجدي بعضا من الطعام من أجلك. ولا أسمح لها بالخروج، وأقول: أنا لا يمكن أن أكون متسولا، وكذلك لا أسمح أن تكوني متسولة أيضا. وتقول كلانا يموت جوعا، وأنت لا تزال تهتم إذا كان تسولا أم لا. وهي تصر على الخروج، واضطرت لأن ارتدي ملابسني المحشوة بالريش وأتبعها ونخرج من ملجأ ضد الغارات الجوية. كان الجو بارد جدا في مساء ذلك اليوم، وتهب ريح عاتية وتقتحم رقبتني إلى صدري. وأنا وهي نقف في الشارع، وهي تقول للمارة: لم نأكل شيئا طوال اليوم، يمكن أن تعطوني النزر اليسير من المال. ولم يعرفها أحد اهتماما، ونحن نقف وسط الريح الباردة أكثر من ساعة، وتقول إنها لا تستطيع هكذا أن تستجدي الطعام، يجب الوقوف خارج باب مطعم والانتظار هناك. وتسحب يدي، ونمشي في خضم قساوة برودة الريح حتى نصل إلى مخبز مشرق، كما تسحب يدي ونمشي ونعود مرة أخرى، وتطلب مني أن أقف في الخارج، وتدلف إلى الداخل، وأشاهدها عبر الزجاج الشفاف تمشي أولا إلى الكونتر، وتتحدث مع الندل الذين يطأطئون رؤوسهم، كما تمشي إلى أمام رهط من الأشخاص الذين يجلسون هناك يأكلون الخبز ويحتسون الماء الساخن، ويتحدثون معها بضع كلمات، ويهزون رؤوسهم أيضا. وأدرك أنهم يرفضون إعطاءها

خبزا، وتدلف إلى الخارج وكأن شيئا لم يحدث، وتسحب يدي، ونمشي إلى مدخل مطعم يبدو فخما جدا، تقول نحن ننتظر هنا، وعندما يخرج الزبائن بعد أن تناولوا الطعام، وفي أياديهم علب بقايا الطعام، وتطلب منهم علبة. وفي هذه الأثناء، كنت أشعر بالجوع، كما أشعر بالبرد أيضا، وأقف مرتعشا غير ثابت وسط الريح شديدة البرودة، ويبدو أنها لا تشعر بالبرد ولا بالجوع، وتقف هناك تترقب خروج الزبائن في جماعات، ولم تر أحدا منهم يحمل في يده علبة بقايا الطعام، بل شاهدت فقط أنهم يستقلون السيارات الفارهة التي تأتي الواحدة تلو الأخرى. وذلك المطعم فاخر جدا، وزبائنه جميعهم من الأثرياء الذين لا يعبئون بقايا الطعام في علب. وبعد ذلك، كان هناك رجل يشبه التاجر تماما يودع بضعة من الأفراد الذين يشبهون المسؤولين تماما، يقف أمام مدخل المطعم ويتصل هاتفياً بسائقه، وتتقدم إليه وتخاطبه: نحن لم نأكل شيئا طوال اليوم، ونحن لا نريد طعاما، ولا نريد نقودا، نطلب فقط أن تغمدنا بطيبة قلبك ورحمتك، وتذهب إلى المخبز المجاور وتشتري لنا رغيفين من الخبز. يفلق ذلك الرجل التاجر في منتصف العمر هاتفه الخلوي، ويحملق في معالم وجهها، ويقول أنت جميلة هكذا، وتحتاجين رغيفين؟ ويقول إن الجمال لا يمكن أن يصبح خبزا نأكله، يبتسم ذلك الرجل ويقول إن الجمال في الواقع لا يمكن أن يكون خبزا، ولكن الجمال رأس مال غير مرئي. تقول: رأس المال الذي لا تراه العين يكون زائفاً، بينما بالخبز يكون حقيقة ماثلة. يصدر ذلك الرجل صوت آه، ويخاطبها قائلاً: أنت جميلة، وذكية أيضا، أنت تمشين معي، وتتبعينني وتستطيعين أن تأكلي كل ما تشتهين. تدير رأسها

وتشير إلي، وتقول: إنه يشاطرنى حياتي. يحملق ذلك الرجل في وجهي، وتعابير عينيه تبدو كأنها تتكلم، ويقول: ذلك الغلام الحقير الفقير.

تأتي سيارة ذلك الرجل في منتصف العمر من ماركة «مرسيدس»، ويفتح باب السيارة ويخاطب السائق في الداخل ويطلب منه أن يذهب إلى ذلك المخبز ويشتري أربعة أرغفة. ينزل السائق من السيارة، ويعود إلى المخبز عدواً وثيداً، ويدوي صوت رنين الهاتف الخلوي لذلك الرجل الذي يستقبل المكالمات الهاتفية. يشتري سائقه الخبز ويعود مهرولاً، يتصل بالهاتف الخلوي تارة، ويتحدث إلى سائقه تارة أخرى، ويطلب منه أن يعطي لهما الخبز.

يسلمها السائق كيساً ورقياً معبأً داخله أربعة أرغفة، وهي تتقدم بالشكر والامتنان لذلك الرجل الذي يركب سيارته المرسيدس وتتطلق به. تمد يدها إلى داخل الكيس، وتكسر قطعة من الخبز الساخن الذي خرج تواً وتدسها في فمي، كما تضع لباسها داخل ذلك الكيس أيضاً، يدها من جليد تسحب يدي الباردة، وتقول لي: نعود أدراجنا ونأكل الخبز.

نعود أدراجنا إلى مسكننا تحت الأرض، وتطلب كوباً من الماء الساخن من الجيران أيضاً، ونحن الاثنان نجلس على السرير، وتطلب مني أن أرتشف رشفة من الماء الساخن، ثم بعد ذلك أكل الخبز، وهي تخشى أن يحدث لي غصة. وهي في نشوة من الفرح كأنها لم تعد مهمومة بالطعام والشراب من الآن فصاعداً. وانفجرت في البكاء بحزن وألم بصورة فجائية حينما كنت أتناول الخبز، وألثهم دموعي في داخلي، وأزدرد الخبز في فمي، وأقول

لها يجب علينا أن نفترق، وألا تتبعيني وتعيشي حياة الشقاء والعذاب. تضع قطعة الخبز التي كانت تأكلها، وتهمر دموعها كالشلال، وتخاطبني قائلة: لا تفكر أن تتركني وراء ظهرك، وعلاقتي بك قائمة معك طوال حياتي، وحينما أموت وأصبح شبعا، فإن علاقتي لا تنقطع معك أبداً.

هي جميلة وحسنة، وهناك كثر يخطبون ودها، وهم يكسبون نقوداً أكثر مني، ولكن هي مصممة على رأيها وتلازمي في أيام الفقر. وقد تجأ بالشكوى في بعض الأحيان، وتشتكي أنها تصطحب رجلاً لا يحقق آمالها، ولكن تكفي بالكلام فقط، وبعد أن تجيش بما يعتمل في داخلها تنسى أنها تعيش مع رجل بلا أمل».

ترتسم ابتسامة على وجه وو تشاو، وقد قطعنا شوطاً طويلاً من الطريق، ولا تزال الأرض السهلية المترامية الأطراف تساور الجهات الأربع، وما زلنا نسير في وحدة وعزلة. وبدأت الابتسامة على وجه وو تشاو تكون سعيدة ومريحة، وبدأ يسرد مشهد لقائه الأول مع شومي:

«عندما رأيتهما للوهلة الأولى منذ ثلاث سنوات خلت، كانت عاملة غسيل الشعر في كوافير، وعند عبوري الشارع، ألقيت نظرة عابرة على الكوافير ورأيتهما (شومي) تقف أمام الباب تستقبل الزبائن، كما نظرت إلي بصورة عابرة، ويقفز القلب بين ضلوعي آنذاك، ولم أر فتاة جميلة هكذا، وأشعر بأن روحها تجذبها من داخلي عندما تنظر إلي بعينيها، ومشيت إلى الأمام أكثر من عشرين متراً، ولم أستطع المضي قدماً إلى الأمام مرة أخرى، وهي لا تزال واقفة أمام الباب، وعندما رأيتهما ألقت علي

نظرة عابرة جعلت نبضات قلبي تقفز بسرعة جدا، وترددت فترة قصيرة أيضاً بعد عودتي إلى هناك، ورجعت مرة أخرى، وكانت الفتاة الواقفة آنذاك أمام الباب لاستقبال الزبائن ليست شومبي. إنها تغسل الآن شعر أحد الزبائن في داخل الكوافير، وشاهدت وجهها يسطع في المرأة من خلال الزجاج الشفاف، وعيونها في المرأة تراني، وفي هذه المرة حملت في وجهي فترة قصيرة. وبعد أن زرعت المكان حول ذلك الكوافير ذهاباً وإياباً، استجمعت شجاعتي ودلفت إلى الداخل، وتعتقد الفتاة أمام الباب أنني أبغي قص شعري، وتخاطبني قائلة يشرفنا حضوركم، وأسألها بصوت مرتعش: أين المدير؟ يقول رجل يقف خلف كونتر المدفوعات النقدية: أنا المدير. وأسأله: هل تحتاج عاملاً يغسل الشعر هنا؟ ويجب: لا نحتاج الآن، والكوافير الذي أمامنا يبحث الآن عن عامل غسيل الشعر، اذهب إلى هناك.

أنصرف من ذلك الكوافير، والصرامة تعلو وجهي، ولا أجرؤ على أن أنظر إلى عيون شومبي، ومشيت في الشارع وقتاً طويلاً، ولا أستطيع بأي حال من الأحوال أن أنسى عيون شومبي، وبعد انقضاء يومين، استجمعت قوتي مرة أخرى، ودخلت وأسأل ذلك المدير إذا كان يحتاج عاملاً يغسل الشعر أم لا؟ ولا يزال المدير يقترح أن أذهب إلى الكوافير في الجهة المقابلة. وذهبت أربع مرات في غضون شهر بعد ذلك. وشعرت بأن شومبي تحمق في وجهي بمجرد دخولي. وفي المرة الرابعة، وعندما دخلت إلى هناك تزامن ذلك مع استقالة عامل غسيل الشعر، ومن حسن حظي أنني قمت بعمله. كما حملت رقمه في العمل وهو (7). وفي ذلك الحين، شومبي تحمق في وجهي وتبتسم من زاوية فمها المائل.

وفي مساء ذاك اليوم الذي تسلمت فيه العمل في ذلك الكوافير، كان عدد الزبائن الذين يقصون شعرهم غير كبير، وشوممي تجلس على الكرسي وتقلب صفحات مجلة «فن قص الشعر»، تطالع صفحات المجلة تارة، وترفع رأسها وتتنظر إلى نفسها في المرآة حيث يتطاير شعرها وكأنها تبحث لنفسها عن أجمل تسريحة شعر، وأجلس على كرسي بجوارها لأنني أشعر بالتوتر، وألهث بسرعة وبقوة، وتدير شوممي وجهها وتساألني: هل أنت مصاب بمرض الربو؟ أطأطئ رأسي بسرعة وأقول لست مصابا بالربو، وتقول شوممي: أنت تلهث بصوت غريب يبيث الخوف في نفوس الآخرين.

أجلس بجوارها وأشعر بالتوتر أكثر فأكثر، وأخشى أن يكون صوت لهاثي يشبه الربو، وأتففس بحذر شديد كأنني على وشك الاختناق، وهي ما زالت تقلب صفحات مجلة فن قص الشعر وتصمم بنفسها أنواعا جديدة من تسريحات الشعر المختلفة، وأستجمع قوتي وأسألها: ما اسمك؟ لا ترفع رأسها أيضا وتجيب: الرقم (3). ويبدو صوتها باردا فاترا، وشعرت بالحزن الشديد، ولكن بعد فترة قصيرة ترفع رأسها وتحملق في وجهي وتبتسم وتساألني: ما اسمك؟ أقول في اضطراب: الرقم (7). تبتسم وتساألني مرة أخرى: ما اسم الرقم (7)؟ وأكاد أتذكر اسمي توا، وأقول: الرقم (7) اسمه وو تشاو، تغلق صفحات المجلة وتخاطبني: رقم (3) اسمها ليوممي».

يتوقف وو تشاو فجأة، وتتوقف خطواته إلى الأمام، ويسرح نظره في الأمام، وتبدو علائم الاستغراب والدهشة على وجهه، ويرى المشهد الذي رأيته هنا من: تدفق المياه، والأعشاب الخضراء

التي تنتشر على أديم الأرض، والأشجار ناضرة الزهرة، وتغص أغصان الأشجار بالثمار ذات النوى، وأوراق الأشجار تشبه القلب تماما، وعندما تهتز وتتمايل تشبه نبضات ودقات القلب. وهناك كثرة كاثرة من الناس، وعدد كبير من البشر من ذوي سائر الهياكل العظمية، ناهيك عن بعض البشر من ذوي الأجسام السليمة التي تزرع المكان هناك جيئة وذهابا.

يدير جسمه نحوي في دهشة وذهول، وتعاير الشك والحيرة كأنها توجه إلي الأسئلة. وأقول له: امش، توجد هناك أوراق أشجار تلوح إليك بيدها، وهناك حجر يبتسم في وجهك، وهناك مياه نهر تقدم لك التحية. ولا يوجد هناك فقر وبؤس، كما لا توجد الثروة والجاه، لا توجد أحزان، كما لا توجد آلام، لا يوجد حسد، ولا توجد كراهية أيضا.. البشر هناك ماتوا وهم على قدم المساواة.

ويسأل: «أي مكان يوجد هناك؟».

أقول: «هناك توجد أرض الأموات الذين لم يدفنوا».

أ. د. عبد العزيز حمدي عبد العزيز

- من مواليد عام 1959 - المنصورة - جمهورية مصر العربية.
- اختصاصي بالسينولوجيا عن دراسة اللغة والأدب والتاريخ والثقافة الصينية.
- رائد الدراسات الصينية في الشرق الأوسط.
- مؤسسة مدرسة الترجمة من الصينية إلى العربية.
- صاحب المركز السادس عالميا في مجال الدراسات الصينولوجية منذ عام 2010.
- المترجم الأول للكتب والمؤلفات باللغة الصينية.
- رئيس قسم اللغة الصينية بكلية اللغات والترجمة - جامعة الأزهر.
- رئيس شعبة الدراسات الإسلامية باللغة الصينية - كلية اللغات والترجمة - جامعة الأزهر.
- مؤسس مجلس الأعمال المصري الصيني المشترك في العاصمة الصينية بكين في عام 2002.
- له عشرات المقالات الصحافية والأحاديث الإذاعية والتلفزيونية لمختلف قنوات الإذاعة والتلفزيون، ونشر سلسلة من المقالات والدراسات والأطروحات، وكتابة سلسلة من الدراسات السياسية حول الصين، والمشاركة في إقامة العديد من الندوات والمؤتمرات الصحفية والإعلامية في مصر والصين.
- له العديد من الكتب المترجمة، مثل: مسرحية (شروق الشمس)، سلسلة من المسرح العالمي - الكويت - العدد 244. كتاب (الصينيون المعاصرون)، سلسلة عالم المعرفة - الكويت - الجزء الأول والثاني العددان 210 و211. مسرحية (المقهى): مشروع الترجمة - المجلس الأعلى للثقافة - العدد 479، وكذلك سلسلة إبداعات عالمية - الكويت - العدد 354.
- له عدة إصدارات في مشروع «كلمة».
- ألف الكثير من الكتب منها: كتاب (التجربة الصينية)، إصدار أم القرى للطبع والنشر والتوزيع - القاهرة عام 1997. وكتاب (المسلمون في الصين)، كتاب اليوم، مؤسسة أخبار اليوم - القاهرة 2005.

لي جيه

- من مواليد بكين - جمهورية الصين الشعبية في العام 1966.
- حصلت على بكالوريوس الطب والجراحة من كلية طب العاصمة بكين، الصين الشعبية.
- من مسلمي جمهورية الصين الشعبية.
- تعلمت اللغة العربية وآدابها في المعاهد الأزهرية، القاهرة.
- تدرس صوتيات اللغة الصينية وآدابها بقسم اللغة الصينية، كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر.
- خبيرة الدراسات الإسلامية باللغة الصينية - شعبة الدراسات الإسلامية في كلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر.

تأليف : ليونيد أندرييف	314	حياة إنسان
تأليف : ميخائيل بولجاكوف	315	دون كيشوت
تأليف : كنيث ياسودا	316	واحدة بعد أخرى تفتتح أزهار البرقوق
تأليف : خلدون طائر	317	ملحمة علي الكاشاني
تأليف : جلال آل أحمد	318	نون والقلم
تأليف : تشاندرا سيخار كاميار	319	سيرى سامبيجي
تأليف : جورج أورويل	320	أيام بورمية
تأليف : ايتالو كالفيينو	321	ست وصايا للألفية القادمة
تأليف : ت. س. إليوت	322	السكرتير الخصوصي
تأليف : مجموعة من القاصين البرازيليين	323	قصص برازيلية
تأليف : رولان بارت	324	شذرات من خطاب في العشق
تأليف : جيمز ماكبرايد	325	لون الماء
تأليف : أمريتا بريتام	326	وجهان لحواء
تأليف : اليخاندرو كاسونا	327	المنزل ذو الشرقات السبع
تأليف : مجموعة من القاصين الباكستانيين	328	من الأدب الباكستاني الحديث
تأليف : مجموعة من القاصين الأتراك	329	مختارات من القصة التركية المعاصرة
تأليف : بهرام بيضائي	330	مسرحية محكمة العدل في بلخ
تأليف : بنانا يوشيموتو	331	مطبخ - خيالات ضوء القمر
تأليف : جونتر جراس	332	الطباخون الأشجار - الجرة المكسورة
تأليف : هاينرش فون كلايست	333	شمل تشابه ضائع
تأليف : أندريه شديد	334	حكايات الهندود الأمريكيين و أساطيرهم
تأليف : فلاديمير هلباتش	335	زهرة الصيف
تأليف : مجموعة من القاصين اليابانيين	336	طام - طام زنجي
تأليف : ليوبولد سيدار سنغور	337	البيروح
تأليف : نيكولو ماكيافلي	338	منزل النور
تأليف : جوهر مراد	339	كثبان النمل في السافانا
تأليف : تشنوا أشيبي	340	أناطول وجنون العظمة
تأليف : ارتور شنيتسلر	341	غرام ميتيا
تأليف : ايفان بونين	342	أرنجندن والحارس الليلي
تأليف : فيمي أوسوهيسان	343	ورقة في الرياح القارسة
تأليف : تنغ - هسنغ يي	344	مدرسة الدكتاتور
تأليف : إيريش كستتر - تيد هيوز	345	رسائل عيد الميلاد
تأليف : سليمان جيغو ديوب	346	حكايات وخرافات أفريقية (1) - الطفل الملك
تأليف : فريدريش شيللر	347	مسرحية عذراء أورليان

348	حكايات وخرافات أفريقية (2)	تأليف: سليمان جيفو ديوب
349	الأدغال والسهول العشبية تحكي القصة القصيرة الإسبانية أمريكية في القرن العشرين	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالإسبانية
350	مسرحيتا، 1- محنة الأخ جيرو 2- تحول الأخ جيرو	تأليف: وول سوينكا
351	روض الأدب (مختارات قصصية)	تأليف: أو. هنري
352	مسرحية، أنتيجون،	تأليف: ب. بريشت
353	أجمل حكايات الزمن يتبعها فن الهايكو	تأليف: هنري برونل
354	مسرحية، المقهى،	تأليف: لاوشه
355	مسرحيتا، 1- صناعة تاريخ 2- ترجمات	تأليف: برايان فرييل
356	رواية، الشباب،	تأليف: ج. م. كويتنزي
357	مختارات من الشعر المجري المعاصر (شعراء السبعينيات)	تأليف: مجموعة من الشعراء المجريين
358	مسرحيتا، 1- تلاميذ الخوف 2- الغزاة	تأليف: إيجون وولف
359	اسمي آرام (مجموعة قصصية)	تأليف: وليام سارويان
360	حامل الإكليل (قصص مختارة)	تأليف: مجموعة من القاصين المتحدثين بالألمانية
361	المنورة (مسرحية)	تأليف: سيلافومير مروچيك
362	الأيام الخمسة الأخيرة لرسول (رواية)	تأليف: تحسين يوجل
363	سبع مسرحيات ذات فصل واحد (من بولند)	تأليف: إيرينيوش إيريدنسكي
		أندجي ماليشكا
		ستانيسلاف ليم (ستانيسواف)
		سوافومير مروچيك
364	سبع نساء... سبع قصص	تأليف: مجموعة من القاصات الفارسيات
365	زمن الضحك (ملهاة خفيفة من ثلاثة فصول)	تأليف: نويل كاورد
366	بالأبيض على الأسود (رواية)	تأليف: روبين دايشيد غونساليس غاليغو
367	مسرحيتا، 1- سهرة في المقهى 2- موت ممثل مشهور	تأليف: تيان هان
368	إمرأة وحيدة، فروغ فرخزاد وأشعارها، سيرة حياة	تأليف: مايكل هلمان

تأليف: بيجي شانياهسكي	369	الملاح، (مسرحية من الأدب البولندي)
تأليف: بول أوستر	370	ليلة التنبؤ (رواية)
تأليف: نويل كاورد	371	هذا الجيل المحفوظ (مسرحية)
تأليف: أمادو همباطي با	372	لا وجود لخصومات صغيرة
تأليف: جيروم لورنس وروبرت إي. لي	373	الليلة التي أمضاها ثوروفي السجن (مسرحية)
تأليف: مجموعة من الشعراء الإيرانيين	374	مختارات من الشعر الإيراني الحديث
تأليف: بول بولز	375	العقرب وقصص أخرى (الجزء الأول)
تأليف: بول بولز	376	العقرب وقصص أخرى (الجزء الثاني)
تأليف: فروغ فرخزاد	377	الأسيرة، (مختارات من ديوان شعر)
تأليف: مونيك علي	378	شارع بريك لين (الجزء الأول)
تأليف: مونيك علي	379	شارع بريك لين (الجزء الثاني)
تأليف: كورماك مكارثي	380	الطريق (رواية)
تأليف: مجموعة من الأدباء الأوزبك	381	مختارات من القصص القصيرة الأوزبكية
تأليف: مارغريت دوراس	382	عشيق الصين الشمالية (رواية)
تأليف: إرنست همنغواي	383	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الأول)
تأليف: إرنست همنغواي	384	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثاني)
تأليف: إرنست همنغواي	385	المجموعة القصصية الكاملة لإرنست همنغواي (الجزء الثالث)
تأليف: أرافيند أديفا	386	النمر الأبيض (رواية)
تأليف: دويرافكا أوجارييسك	387	موطن الألم (رواية)
تأليف: باسكال كينيارد	388	فيلا أماليا (رواية)
تأليف: جوليان بارنز	389	الإحساس بالنهاية (رواية)
تأليف: إيزابيل أبرهاردت	390	ياسمين (وقصص أخرى)
تأليف: شيخ حامد كان	391	المغامرة الفاضلة (رواية)
تأليف: أناندا ديفي	392	الرجال الذين يحادثونني (رواية)
تأليف: مجموعة من الأدباء الإيرانيين	393	أنطولوجيا القصة الإيرانية الحديثة
تأليف: أمادو همباطي با	394	حكايات حكماء أفريقيا وأسطورة نجدو ديوال
تأليف: نور الدين فرح	395	خرائط (رواية)
تأليف: كريستان توروب	396	إله الصدفة (رواية)
تأليف: البرتو مينديس	397	أزهار عباد الشمس العمياء (رواية)

ما صدر من هذه السلسلة

398	الأبدية بعيدة جدا (وقصص أخرى)	تأليف: تيه نينغ
399	أذهب حيث يقودك قلبك (رواية)	تأليف: سوزانا تامارو
400	الحضارة أمي (رواية)	تأليف: إدريس الشرايبي
401	فنان الاختفاء (ثلاث روايات قصيرة)	تأليف: أنيتا ديساي
402	عينها (رواية)	تأليف: بزرگ علوي
403	السياسة إلى المنزل (رواية)	تأليف: ديبورا ليفي
404	الرقة (رواية)	تأليف: دافيد فونكينوس
405	على قيد الحياة (رواية)	تأليف: يوهوا
406	الأب (رواية)	تأليف: جورج أكليين
407	إنني أتعافى (رواية)	تأليف: دافيد فونكينوس
408	الوردة الزرقاء (رواية)	تأليف: بينلوبى فيتزجيرالد
409	إبداعات نسائية (مجموعة قصصية)	تأليف: مجموعة من الكاتبات التركيات
410	الإياب (ديوان شعر)	تأليف: هاينريش هاینه
411	سبع حكايا تعود من بعيد	تأليف: جان كريستوف روفان
412	المخادع الحقيقي (رواية)	تأليف: توف جاندسون

البيان	إبداعات صائبة		مجلة الانتعاش العالمية		مجلة عالم الفكر		سلسلة عالم المعرفة		مجلة الفنون		المسح العالمي
	دك	دولار	دك	دولار	دك	دولار	دك	دولار	دك	دولار	
المؤسسات داخل الكويت	20	-	12	-	12	-	25	-	20	-	دولار
الأفراد داخل الكويت	10	-	6	-	6	-	15	-	10	-	-
المؤسسات في دول الخليج العربي	24	-	16	-	16	-	30	-	24	-	-
الأفراد في دول الخليج العربي	12	-	8	-	8	-	17	-	12	-	-
المؤسسات في الدول العربية الأخرى	-	50	-	30	-	20	-	50	-	50	50
الأفراد في الدول العربية الأخرى	-	25	-	15	-	10	-	25	-	25	25
المؤسسات خارج الوطن العربي	-	100	-	50	-	40	-	100	-	100	100
الأفراد خارج الوطن العربي	-	50	-	25	-	20	-	50	-	50	50

الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في، تسجيل اشتراك [] تجديد اشتراك

الاسم،
العنوان،
اسم المطبعة،
البلغ المرسل،
التوقيع،
مدة الاشتراك،
نقدًا / شيك رقم،
التاريخ، / / ٢٠٠٠م

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب مع مراعاة سد صمولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت.
وترسل على العنوان التالي،

السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص.ب. 28623 - الصفاة - الرمز البريدي 13147
دولة الكويت



المجلس
الوطني
للثقافة
والفنون
والآداب



يو هوا

ولد في مدينة هانتشو بالصين الشعبية في العام 1960. عمل طبيب أسنان. ثم التحق بقسم الأدب في جامعة المعلمين في بكين، وبدأ الإبداع الأدبي والتأليف في العام 1983. كتب خمس روايات طويلة وست روايات متوسطة. ومن أهم أعماله: «مسافر في الثامنة عشرة من عمره»، و«خطايا على ضفة النهر»، و«هتاف وسط الأمطار»، و«الأشقاء»، و«اليوم السابع». تُرجمت بعض أعماله إلى أكثر من عشرين لغة أجنبية. ونشرت في أكثر من ثلاثين دولة. حصل على العديد من الجوائز منها: الجائزة الإيطالية «جرين زانا كافور» (1998). وجائزة «فارس» الفرنسية (2004). وجائزة كتب الصين للمساهمة الخاصة (2005). والجائزة الفرنسية للرواية الأجنبية (2008).

اليوم السابع

رواية «اليوم السابع» هي حلقة متصلة من حلقات وصف عذابات الإنسان في هذا العصر. كتبها الأديب الصيني يو هوا خلال رحلته التعيسة في مسار جحيم الدنيا وجحيم الآخرة. إنها رواية «الآلام والأوجاع» التي تئن من وطأتها كافة النماذج البشرية في المجتمع الصيني المعاصر بأسره. الرواية تسرد قصة بطلها ويدعى «يانغ في». يحكي كل ما رآه وسمعه في سبعة أيام بعد وفاته. ويفشي كل مكنونات صدره وعذابه وشقائه في حياته. ففي اليوم الأول من ماته. يتوجه إلى «مؤسسة الخدمات الجنائزية». ولا يستطيع أن يحرق جسده. لأنه يفتقر إلى قبر يوارى جثته. ويمشي الهويني في «أرض الأموات الذين لم يدفنوا». وهناك يقابل بشراً من كافة الأصناف والأطباف يرزحون تحت وطأة المشاعر الكثيرة والأحاسيس الحزينة مثل: الفتاة (شومي) التي تنتحر بعد أن خدعها صديقها واشترى لها هاتفاً خلويًا مغشوشاً. ويبيع صديقها (وو تشاو) كليته من أجل أن يشتري لها قبراً. ثم تعاجله المنية بعد أن أصابه التلوث من جراء استئصال الكلية.

عندما نطالع صفحات الرواية ونلتقي بالأموات الذين لم يدفنوا في العالم الآخر. سنحظى بسويغات تسمو فيها نفوسنا. ويصقل وجداننا. وقد يطوف طائف من الحزن. وتظفر الدموع من عيوننا. ولكننا مع ذلك نشعر بتسامي عواطفنا. وخليق عقولنا. وصفاء خواطرنا. وكأننا قد نقلنا إلى عالم آخر أكثر عدالة. وأكثر طهارة. وأكثر إثارة للشجون والاهتمامات من عالمنا الرتيب المملول.

على هذا النحو. نشعر بالعطف نحو كاتبنا ونحنو عليه لأنه يفتح لنا مغاليق قلبه. ويفضي إلينا بدخائل نفسه. فقد أكمل الدائرة بين الموت والحياة. وحقق أقصى ما يصبو إليه من تقدير الحقائق. وتخري الواقع. ودراسة المشكلات الاجتماعية التي تتحدى المجتمع المعاصر في الصين. وتوهج قلمه في سناه الباهر في سعيه نحو الكمال الإنسان.